التـرجمـة

أخبار وأمصار

رحلة المبشر إيفالد

من تونس إلى طرابلس

في سـنـة 1835

(مرورًا بسليمان ونابل والحمّامات وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة)

نقلها من الألمانية

إلى العربية وقدّم لها وعلّق عليها

مُنير الفنْدري

بيت الحكمة قرطاج

الثمن : 5.000 د.ت

ر.د.م.ك : 6 - 63 - 911 - 9973

الجمهورية التونسية

وزارة الثقافة

المؤسسة الوطنية

« بيت الحكمة »

حظي هذا الكتاب بتوصية بالنشر من

الأستاذ المنجي بوسنينة

وزير الثقافة

سلسلة الترجمة

1) " LES TRAVAILLEURS TUNISIENS ET L' EMERGENCE DU MOUVEMENT SYNDICAL "
نقله من العربية الى الفرنسية عبد الرزاق الحليوي ـ 1985 .
2) " التفكير الجديد في الفيزياء الحديثة " لأ رتور مارش
نقله الى العربية علي بلحاج ـ 1986 .
3) " SONGS OF LIFE " لأبي القاسم الشابي
نقله من العربية الى الأنقليزية ليناجيوسي وناومي شهاب نياي ـ 1987 .
4) " HEINRICH BARTH'S BRIEFE AUS TUNESIEN "
نقله من الألمانية الى العربية منير الفندري ـ 1987 .
5) " LE PETIT LIVRE DU SALUT "
نقله من العربية الى الفرنسية روجي أرنالداز ـ 1987 .
6) " KASHF AL-ASRAR AN ILM HURUF AL- GHUBAR " للقلصادي
نقله من العربية الى الفرنسية محمد سويسي ـ 1988 .
7) " JOURNAL " ـ لأبي القاسم الشابي
نقله من العربية الى الفرنسية المنجي الشملي ومحمد بن اسماعيل ـ 1988 .
8) " لغة الرياضيات في العربية "
ألفه بالفرنسية ونقله الى العربية محمد سويسي ـ 1989 .
9) " مصادر الفلسفة العربية " لبيار دوهيم
نقله من الفرنسية الى العربية أبو يعرب المرزوقي ـ 1989 .
10) " سميلاسو في افريقيا " نقله من الألمانية الى العربية منير الفندري والصحبي الثابتي ـ 1989
11) " في النحو التحويلي " لموريس قراس
نقله من الفرنسية الى العربية صالح كشو ـ 1989 .
12) " قصائد اليابان المائة "
نقلتها من اليابانية الى الفرنسية كلودين فراي وعربها الأديب الشاعر محسن بن حميدة ـ 1990 .
13) " تطور تونس الاقتصادي "
ألفه بالفرنسية محمد صالح مزالي و نقله الى العربية الهادي التيمومي ـ 1990 .
14) " المصريون " (دفاعا عن الاسلام والمسلمين)
ألفه بالفرنسية قاسم أمين ونقلته الى العربية سعاد التريكي ـ 1990 .
15) " عائلة بسكوال دوارتي " لكميلو خوسي ثيلا
رواية نقلها من الاسبانية الى العربية جمعة شيخة ومحمد نجيب بن جميع ـ 1991 .
16) " سهرت منه الليالي " لعلي الدوعاجي
مجموعة قصصية نقلها من العربية الى الأنقليزية وليم قرانارا ـ 1991

المدير المسؤول : رئيس المؤسسة الوطنية « بيت الحكمة »
عز الدين باش شاوش

رحلة المبشر إيفالد

من تونس إلى طرابلس في سنة 1835

(مرورًا بسليمان ونابل والحمامات وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة)

نقلها من الألمانية
إلى العربية وقدم لها وعلق عليها

منير الفندري

المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات
بيت الحكمة
1991

رحلة المبشر إيفالد / منير الفندري - تونس : المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) 1991 (تونس : PRISME) ، 168ص ، 24 صم (الترجمة : أخبار وأمصار) - مسفر .

ر.د.م.ك 6 - 63 - 911 - 9973

سحب من هذا الكتاب 3000 نسخة في طبعته الأولى

تنبيه

يعتبر كتاب «رحلة المبشّر ايفالد»... وثيقة هامة تتضمن معلومات اثنولوجية واجتماعية وانتروبولوجية. وهو على هذا الأساس معين ثري يفيد المؤرخ ودارس المجتمع العربي في القرن التاسع عشر. ولهذه الأسباب سعت مؤسسة «بيت الحكمة» إلى تعريبه ونشره.

لكن صاحب هذا الكتاب لم يلتزم حدود الوصف والعرض العلمي بل ضمّن بحثه أحيانا نظرياته الخاصة في تفسير الظاهرة الدينية عامة والديانة الاسلامية خاصة، مع ما في ذلك من انحياز عقيدي لديانته التي يقابل بها ما يزعمه من تعصّب المسلمين.

ولئن كانت الأمانة العلمية تقتضي اثبات الوثيقة على علاتها، فقد رأينا أن لا ننشر ما لا فائدة توثيقية في نشره. كما رأينا أن لا نتصدّى لمناقشة المؤلف بخصوص نظرته إلى الدين الإسلامي لأن كتابه ليس بحثا في العقيدة فيُردّ عليه من هذا الوجه. وما أتى الحديث عن العقيدة إلّا استطرادا، وهو استطراد لا يفيد دارس المجتمع العربي الاسلامي وانما يترجم عن تصوّرات صاحب الكتاب الشخصية.

«بيت الحكمة»

مقدمة المترجم

إن من طالع رحلة الأمير بوكلير موسكاو الى تونس سنة 1835(1) يذكر لا شك تعرض صاحبها الى شخصية مبشر ألماني الجنسية التقى به في حاضرة تونس نشيطا في نشر الانجيل بين اليهود وحتى المسلمين وإقامة القداس وغير ذلك من الطقوس العقائدية بالنسبة إلى المقيمين من طائفة البروتستان. وقد عرّفنا به ضمن تعاليقنا على الترجمة العربية لهذه الرحلة كونه المدعو كريستيان فردناند إيفالد وقلنا انه صاحب رحلة مزامنة لرحلة الأمير بوكلير ربط ضمنها بين الحاضرتين تونس وطرابلس طوال الشريط الساحلي ونشرت باللسان الألماني سنة 1837 تحت العنوان التالي :

REISE DES EVANGELISCHEN MISSIONAR
CHRISTIAN FERDINAND EWALD
VON
TUNIS ÜBER SOLIMAN, NABAL, HAMMAMET, SUSA, SFAX, GABIS, GERBA NACH TRIPOLIS
UND VON DORT ZURÜCK NACH TUNIS
IM JAHR 1835
Herausgegeben von Dr. Paulus Ewald
NÜRNBERG (EBNER) 1837

وقد رأينا فيها من التكامل مع رحلة الأمير من ناحية ومن فائدة توثيقية ذاتية من ناحية أخرى ما جعلنا نقدم، بإيعاز من مؤسسة «بيت الحكمة»، على نقلها إلى العربية وتقديمها إلى من يهوى كتب الرحلات عامة وإلى من يهتم بماضي أقطارنا المغربية خاصة ولا سيما من خلال منظار الشاهد الغربي.

ومما يزيد الرحلة هذه طرافة وأهمية شخصية صاحبها اللافتة للانتباه لا سيما وقد جاء إلى بلاد الاسلام لا للسياحة أو للاطلاع بل مبشرا بدين المسيح راميا الى «انقاذ» نفوس من لم يكن من الأهالي على مذهبه، كما كان يرى هو ومن كلفه بمهمته.

ولم نتمكن من ضبط مصدر ضاف نستقي منه ما يشفي الغليل عن شخص هذا الرجل وحياته فاقتطعنا من هنا وهناك حوصلة من شأنها أن تفي بالحاجة إلى أن نستقي صورته الثقافية فيتيسر لنا الكشف عن حوافزه على هذه الرحلة بمختلف مراحلها واستجلاء مواقفه وفهم آرائه وأفكاره كما ينبغي.

وقد وجدنا أنه عاش فيما بين 1803 و1875[2] فكان عمره لدى حلوله بتونس إذن تمام الثلاثين سنة. ذلك أننا عثرنا على مقالات له أو عنه في صحف بعض جمعيات التبشير[3] استفدنا منها أن صاحبنا وطىء أرض تونس وبالتحديد مرسى حلق الوادي في غضون سنة 1833 أو 1834 قادما إليها من الجزائر[4] حيث كان يقيم منذ 1832. فمن بين هذه المقالات واحدة تعتمد رسالة من إيفالد نفسه بعثها من المكان المذكور بتاريخ الثالث من نوفمبر 1832 يروي فيها بداية نشاطه كمبشر بالإنجيل في الجزائر غداة احتلالها. وهي تكشف لنا عن أساليب عمله المتوخاة هناك ثم في تونس وسوف نعود إلى هذه النقطة. وجاء إيفالد إلى بلاد المغرب مباشرة إثر تدشين عهد الاستعمار الفرنسي فيها بإيعاز من جمعية مسيحية تابعة للكنسية الانكليكانية تعنى بتنصير اليهود بالخصوص هي :

The London Society for the Promotion of Christianity among the Jews[5].

والجدير بالذكر أن إيفالد نفسه من أصل يهودي. ففي عدد ثان من نفس الصحيفة نقرأ تحت عنوان «مقتطفات من يوميات إيفالد المبشر بين اليهود» أنه «اسرائيلي» تنصر قبل أن ترسله جمعية لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود إلى «بلدان القرصنة بشمال إفريقيا لكي يدلي إلى اليهود بالشهادة على منقذ بني إسرائيل الصحيح»[6]. وقد تدعم لدينا هذا الخبر على لسان الأمير بوكلير الذي عرّف به بوصفه شابا كان في الأصل يهوديا اعتنق المذهب الكالفيني بمدينة بازل السويسرية ثم انضم الى الكنيسة الانكليكانية التي لا شك أنها لقيت فيه من المؤهلات والتحمس لخدمة العقيدة البديلة ما جعلها تنوط به مهمة التبشير باسمها على سواحل إفريقيا الشمالية إبان دخول الاستعمار الفرنسي اليها. فكانت الجزائر محطته الأولى ومنها انتقل الى تونس

حيث دشن فرع الجمعية المذكورة بحاضرة إيالة تونس وأشرف عليه إلى غاية 1840 أو 1841 وهو ما يؤكده لنا خلفه دافيس[7].

وقد مضى إيفالد طوال تلك الفترة ــ بقطع النظر عن الأشهر الخمس التي تطلبتها الرحلة ــ مثابرا في العاصمة تونس وفي كنف حماية قنصل أنكلترا العام، السير توماس ريد، على أداء مهامه التبشيرية بالنسبة إلى اليهود وحتى المسلمين كما أشرنا والطقوسية بالنسبة إلى الجالية البروتستنت المقيمة بالمكان آنذاك وعُددها لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين نسمة جلهم من القناصل وعائلاتهم[8] . ويمدنا الأمير بوكلير ببعض الارشادات عن نشاط ابن قومه هذا ويؤكد ببعض التهكم فشله الذريع في تنصير أي كان رغم الكميات الهائلة من الكتب «المقدسة» التي كان يجود بها. ويسوق بوكلير في هذا الصدد نادرة طريفة تعكس هذا، مفادها أن «الشاب الطيب القلب» كما يسميه تسرع في تأويل الإقبال الكبير على كتبه وأناجيله ولم يدرك حقيقة الأمر إلا عندما تجول في الأسواق فما راعه إلا وأصحاب المتاجر قد اتخذوا منها ورقا للف البضاعة[9].

وخلال هذه الفترة قرر إيفالد ــ أو لربما جاءه بالأحرى أمر في ذلك ــ بالتحول إلى مدينة طرابلس ليشملها زمنا بعنايته «الانقاذية». إذ أنها كانت رحلة تبشيرية صرفا غايتها الكرز بالإنجيل والدعوة إلى دين المسيح على طول الطريق الرابطة بين تونس وطرابلس والاجتهاد في كسب الأنصار من بين أهالي المدن الواقعة على هذه الطريق، اليهود منهم أولا ثم من وجد إلى إقناعه سبيلا من بين المسلمين أيضا. وتهيأ إيفالد لهذه الرحلة الجريئة حقا وتسلح ــ بغض النظر عن مسدسيه وإيمانه القوي أو تعصبه ــ بكميات هائلة من كتب الإنجيل وغيرها من كتب المسيحية بشتى الألسن ولا سيما العربي منها واكترى عربة وأجَّرَ خادما وتزود بخطابات التوصية ولبس الأبيض وانطلق على بركة ربه ومتوكلا أيضا على حماية قنصل أنكلترا ونوابه.

وفي الحادي عشر من شهر ماي 1835 بارح إيفالد حاضرة تونس صوب طرابلس التي وصلها في السابع عشر من شهر أوت اثر رحلة برية بحرية

توقف خلالها بكل من سليمان ونابل والحمامات وهرقلة وسوسة والمنستير والمهدية والجم وصفاقس وقابس فجربة. وبعد أن قضى حوالي شهرين ونصفا بطرابلس قفل راجعا إلى تونس التي بلغها بعيد منتصف شهر أكتوبر من نفس السنة. وبالتالي يتمثل النص الذي بين أيدينا أولا وبالذات في وصف طريف للرحلة المذكورة بما تخللها من وقائع وأحداث ومن كشف واطلاع ومن مواقف ومشاهد ومن يسر ومن عسر ولكن أيضا ــ بحكم كلف مؤلفها المميز ــ ما اكتنفه من نشاط تبشيري جعل صاحبه لا يقتصر كسائر السواح الأوروبيين عامة على عبور الأماكن المغربيه عبور الكرام متحاشيا الاحتكاك بالأهالي بل نجده حريصا كل الحرص على الاتصال بالسكان، لا اليهود فحسب بل المسلمين أيضا، إما بانتهاز ما تهيأ من الصدف أو حسب خطط عملية مضبوطة. إذ نراه في إحدى المناسبات يصرح بأنه يتوخى ترصد المارة في الأنهج ويخاطب من لقيه بمفرده بسؤال ما ثم يدخله في حوار حول الدين وفضل المسيحية بطبيعة الحال. ونص الرحلة ثري بنماذج طريفة مما كان يدور من نقاش بين هذا المبشر وأسلافنا وهو ما يضفي على النص هذا حيوية قلما نجدها في غيره من كتب الرحلات الأوروبية إلى أقطارنا.

وقد أعانته على ذلك بلا ريب معرفته للعربية. ولئن نره يدعي ويعيد إلماما جيدا بلغة الضاد فإنه يبين من خلال ما يعترضنا هنا وهناك من ألفاظ عربية بالأحرف اللاتينية أن معرفته بها في الواقع محدودة. لكنها كانت على ما يبدو كافية لربط الحديث مع من لم يمانع من عامة الناس وللخوض في النقاش والجدال مع العديد من الأعيان وأهل العلم. وكان بحكم أصله اليهودي حسب قوله يحسن العبرية ويستعملها لمخاطبة جماعات اليهود وأفرادهم. هذا بصرف النظر عن حذقه الواضح أو المزعوم لشتى اللغات الأوروبية ونذكر منها عدا الألمانية واللاتينية، لغة الكنيسة، الانكليزية والفرنسية والايطالية.

ولكن سرد إيفالد لا ينتهي بعودته إلى مقره بتونس بل يتواصل على مدى الثلث الأخير من الكتاب ليغطي فترة إقامته بحاضرة تونس إلى غاية الثاني عشر من جانفي 1836 فيصف أحداثا كان لها شاهد عيان تكتسي اليوم

أهمية تاريخية، ويروي مواقف عاشها نراه من خلالها في نقاش مع بعض المسلمين حول مادته العزيزة المبجلة : الأديان وفضل ديانته على غيرها. وأهم هذه الأحداث ما له علاقة بباردو، مركز حكم الحسينيين آنذاك. فقد واكب إيفالد بعد رجوعه الاحتفال بعودة الوزير شاكير صاحب الطابع من اسطنبول والحفل الرسمي الذي تلا ذلك وسلم فيه مولاه الباي الجديد مصطفى فرمان المبايعة من لدن السلطان العثماني والقفطان... كما أنه واكب قبل هذا حفل زواج نفس الوزير.

وينتهي الكتاب بفصول تتناول التعريف بالقطر التونسي على الصعيد الاجتماعي والتاريخي والعقائدي بالخصوص. ولا نستغرب ما يطغى على الوصفين الاجتماعي والتاريخي من ضعف وسقم فمن أول وهلة يتضح لنا أن ثقافة صاحبنا رهينة إيمانه المفرط وأنه غير قادر على تقدير الأشياء وتقييمها بصفة مجردة أي بدون منظاره العقائدي والتبشيري. ولكن ما يثير انتباهنا بالخصوص تلك الأخطاء الفادحة الشائعة ضمن أخباره حول فرائض المسلمين وطقوسهم وشعائرهم. وبهذا الخلل يتجلى بوضوح قصور هذا المتحدي الذي يدعي ويتبجح طوال الرحلة بأنه يعرف جيد المعرفة كل ما يتعلق بديانة المسلمين فيحكم عليها بكونها على غير صواب.

وفي هذا الحكم مفتاح اصراره العنيد على تنصير المسلمين. ففي رأيه الراسخ والساذج على السواء ــ وهو رأي لا يختلف في الواقع عن موقف معاصريه من الأوروبيين عامة حيال أقطارنا المغربية أو «بلاد البربر» (Barbaresques/Barbaresken) كما أحبوا تسميتها ــ أن المسلمين متأخرون حضاريا وأنهم لفي وضع أقرب إلى الهمجية منه إلى «الحضارة» وأن علة ذلك تكمن أولا وبالذات في دينهم الاسلامي لا سيما وأن القطر ــ حسب نظرته التاريخية المنحازة ــ كان مزدهرا في عهده المسيحي فإن هم تركوا دينهم ودخلوا في دين المسيح كتب لهم الخلاص في الدنيا فضلا عن الآخرة. وكم كان يستغرب أن يزدري «المشفق عليهم» يد النجدة التي كان لا يكل من مدها إياهم ويسمى ذلك تعصبا. ولا غرو أن يعترضنا أحيانا ونحن نقرأ رحلته التى مضى عليها الآن قرن ونصف ما لا يستحسنه المسلم.

وفي هذا الصدد نود أن نعيد ما ورد في مقدمة ترجمة عربية حديثة لبعض كتب المستشرقين : «فلا يحزننك ما في الكتاب من موقف سلبي من الاسلام وما يتوزع على كلماته أو يختبىء وراءها من حقد دفين [أو صريح] والتواء فهم. ان ذلك من طبيعة الأشياء»(10).

لقد ظهرت هذه الرحلة في ألمانيا وصاحبها ما زال في تونس وتكفل بنشرها المدعو باولوس إيفالد والمعرف به ضمن صفحة العنوان بوصفه «قس ملكي ببلاش». ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص أب مبشرنا الروحي الذي أعاره لقبه المسيحي بعد أن تخلى عن هويته اليهودية. ومن نفس المكان — «بلاش» Plech لعله بلدة Ples الواقعة في مقاطعة «شلازيان» البروسية سابقا والبولونية راهنا — يمضي الناشر كلمة الافتتاح التي نستشف منها أنه تصرف في النص الأصلي بعض الشيء بأن حذف مثلا معظم التقارير المتعلقة بنشاط المؤلف التبشيري ولم يبق منها إلا القليل. ومن شأن هذه الكلمة أن ترشدنا إلى أهمية هذه الرحلة وما شملته من بقاع بالنسبة الى معاصريها. ولم يبالغ كاتبها حين أشار الى افتقار الألمان آنذاك إلى معلومات ضافية حول تونس والأقطار المجاورة وقد قوي الاهتمام بها منذ دخول الفرنسيين الى الجزائر. ولعل القراء المعاصرين الحريصين على المستوى الراقي وجودة الأسلوب لم يستحسنوا شيئا آخر من نص إيفالد سوى هذا الجانب الإخباري حول أماكن شعوبها ما زالت آنذاك بعيدة شيئا ما عن أفقهم المعرفي. فالنص لا يمتاز في الواقع بعمق أو بثاقب نظر على مستوى تحليل الآراء وتقديم المستوعب من عالم الرحلة الغريب ولا بجمال الأسلوب وقوة التعبير فهو على كل هذه المستويات لا يعدو أن يكون متوسط الحال لا يخلو في كثير من الأحيان من ضعف فادح مما استوجب أن نقرأ لذلك في ترجمتنا حسابا بقدر المستطاع.

والجدير بالاشارة أخيرا أنه كان لرحلة إيفالد صدى مزمن في أنكلترا أيضا إذ وجدنا منها فصولا مترجمة في أعداد مختلفة من صحيفة(11) The Penny Magazin. وباللسان الأنكليزي رأسا ظهر كتاب إيفالد الموالي عن عمله التبشيري في محطته التالية بعد تونس، ألا وهي القدس(12).

هوامش المقدمة :

(1) زار هذا النبيل المثقف إيالة تونس قادما إليها من القطر الجزائري المجاور سنة **1835** وبالتحديد فيما بين أفريل وبداية نوفمبر. انظر وصف هذه الرحلة في الأجزاء 3 — 4 — 5 من : Fürst Pücker - Muskau : Semilasso in Afrika... Stuttgart 1836. وقد قامت مؤسسة «بيت الحكمة» بإصدار ترجمة عربية لهذه الرحلة شاركنا في إنجازها.

(2) ندين بهذه المعلومة إلى السيد زهير الشلي انظر عمله : Z. Chelli : La Tunisie au rythme des estampes. Tunis 1987, p. 70

(3) الصحيفة المعنية هي : Barmer Missions - Blatt.

(4) انظر العدد الصادر بتاريخ 18 أوت **1834** من نفس الصحيفة.

(5) يعود تأسيس هذه الجمعية الى سنة **1809**. انظر :
Weltkirchen - Lexikon, Stuttgart 1960, Sp. 857.

(6) انظر الصحيفة المذكورة أعلاه في نشرتها بتاريخ 24 أوت **1835**.

(7) هو القس الانكلكاني والباحث في علم الآثار في نفس الوقت N. Davis. وقد اكتشف له الباحث التونسي بول صباغ كتيبا يتعلق بتونس صدر بالانكليزية في مالطا سنة **1841** يحتوي بعض المعلومات حول فرع جميعة لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود بتونس ويذكر إيفالد كونه كان على رأس هذا الفرع. انظر :
P. Sebag : Description de Tunis au XIXe siècle. In : Cahiers de Tunisie N° 21/22, 1958, pp. 161.

ومما يدل على بقاء إيفالد بتونس إلى غاية **1840** على الأقل مقال آخر لصحيفة Barmer Missions - Blatt بتاريخ 12 أوت **1841** يتحدث ضمنه المعني عن ألمان أسلموا والتحقوا بخدمة باي تونس اكتشفنا في شأن أحدهم أنه وصل تونس في السنة المذكورة.

(8) حسبما جاء في أخبار إيفالد. ويرد عن دافيس (المصدر السالف الذكر) أن الحضور عند إقامة القداس في فرع الجمعية لا يتعدى خمسة عشر نسمة على الإجمال.

(9) انظر Pückler - Muskau المصدر المذكور الطبعة الألمانية الأصلية، ج 3، ص 72.

(10) القول لـ د. شاكر مصطفى في مقدمته لترجمة «تراث الإسلام» لشاخت وبوزورث (سلسلة «عالم المعرفة» الكويت الطبعة الثانية، **1988**، ص 9).

(11) انظر مثلا من هذه الصحيفة الأعداد : 13 جانفي **1838** و31 أوت و29 أكتوبر **1839**.

(12) عنوان هذا الكتاب هو التالي :
Journal of missionary labours in the city of Jerusalem during the years 1842 - 3 - 4, by F.C. Ewald. London : Wertheim 1845.

مقدمة الناشر الألماني

ليس هناك في الحقيقة موجب إلى كلمة افتتاح مطولة عند نشر رحلة تأتي بأخبار مفيدة حول رقعة هامة من ساحل إفريقيا الشمالي وتسلط أضواء مرجوة للغاية على مناطق جغرافية ما زال الظلام يغمرها. وليس ما قيدته هذه الرحلة من آثار عتيقة أقل أهمية في نظر عالم الآثار ولا ما عقبها من بيان في التاريخ القديم بالنسبة إلى المؤرخ، في حين يفاجأ هواة علم البلدان والشعوب بما انطوت عليه من ملاحظات غزيرة تهم دين سكان هذه البلدان وعاداتهم وتقاليدهم وتتصل بدستور المدن التي شملتها الرحلة ونظامها وشرعها إلخ.. ولا بد أيضا أن كل قارىء فطن يستخلص بنفسه أنه لا يتوصل إلى استقاء أوثق المعلومات في «بلاد الهلال» إلا من تسنى له استيعاب لغة المسلم وعاداته على مستوى رفيع وتحدى الصعوبات والمشاق والأخطار لا هم له سوى تحقيق الهدف من مهمته. وكتب الرحلات من هذا القبيل نادرة الوجود وبالتالي تقابل في يومنا هذا بالترحاب وعظيم الاهتمام.

ويستخلص عالم اللاهوت المسيحي من فحوى هذا المؤلف حقائق عقائدية عجيبة حول الاسلام وخصوصا حول تعاليم طائفة «الوهبية» مما يمكنه من بلورة رأي صحيح في هذا الصدد.

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن نشاط الرحالة كمبشر لا يتناول بالذكر إلا بصفة اعتراضية أي في صورة ما بدا ادراجه ضروريا لفهم سياق الحديث.

ومن شأن الرسوم المرافقة للنص أن تزيد الرواية وضوحا وأن تخلف في الذهن صورة حية عن حياة مسلمي ساحل إفريقيا الشمالي وممارساتهم فكل الصور تقريبا رسمت على عين المكان وبالتالي فإنها تعكس الواقع بأمانة.

بلاش في جوان 1837

د. إيفالد

I

سليمان في 12 ماي 1835

كنت أنوي بدء رحلتي من تونس إلى طرابلس طوال ساحل البحر اثر عيد الفصح مباشرة. إلّا أن عراقيل مختلفة طرأت وحالت دون ذلك. منها أن خادمي، الذي كان مرضيّا بصورة إجمالية، كان يميل ميلا مفرطا الى الكذب فكان رغم انذاري وتحذيري لا ينفك يكذب عليّ الى أن اضطررت الى صرفه عني. وأشار عليّ مسلم أعرفه بخادم آخر فوافقت في الحين. وهو ينتمي الى قبيلة «الورڤلية» التي تقيم على بعد قرابة عشرين يوما سفرا من مدينة تونس وتتمتّع بالحرية والاستقلالية ولا تخضع إلّا لسلطة شيخها. وهم قوم يمتازون بالثقة والوفاء ويحظون في تونس بسمعة طيّبة للغاية. ومنهم ينتدب حرّاس الليل ولا يعهد الى غيرهم بحراسة القصر من الخارج فكلما احتاج أحدهم هنا إلى رجل أمين لخدمته بعث الى «الشاوش»، رئيس طائفتهم، الذي يكون ضامنا لكل فرد منهم، لكي يعيّن له رجلا من «الورڤلية».

لهذا سررت كثيرا بخادمي الجديد. لكن ما ان وقعت عيني عليه ورأيته عن كثب حتى اكتشفت أن النّكبة المصريّة الثالثة تغمره وتغشّيه[1]. وأشعرته بكل رفق بذلك وأوعزت إليه بشراء ثياب جديدة بدلا من التي كان يرتديها. فكان ردّه أنه يريد أولا استشارة «شاوشه» في الموضوع وقصده في الحين. وبعد هنيهة أتياني معا وقال لي الرئيس ان «الورڤلي» يصعب عليه مفارقة أصحابه القدامى الأوفياء من أجل مخدوم. وهكذا وجدت نفسي مرة أخرى بدون خادم. وعلى اثر هذا عرض عليّ رجل مالطي نفسه ولم أوافق إلّا على مضض لأن هؤلاء القوم على العموم سرّاق ماكرون ولكن الحاجة دفعتني

(1) المعنى من هذه الصورة المستوحاة من « العهد القديم » (سفر « خروج » الفصل الثامن ، اصحاح 16) هو أن الرجل في رأي ايفالد مغشى بالقّمل .

الى القبول. ثم ان المطر أخذ ينهمر، زد على ذلك أن صحة الباي تدهورت واشتد مرضه وصار موته منتظرا يوما بعد يوم. وكانت هناك بعض التخوّفات من أن يؤدي مماته الى اندلاع ثورة لأن البلاط منقسم الى شقّين قويين يقفان في عداء وجها لوجه. أما الشقّ الأول فهو يناصر شقيق الباي، سيدي مصطفى، في خلافة العرش، وأما الثاني فهو يفّضل ابن الباي. ويتزعّم هذا الشق الأخير «صاحب الطابع» الذي يتقلد حاليا مهام الوزير الأول والذي يمسك بزمام السلطة بلا منازع[2].

ويقف على رأس الشق الأول سيدي مصطفى نفسه الذي يحظى بمحبّة الناس عامّة. وفي صورة اندلاع ثورة في اثر وفاة الباي فان مسافرا وحيدا، ولا سيما مكرزا بالإنجيل مثلي، قد يجد نفسه في خطر جسيم. ثم ان صديقا من حاشية الباي قد نبّهني إلى مثل هذا الاحتمال[3]. لكن بما أن مرض الباي طال أمده وتمادت الأنباء عن صحته متراوحة بين كونها حسنة اليوم وكونها سيئة في الغد، ولمّا كان الجوّ قد تحسّن في الأثناء، فاني أقررت العزم على شدّ رحالي ومباشرة الرحيل على بركة الله. وبادرت قبل ذلك بارسال كتب الانجيل الى سوسة حيث أنوي تمديد الاقامة. وبعد أن أتممت كامل تحضيراتي لهذه الرحلة ركبت أنا و«كرمالي» ــ هكذا يدعى خادمي ــ متن عربة ذات عجلتين كنت اكتريتها وحمّلتها كافة لوازم سفري وانطلقنا في السادسة من صباح أمس عبر «باب الجزيرة». ولما كانت الفنادق لا توفّر

(2) أي شاكير صاحب الطابع ، وزير حسين باي القوي الذي ضعف شأنه بموت هذا العاهل إلى أن قتل على يدي مصطفى باي وابنه أحمد في أواخر 1837. انظر تفاصيل الأحداث التي يلمح إليها ايفالد كما رواها معاصره الرحالة الأمير بوكلير موسكاو في رحلته « سميلاسو في افريقيا » التي نشرتها مؤسسة « بيت الحكمة » معربة ، قرطاج 1989 (ص 152 وما تلاها) .

(3) قد يكون المعنّي جوزابي رافو ، الايطالي الأصل الذي ارتقى خططا عالية في البلاط الحسيني في عهد حسين باي وخلفه مصطفى وابن هذا أحمد باي بالخصوص.

للمسافر شيئا ما عدا الجدران الأربعة فانه يتحتّم التزوّد بكل لوازم التغذية وغير ذلك من الضروريات.

وما ان تركنا منازل الأحياء خلفنا حتى وصلنا قبور الأموات التي تترامى أطرافها حتى باب المدينة. وسرنا بالطريق ربع ساعة على طول المقبرة حيث الأضرحة التي يتجدّد دوما طليها والتي تغطي الهضاب القريبة وتلمع في أشعة شمس الصباح. وفي هذا المكان وعلى رؤية هذه الهضاب اتّضح لي على أحسن وجه قول الرّب كما ورد في انجيل متّى، الاصحاح 23 : 27 — 29. إذ ما زالت قبور اليهود والمسلمين إلى حدّ الساعة تطلى من حين لآخر بالجير فتشكل، لا سيما عن بعد، منظرا جميلا.

كان الصباح جميلا والمنطقة المحيطة أجمل، ورغم أن نسبة الزراعة فيها لا تكاد تغطي نصف المساحة فإن الاخضرار والخصوبة يغمران المكان كلّه. كانت على يميني مروج لطيفة تخالها أكاليل الزهر تتناوب مع حقول الزرع، في حين لاحت للناظر يسارا في اتجاه بحيرة تونس تلال بسيطة الارتفاع تكسوها أشجار الزيتون. يا له من قطر بهيج! [...].

كانت أول قرية اعترضتنا قرية «سيدي فتح الله» الصغيرة، التي تبعد عن تونس مسافة ميل أنكليزي وتسمى هكذا نسبة إلى «درويش» [كذا] يدعى «فتح الله»، مدفون بهذا المكان. وتفد النساء بكثرة لاستجداء بركة هذا الولي بغية انجاب الأطفال. ويشاع أن يوم الجمعة هو أفضل الأيام لهذا الغرض. وحتى يتحقق الدعاء يتعين على الزائرة أن تتسلّق صخرة مجاورة لمقام هذا الولي ثم تنحدر انزلاقا على ظهرها(*).

(*) هذا ما رواه لي بعضهم. غير أني لقيت في هذا الخبر من قلة الذوق وعدم الحياء ما جعلني لا أصدقه. لكنني مررت يوما بالمكان صحبة القنصل السويدي وغيره من السادة فشاهدت جمعا من النساء بصدد ممارسة هذا الصنيع كما هو مذكور أعلاه.

وسرنا ميلا أنكليزيا آخر فاذا ببلدة «رادس» على يميني تتبوأ ربوة بين بحيرة تونس والبحر. وهو المكان الذي كان يعرف في القدم بـ «أداس» (Ades) والذي انتصر فيه «ريغولوس» على القرطاجّيين. وتلوح على مقربة منه الهضاب التي حشد عليها «حمون» (Hamon) فيلته عن غير حكمة ممّا أدى إلى هزيمة جيشه، وتغمرها اليوم أجمل أشجار الزيتون. وفي موقع غير بعيد من «رادس» عبرت جسرا يجري من تحته وادي «مليان» أو «كاتيدا» (Cateda) كما سمّاه القدامى. وفي الساعة التاسعة بلغنا حمامات «حمام الأنف» السخنة والشهيرة في عهد الرومان وفي يومنا هذا كذلك. وهنا يملك باي تونس قصرا شتويّا من عادة صاحبه أن يرتاده في هذا الفصل بمعية كافة أفراد البلاط. ويبدو هذا البناء للناظر من الخارج كأنه دير راهبات، علما بأن كافة نوافذه شدّت عليها الشبابيك بسبب النساء. أما داخله فهو مزدان بزينة شرقية فاخرة.

وكان معي رجل روسيّ، هو السيد «ك...»، رغب في قطع بعض المسافة صحبتي، كان يحمل رسالة من «صاحب الطابع» الى «الوكيل» ناظر القصر، ممّا أتاح لنا زيارة القصر من الداخل. وطاف بنا «الوكيل»، وهو زنجي من عبيد الوزير الأول، عبر كافة الغرف. ولما كان السيد «ك...» يجهل العربية فقد قمت بدور المترجم فحسبني «الوكيل» خادما له وقال لي على عادة المسلمين كثيرا من الكلام الحسن لأنقله الى السيد «ك...». وبعد أن انتهينا من زيارة كافة أرجاء القصر رأينا أن لا بأس في أن نقدّم إلى الناظر مكافأة جزاء تعبه. وهمّ السيد «ك...» بتنفيذ ذلك على أليق وجه، ناهيك أن أحدا ممّن كان حولنا لم يتفطن إلى صنيعه. ولكن يا لذهولنا ويا لخجلنا لما امتنع «الوكيل» عن أخذ النقود وكأنه يدفع عن نفسه إهانة وهو يقول : «كلاّ يا سيدي، اني لا أقبل مالا، انكم أتيتموني برسالة من صاحب السعادة لذلك فنحن أصدقاء وكل ما في حوزتي تحت تصرفكم فإن أردتم عينيّ استأصلتهما ومنحتكم إياهما». وعلى اثر هذا دعا إليه عبده وهو زنجي تحت إمرته كان صاحبنا في طوافنا، وناوله النقود. وفي هذه اللحظة شعرت حقا بالخزي يتملّكني. ولكنني لم أتمالك من الضحك عاليا لما خلا «الوكيل»

الهمام إلينا فالتفت إليّ قائلا : «قل بالله عليك لهذا السيد اننا صرنا الآن أصدقاء وأن كل ما أملكه رهن تصرفه. أنا لا آخذ على عنائي نقودا رغم أنّ صعود المدارج وهبوطها أتعبني شديد التعب وها هو العرق كما ترى ما زال يتصبّب من جبيني، ولكن لا بأس أن يشتري لي زوجا من المسدّسات الجميلة أحملها في نطاقي كلّما لاقيت الباي صاحب السمّو في البلاط».

إن القصر مدعوم بما يشابه الحصن، وقد انتصبت أعلاه ثمانية مدافع. وغالب الحمامات السخنة تظل على ذمة الباي، غير أن بعضها الآخر في متناول عامّة الناس، لذلك يوجد بصفة مستمرة أناس يستحّمون فيها.

وبعد أن أخذت خيولنا نصيبها من العلف بارحنا المكان على بركة الرّبّ. كانت المنطقة المحيطة بـ «حمام الأنف» والمجاورة لها مقفرة عديمة الزراعة وكنا نسير وعلى يسارنا خليج البحر وعلى يميننا سلسلة جبال «حمام الأنف» الجرداء. وكثيرا ما كان هذا الفضاء المقفر يحيا بمرور القوافل العديدة الآتية من تونس أو المتوجهة إليها. وفي هذا المكان اعترض سبيلنا جمع من تجار العبيد المدجّجين بالسلاح يسوقون أمامهم حوالي مائة من الاماء. وكاد قلبي يتفّتت لفظاعة هذا المنظر التعس. مسكينة أنت أيتها المخلوقات، متى تدقّ ساعة خلاصكن! متى تصلكن بشرى المسيح ونداء نبيّنا الانساني : «معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعا أخوة!»(4) متى يكفّ الانسان عن معاملة الانسان ومعاملة اخوته وأخواته معاملة الحيوان الذي لا يعقل! لا يكون ذلك ولا شك إلاّ ريثما يعّم الأرض قاطبة الاعتراف بالله في يسوع المسيح.

كانت أولئك الشّقيّات قادمات من داخل البلاد، من وطنهن الذي انتزعتهنّ من كنفه قساوة وحشية. وكنّ لا يزلن يحملن لباسهن الأصيل ويتقلّدن أطواقا من الأحجار الزجاجية ولا يفهمن العربية. ولما تجرّأت على مخاطبة بعضهن ضحكن ضحكا همجيا وهرولن قدما، وبدا لي كأن كل واحدة منهن كانت تحمل معها شيئا ما من وطنها. فقد رأيت احداهن ترفع على رأسها ببّغاءين.

(4) ترجمنا هذه العبارة بالرجوع إلى « العهد الجديد » ، متى 23 : 8.

وكان الحداة من أصيلي «غدامس» وعلمت منهم أنهم على سفر من ستة أشهر خلت. وعن قريب سوف يزدان سوق العبيد بتونس بهؤلاء البائسات. ففي كل يوم ما عدا الجمعة يساق الى هذا السوق ابتداء من الساعة العاشرة صباحا الزنج المساكين ذكورا وإناثا، ويمسك النّخاس العبد أو الأمة من اليد ويطفق يجر بضاعته جيئة وذهابا مجاهرا بالثمن ومشيدا في الحين نفسه بخصالها وقدرتها على العمل. ويبادر الشاري بفحص رجلي العبد الأسود المسكين ثم يديه فلسانه وأسنانه، إلخ وثمّة بالقرب المشرفون على السوق ليقوموا بتسجيل الصفقة في دواوينهم فور إبرامها. ويتراوح ثمن الزنجية عادة بين ثلاثمائة وأربعمائة ريال، أي ما يوازي مائتي «غولدن»، في حين لا يفوت ثمن الزنجي غالبا نصف هذا المبلغ.

ليس في هذه المنطقة المقفرة الموحشة حقول مزروعة ولا كوخ يمّتع بصر المسافر، إلاّ أننا لاقينا بضعة آبار تحوي ماء زلالا منعشا. ولم تستعد الطبيعة في هذه الناحية جمالها إلاّ عندما لاحت بلدة «سليمان». عند ذلك ترامى أمامنا سهل رائع بديع يضمّ حقولا ومروجا وغابات زيتون صغيرة ويخترقه واد صاف يسقيه. وسلكنا هذا السهل حتى دخلنا البلدة المذكورة في الساعة الرابعة مساء، بعد أن طوينا مسافة أربعة وعشرين ميلا(*).

تقع «سليمان» على بعد حوالي ساعة فقط من البحر. وهي مدينة متناسقة البنيان لها شارع رئيسي عريض تقطعه عدة أنهج ثانوية، وساحة رحبية جميلة تقام فيها السوق، ومنازلها ذات طابق واحد، باستثناء بعضها. وفي طاقة هذه المدينة استيعاب سبعة أو ثمانية آلاف ساكن ولكن عدد سكانها الحالي لا يتجاوز السبعمائة. ونجد ثلثي المنازل في حالة خراب وقد مررنا بأحد أرباض المدينة يعد حوالي مائة منزل فكانت خربة على آخرها، تكاد تكون خالية من الأهالي. لقد قضى الطاعون الذي اجتاح المكان سنة 1816، وعاث فيه فسادا، على نصف السكان وملأ بهم المقابر، وهاجر الكثير ممن نجا الى قرى نائية ولم يعد ثانية. ومن أسباب تقلص عدد سكان هذه البلدة الجميلة أيضا أسلوب حكم الباي الأرعن المتجبّر. فحالما يعلم الباي أن أحد

(*) أعني دوما أميالا أنكليزية والخمسة منها تعادل ميلا ألمانيا.

أهالي «سليمان» يعيش في رخاء لا يهنأ له بال حتى يستحوذ على ماله ويضمّه الى خزينته ويصيّر صاحبه في عداد المتسوّلين. لذا فان كل من استطاع ذلك ينزح الى حاضرة تونس حيث يكون المرء في مأمن، شيئا ما، من مثل هذا الجور. ذلك أن مدينة تونس، بحكم وجودها مباشرة في كنف راية محمّد المقدسة، تعتبر مدينة حرّة، وهو ما يفسّر أيضا أن سكانها معفون من دفع الضرائب المباشرة.

ويقال ان مسلمي هذه البلدة قدموا من الأندلس وأن اللغة الاسبانية كانت حتى الى ما قبل مائة سنة متداولة هنا. أما اليوم فلم أجد أي أثر لهذا، وأقصى ما هنالك ما سمعته من أحد المسلمين من أن شيخا مات هنا قبل بضعة أشهر كان يتقن شيئا من هذه اللغة. ويملك قناصل حكومات فرنسا والدنمارك ونابولي في هذا المكان منزلا جماعيا خاصا بهم. ونظرا إلى ولوع هؤلاء السادة بالصيد فانهم عادة ما يأتون لممارسة هذه الهواية في الجهة. وبفضل مروءتهم تسنّى لي السكن في هذا البيت طيلة اقامتي بهذا المكان. وهو لعمري معروف لا يقدره حقّ التقدير إلّا من كانت له خبرة بهذا الاقليم الموحش. وما ان استرحت بعض الشيء حتى خرجت للاطلاع على البلدة. وبما أني أتيت برسالة موجهة الى رئيس طائفة يهود المكان فقد بادرت بزيارته. واعترض سبيلي يهودي في السوق فسألته أن يدلّني على الطريق. ولما خاطبته بالعبرية وسألته عن الحاخام الأكبر ظنّني يهوديا في طريق الحج إلى القدس وأنني جئت ألتمس اعانة من يهود المكان. وفي الحين قادني إلى بيت الحاخام فلم أجد سوى زوجته وثلّة من الأطفال. ورُحّب بي وأرسل حالا في طلب الحبر لقراءة الرسالة التي جئت بها. وقدم الرجل وأخبرني بأنه لا يوجد هنا أكثر من عشر أسر يهودية تعيش كلها في فقر مدقع ما عدا أسرة الحاخام الأكبر، وجميعها عرضة لكراهية المسلمين البالغة وظلمهم واضطهادهم. وتحاورت مع الحبر حول المسيح، وأثناء حديثنا تجمّع حولنا بقية بني اسرائيل بـ «سليمان» وأصغوا الينا بانتباه. وفي مجرى الحديث قال الحبر الذي كان يضع التلمود في أعلى مقام، ان هذا الكتاب هو أساس عقيدة

اليهود ومعرفتهم وان دراسته هي أرقى الفضائل وأحب شيء عند الله وأنه لو كان بمقدوره لفرض أن لا يقرأ الصبية في مدرسته شيئا غير التلمود. ولفت انتباهه الى أسفار الناموس والأنبياء وبرهنت له على أنه، طبقا لما ورد في الكتاب المقدّس، لا بدّ أن يكون المسيح المنتظر قد ظهر وهذا لا يمكن أن يكون سوى يسوع الناصري. وطال بنا المجلس وحان وقت الانصراف فافترقنا على أن نواصل حديثنا يوم غد. ولما عدت الى منزلي علمت أن «شيخ البلاد»، أي وليّ أمر البلدة، يروم مقابلتي، فتوجهت توّا إلى محلّه. ولما وصلته اقتدت الى أسطبل. وهنا جلس الشيخ في ركن وحوله أعيان المكان وعلى مقربة منهم وقفت بضع بقرات على المعلف. واستقبلت بأدب واحترام. وسئلنا أنا والسيد «ك...» الذي التحق بي في الأثناء عمّا إذا كنا في حاجة إلى أية مساعدة أو دعم واذا كان معنا ما يكفينا من المؤونة. فشكرنا السائل جزيل الشكر على هذه الالتفاتة وأكدنا له أن لدينا كل ما نحتاج. وبما أننا قدمنا من تونس فقد استفسرنا «الشيخ» بلهفة عن صحّة الباي وسألني إن كنت طبيبا. ولمّا نفيت ذلك أعرب عن شديد أسفه، لأنه يهوى الحديث في علم الأدوية، رغم كونه لا يكاد يفقه من هذا العلم شيئا. وسألته عن كل ما كان يهمني معرفته فأجابني بصدر رحب. وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث سمعت فجأة قرع طبول مزعجا وصياحا فظيعا. وسألت عمّا إذا كان عساكر الباي في الجوار، فكان الجواب : لا بل انّ في الدّار زنجية في أشدّ المرض وها هنّ بنات قومها في المدينة مجتمعات حولها ليطردن المرض على عادة أهل هذه الديار. ولم أقدر على اخفاء دهشتي حيال هذه الاعتقادات الشاذّة فكان جواب «الشيخ» أن هزّ كتفيه[...] ثم غادرنا «الشيخ» وديوانه، وقد وعدنا بأن يوافينا في الصباح الباكر بنصيب من اللبن لتناول القهوة[...].

في المساء حصلت لنا مفاجأة سارة للغاية : لقد وصل نائب القنصل الانكليزي من نابل وهو في طريقه إلى تونس. في هذا الصباح فارقني السيد «ك...» ليتابع رحلته إلى نابل. وما كنت أرغب في مغادرة المكان بهذه

السرعة فبقيت وحدي. وبعد حين أسرعت لمقابلة الحبر. وفي طريقي إليه اعترضني «الشيخ» فقال لي :

ــ إنك ستذهب الآن إلى نابل حيث يقيم القنصل الأمريكي الذي هو طبيب ماهر. قل له أن يبعث لي دواء.

ــ ولكنك لست بمريض، وإلاّ فقل لي ما بك حتى أعلم الحكيم.

ــ يكفي أن يوافيني بدواء ما، قل له، دواء ناجع. إني في الحقيقة بصحة وعافية لكنني أودّ دواء يصيّرني قويا على أحسن ما يرام. وبما أننا أصبحنا الآن أصدقاء، فقد وصلك اللبن هذا الصباح، أليس كذلك ؟

ــ أجل، هو كذلك.

ــ إذن أرسل لي الدواء من نابل بواسطة ساع.

وجدت الحبر جالسا على الأرض على عادة أهل البلاد في غرفة صغيرة تقوم في نفس الحين مقام بيعة، وقد تحلّق به عشرة من الصبية هم تلاميذه. واستأنفنا حديث الأمس وبينما كنّا نتحاور انضمت إلينا الأسرة المسيحية الوحيدة المقيمة في هذه البلدة. ولما بلغني أن الحبر يشكو فقرا شديدا فقد أهديته نسخة عبريّة من الانجيل وتفارقنا في سلام. وفي طريق العودة لاحظت تجمعا كبيرا من عامة الناس فتوجهت صوبه لاستجلاء الخبر وسألت عمّا يجري. فأجابني بعضهم أن الأهالي يقيمون منذ عشرة أيام مهرجانات قومية احتفاء بشفاء الباي. ــ لقد أصيب الباي فعلا قبل عدة أشهر بمرض عضال ثمّ استعاد قواه وظهر للعموم بمناسبة عيد الفطر الأخير، وما سقمه حاليّا إلاّ انتكاس ــ وقد حرص أعيان البلاط، لمّا بان الفرج، على مكافأة طبيب الباي الايطالي اعترافا له بالجميل لأنه تمكّن بفضل حكمته من اطالة عمر مولاهم. ونصب في سقيفة السراي طبق وعليه مملوك يهتف قائلا : «من كانت صحّة الباي عزيزة عليه فليكافىء من أعادها إليه، ألا وهو الطبيب الحاذق، الدكتور كذا...» ومن البديهي على هذا الأساس أن يحرص كل من كان في البلاط على الجهر بتعلّقه بسيّده علنا ويلقي في الوعاء مالا. وكلّما دفع مقدار نودي بصوت عال : «إن السيّد كذا... برهن على تعلقه الكبير بسيّدنا ومولانا

وتبرّع بمقدار كذا وكذا». وبهذه الصفة تجّمع للسيد الدكتور خمسون ألفا من الفرنكات.

والعادة هذه متداولة أيضا بمناسبة زواج أمير أو أميرة، إذ يضع كبار البلاد هداياهم في الأوعية المنصوبة لهذا الغرض، وبما أن هذا يحدث بحضور كافة أهل البلاط فإنه من الطبيعي أن يحرص كل فرد ألاّ تكون هديته أدنى الهدايا قيمة فتتوفر على هذا النحو للعروسين أموال طائلة وجواهر ثمينة.

وبينما كان أهالي سليمان يستعدون لمباشرة ألعابهم برز فجأة «درويش» المكان الذي من عادته ألاّ يخرج إلى الشارع إلاّ مرة كل شهر وأخذ يقلب الموائد رأسا على عقب ويطلق النار على الرايات المرفوعة ويأمر النّاس بأن يتفرّقوا. وكان يقول إنّ الله لا يريد أن تتواصل هذه الأفراح. ثمّ امتطى حصانا وجعل يكرّ على الناس ويقول : «انصرفوا إلى بيوتكم !» فقصد النّاس ديارهم وهم فزعون ممّا بدر وكلهم يعتقد أنّه نذير **شؤم**. ووددت رؤية هذا الرجل، صاحب الأعاجيب، عن كثب فلبثت في مكاني حتى اقترب مني فإذا به رويجل قصير القامة دميم الخلقة متوحش المظهر متّسخ الوجه واليدين، يرتدي أسمالا متغايرة الألوان، إلاّ أنه كان يتقلّد سيفا ويحمل في نطاقه مسدّسين وعلى كتفه بندقية. وخلال تطوافي بالبلدة أراني بعضهم جدارا عتيقا هو كل ما تبقى من العهد المسيحي القديم.

II

نابل في 14 ماي 1835

بارحت سليمان يوم أمس في السادسة صباحا. وقد هطل خلال الليل مطر غزير ففاض نهر كان من المزمع أن نمر عبره. وهكذا تعيّن علينا اتخاذ منعرج طويل للالتحاق ثانية بالطريق الرئيسية الرابطة بين تونس وسوسة. ومرّ بنا السبيل عبر سهل جميل لكنه هزيل الزراعة، يمتد من البحر إلى الجبال على امتداد ميلين أو ثلاثة. وانتشرت هنا وهناك غابات زيتون صغيرة وآثار عتيقة متعدّدة تعود إلى العهد المسيحي. وحوالي الساعة الحادية عشرة بلغنا «قرمبالية» وهي قرية صغيرة لا يقطنها غير المسلمين.

وكان السهل الذي اجتزناه تعمره في سالف العهد آلاف البشر أما اليوم فهو خال وفي منتهى القفر. وفي «قرمبالية» قدّم العلف إلى خيولنا وانتعشنا بدورنا بوجبة متواضعة. وسبق ونحن على بعد ساعة من هذا المكان، أن انضمّ إلينا ثمانية من البدو، سألوا الحوذي عن وجُهتنا وتأمّلوا العربة ولم ينفكوا يراقبوننا طوال السيّر. ولم ترق لي رفقة هؤلاء الرجال على الاطلاق، لا سيّما عندما سمعتهم يقولون فيما بينهم : «ليس في العربة سوى شخصين». لهذا هيّأت مسدّسي وسألتهم من أين أتوا وإلى أين هم ذاهبون، فكان جوابهم : «نحن رعاة صاحب الطابع، إننا ذاهبون لرعي خرفانه[5] في تلك الجبال وطريقنا هو نفس طريقك». فاطمأننت إذ لا داعي للخوف من رعاة صاحب الطابع. ولكن عندما بقوا في «قرمبالية» يترقبونني وأعربوا عن رغبتهم في مرافقتي، أشار إليّ شيخ تركي قائلا : «خذ حذرك من هؤلاء الكلاب، إنهم بدو من جهة طرابلس وهم أناس أشرار». والتفت إلى البدو قائلا : «امضوا في سبيلكم إن هذا الرجل ذاهب إلى نابل بينما وجهتكم تختلف تماما». وأوعز للحوذي بأن لا يتبع نفس الطريق التي يسلكها هؤلاء. ولكنّ

(5) نشير هنا إلى أن الأمير بوكلير موسكاو زار في نفس تلك الفترة إحدى منازل شاكير صاحب الطابع بضواحي تونس فوجد فيها خرفانا كثيرة (انظر : «سميلاسو في افريقيا»، المرجع المذكور، ص 165) .

الحوذي أعلمني أنّه لا يمكنه اتباع طريق آخر. حينئذ انتابني بعض القلق فطلبت برجل مسلّح ليواكبنا حتى «نابل» فكان لي ذلك وواصلنا السّير. وما أن قطعنا مسافة نصف ساعة تقريبا حتَّى اعترضنا البدو رابضين على قارعة الطريق. ولم يكونوا، حسبما تبيّنت، يحملون سلاحا، في حين كنا مسلحين، وتركونا نمرّ بسلام. وخاطبوا مرافقي بقولهم : «أترافق هذا النصراني ؟» فأجاب بنعم.

وبعد ميلين مررنا على قرية صغيرة تدعى «تركي» ولاحت لنا في البعد آثار عديدة. واستمرت المنطقة على نفس الوتيرة من الجمال والخصوبة إلى أن تركنا في الساعة الثانية الطريق الرئيسية وعرّجنا صوب البحر مخترقين المروج والحقول للالتحاق بدربنا الذي كان يمرّ عبر الجبال. وابتداء من هنا أضحى كل ما حولنا جدبا موحشا. واجتزنا طيلة ساعتين شِعابًا تنتهي إلى ساحة مستديرة تحيط بها الهضاب من جميع الجهات، يقال إنّها كانت سابقا مأوى لعصابة من اللصوص، وهنا أخذ الطريق في الاعتلاء حتى بلغنا ارتفاعا لا بأس به فأشرفنا على البحر وعلى ضفافه التي تكتسحها غابات الزيتون الكثيرة. ثمّ تواصل طريقنا عبر هذه الغابات. وفي الساعة السادسة مساء حللنا بنابل بعد أن قطعنا مسافة ستة وثلاثين ميلا، لم تعترضنا طوال الثلاثة والعشرين ميلا الأخيرة منها أدنى قرية أو منزل ولا حتّى خيمة. وكان القنصل الأمريكي يقيم هنا منذ بضعة أيام صحبة عائلته فتكرم عليّ بأن هيّأ لي مسبّقا مكانا للسكن لدى أسرة يهودية، والتحقت بهذا المسكن فور وصولي.

ونابل بلدة هامّة تقع على مقدار ربع ساعة من البحر وعلى بعد ساعة من موقع «نيابوليس» العتيقة. ويقدّر عدد سكانها بثمانية آلاف نسمة لكن يجوز، بالنظر إلى اتساعها، أن تتسع لضعف هذا العدد. إلّا أن آثار الخراب تعترضنا في كلّ خطوة وكثيرة هي الديار المنهارة. ويفسّر هذا الدّمار بأسباب متعددة منها ما يعزى إلى جور الحكومة ومنها ما يعود إلى العقائد الخرافية الباطلة، السائدة بين أفراد الشعب. فيكفي أن يصل إلى مسمع الباي أنّ أحد

مواطني نابل يكسب مالا حتّى يعمل على توريطه في قضية عدلية لسبب ما ولا شيء حينذاك ينقذ الرجل من الافلاس فيطرد من منزله ويبقى هذا خاليا حتّى تبليه صروف الدّهر ويصير خرابا. وليس من النادر أيضا أن يسري في اعتقاد أهل بيت ما أن الأرواح تسكنه. وفي هذه الحالة يترك البيت حالا فيضحي إلى أبد الدهر وكرا للأرواح الخفية. ويحتوي المكان على تسعة مساجد، ثمانية منها لمذهب «المالكية» والآخر لمذهب «الحنفية». ولم يعترضني في كامل بلاد البربر مسلمون ألطف من أهل نابل. ففي مدينة تونس، على سبيل المثال، يكاد يكون من ضروب المستحيل أن يسمح لغريب، ولا سيما مسيحي، بدخول منزل، أمّا هنا فكم مرّة استدعيت إلى البيوت ولم يتورّع أصحابها، بمن فيهم الرجال والنساء والأطفال، من الحديث إليّ، بل حصل أيضا أن أقدمت نساء على زيارتي في غرفتي ومعهن بعض من أقربائهن. ويرتزق أهل البلدة بالخصوص من محاصيل الحقول ومن الزيت، كما توجد بضعة مصانع نسيج وتحظى مصنوعات المكان الخزفية بالشهرة وتصدّر إلى الخارج. وتمتاز أحواز المدينة بجمالها فهناك تتداول المروج وحقول الزرع ورياض الورود وغابات الزيتون وأشجار التين بعضها مع بعض وتزين الطبيعة بحلّة قشيبة من أزهى الألوان وأفخرها، كما أن تربية الماشية هنا من الأهمية بمكان، لذلك يكثر اللبن والزبدة. ولا شيء ينقص سوى سكان مسيحيين واجتهاد ألماني لكي يعود القطر إلى الوضع الذي كان عليه فيما مضى، أي جنّة من جنّات الله. ويعدّ المناخ المحلي من أفضل المناخات وأرفقها بالصحة على كامل ساحل افريقيا الشمالي. لذلك نرى العديد من أهل تونس يفضّلون قضاء أشهر الصيف في نابل.

ومن الأمراض الشائعة بين السكان البرص وأمراض العيون. فقلّ أن ترى اثنين على عشرة من سكان نابل سليمي الأعين وأربعة معفين من داء اللاويين(6) ويوجد في نابل من اليهود زهاء المائة أسرة نزحت إلى المكان

(6) لا شك أن ايفالد يلمح إلى داء البرص الذي يطول الحديث عنه في سفر « اللاويين » من « العهد القديم » .

شيئا فشيئا. وهم ينقسمون من حيث المصدر إلى ثلاثة أصناف : تونسيين، أتوا قديما من مدينة تونس، وجرابة أتوا من جزيرة جربة، وأصيلي المكان. وليس من بينهم أثرياء سوى النزر القليل لكنهم قوم يمتازون بالبساطة والجدّ والقناعة ويعيشون في كنف الأمان مع المسلمين ويؤدون إلى الدولة جزية سنوية قدرها مائة ريال. ونظرا لرخص مواد المعيشة عامة فإنه بالامكان أن يعيشوا هنا في كنف الطمأنينة في انتظار ساعة خلاصهم، لولا أن جيش الباي الذي أعيد تنظيمه حديثا يبث الرعب والفزع بين اليهود في كامل الجهة. ويشكل هؤلاء العساكر المنتدبون عنوة من حثالة الشعب، ودون أن تضمن لهم الدولة لباسا يفي بالحاجة ولا أجرا كافيا، شرذمة غوغائية ترتكب كل منكر فهم ينهبون ويزهقون الأرواح دون ردع تقريبا. وقبل أسابيع تجمّع عدد كبير منهم في مدينة تونس فصار من الصعب أن يسير المرء في الشوارع في رابعة النهار دون أن يتعرض للسلب والنهب. إلّا أنّهم يتسلطون بالخصوص على اليهود. واضطر الباي بعد تدخل القناصل الأوروبيين إلى وضع حدّ لهذا العبث في الحاضرة أمّا في عرض البلاد فما انفكوا يعيثون فسادا ويفرضون على النّاس بطشهم. فقبل مضي عشرين يوما سطت عصابة من هذا الحشد المتهمّج على قافلة قادمة من سوسة. وكانت ضمنها عائلة مسيحية تعرضت لأشد التعنيف وأسوإ المعاملة. لذا نجد الآن أهل نابل في حالة قصوى من الفزع والهلع، خصوصا وإنّه قبل وصولي بليلة اقتحم ستة جنود دار يهودي وألقوا بالشيخ البالغ من العمر سبعين سنة على الأرض وهمّوا بقتله لولا أنّه فدى نفسه بألف ريال وهو حقّا مبلغ جدّ باهظ بالنسبة إلى الفقر السائد في هذه الديار.

نابل في 20 ماي 1835

خرجت صبيحة أمس راكبا لزيارة آثار مدينة «نيابوليس» العتيقة [التي أوحت لي بالعبارة اللاتينية القائلة :]

Sic transit gloria mundi ![7]

ولم يبق إلّا القليل مما كان في سالف العهد مستعمرة رومانية مزدهرة. وحيث كانت تتبوّأ الأبهة الدنيوية والعظمة أصبح المكان حقلا منبسطا تسير فيه سكة المحراث سيرها المتأني. ولقد وجد السيد الدكتور شاو من مائة سنة خلت آثارا متعددة وأحجارا تحمل كتابة وذكر أن المكان يقع على بعد ميل من البحر أمّا اليوم فإن البحر يصل حتّى أطلال الموقع القليلة المتبقية. وأطلعت في بعض المنازل المجاورة على أحجار عديدة انطوت على كتابة رومانية لكنّها مطموسة لحدّ أني عجزت عن نسخ أي شيء منها ما عدا حجارة واحدة تيسّر لي أن أنقل منها ما يلي :

COELIVSIAFII DI
......IAEVSEI
MCALIVSSVLLAEI
PACAIVSAED
SVPEROVANIIIAIEM
.. XMVLIISRHDA — CIMALE
RAMNIADESVOEROGAIA
PECVNIA POSVERVNI
L D D D

وإذا جاز تصديق زعم متساكني المكان فإنه لا يزال يوجد داخل البحر، على مسافة ميل من الضفة الحالية، باب من أبواب المدينة العتيقة مصفّح بالنّحاس.

سوف أغادر نابل غدا وقد احتلت في قلبي مكانا حقّا. ولن أنسى أبدا الحفاوة التي أحاطني بها جميع أهل هذه الديار ولا السذاجة الفطرية التي

(7) أي : هكذا يزول مجد الدنيا !

تميّز اسرائيليّ المكان والتي تذكر بسذاجة آباء العهد القديم، ولا الأنتباه الذي واظبوا عليه وأنا أقرأ عليهم بشارة الإنجيل.

III

الحمامات في 21 ماي 1835

لقد طرأ ما كان متوقعا منذ أمد طويل. ففي الساعة الثامنة من صبيحة هذا اليوم بلغ القنصل الأمريكي وهو في نابل نبأ وفاة باي تونس يوم 20 من الشهر الجاري وبيعة سيدي مصطفى شقيق العاهل الراحل. وعلى نقيض ما كان منتظرا، تمّ كلّ شيء في كامل الهدوء. ولئن صحّ أن صاحب الطابع السابق قد عمد إلى حشد قواه البالغ عددها 3.000 رجل بالقرب من قصر باردو فإنّه تلقّى قبل ممات الباي الأمر بصرف هذه القوات. وما ان راج في تونس نبأ النّعي حتّى أغلقت جميع الدكاكين أبوابها. إلّا أن سيدي مصطفى أرسل في الحين «حانبي» أي موظف شرطة، ليعلن بين النّاس أنّه لا داعي للخوف وإنّه على كلّ الدكاكين أن تفتح أبوابها وهو ما حصل.(8)

بارحت اليوم في الثانية بعد الزوال مدينة نابل. واتبعت طريقا محاذيا لساحل البحر، سار بي تارة عبر مساحات غير مزروعة وتارة عبر غابات الزيتون، إلى أن بلغت هذا المكان (الحمامات) على بعد تسعة أميال من نابل. وصلت في السادسة مساء ووضعت رحالي بالفندق. ولا يجد المسافر في هذه الفنادق شيئا سوى غرفة خاوية، ولكي لا يموت جوعا بأتم معنى الكلمة عليه أن يجلب معه كلّ ما يحتاج إليه من المؤونة ولا يبقى على المرء إلّا أن يقتني فحما ببضعة دراهم ويهيّيء فنجان قهوة ويفرش الحشيّة مباشرة على الأرض فيكون له بذلك المائدة والكراسي في آن واحد.

وفور وصولي زارني «خليفة» المكان وسألني إن كنت أرغب في الاطلاع على المدينة فرحبت بذلك طبعا بكل سرور.

الحمامات مدينة صغيرة حسنة البناء، تجمع حوالي ألف منزل ونحو ستة آلاف ساكن، كلّهم من المسلمين. وهي تقع مباشرة على ضفّة البحر الذي تلاطم أمواجه جدران القلعة الشامخة. وتعد الحامية المرابطة في هذا الحصن

(8) قارن بما جاء في رحلة بوكلير موسكا وحول وفاة حسين باي في 20 ماي 1835 (المرجع المذكور ، ص 156) .

خمسين رجلا من الأتراك. وبالرغم من أن الخمر محرمة على المسلمين فإنهم مولعون بشربها ولعا مفرطا. فقد جاءني صاحب الفندق إلى غرفتي فدعوته لشرب فنجان قهوة معي فقال : «ان كان معك خمر فأعطني قارورة» فأجبته بأني أجد في الماء قناعة. وأقبل عليّ كذلك الـ «بتشي باشا»، آمر الحامية، ودعاني لمصاحبته وشرب قارورة على صحة الباي الجديد فامتنعت بكامل الأدب وقد بدا عليه أنّه قد أفرغ أكثر من قارورة إذ كان يلاقي عناء في الوقوف على رجليه.

يبدو أن الهواء هنا أنقى وأسلم من هواء نابل ذلك أني لم أشاهد أي مصاب بالبرص أو بداء العيون. وتكثر هنا حقول الكرم وبساتين الزيتون وأشجار الليمون. بيد أن المنطقة تقلّ عن منطقة نابل جمالا وخصوبة. وقد عثر الدكتور شاو،(9) عندما حلّ بالمكان، على كتابتين حجريتين رومانيتين، أمّا اليوم فلا يوجد لهما أثر. وقد ذهب هذا الرحالة إلى القول ان اسم المدينة يرجع إلى كثرة الحمام البري الذي يعيش في الجبال المجاورة، فـ «حمام» هي الكلمة العربية التي تطلق على هذا الجنس من الطير.

(9) Dr. Shaw رحالة انكليزي زار تونس مرارا في حوالي 1730 ودوّن ملاحظاته وانطباعاته ضمن رحلة مشهورة ظلت حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر أهم مرجع بالنسبة إلى كل من زار تونس من السواح الأروبيين وعنوانها التالي (الطبعة الفرنسية) : Voyages de M. Shaw M. D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et au Levant : La Haye 1743.

IV

سوسة في 23 ماي 1835

إذا كان يكفي أن يفكر المرء إنّه يقف على حقل يكمن في باطنه رماد آلاف البشر وتتلاشى فيه عظام أبرز رجالات العصور الغابرة، حتّى يشعر برهبة عظيمة تمتلكه ويتذكر الموت وزوال الدنيا، فإن ما انتابني بالأمس من شعور وما خالجني من احساس كان أعظم، حين اعترضت سبيلي المواقع الأثرية القديمة الواحد تلو الآخر واستمرت تسترعي بصري دون انقطاع. في هذه البقاع عرف القرطاجيون والرومان والوندال والهنس والمسيحيون والمسلمون على التوالي النصر والهزيمة.

ها هنا، اذن، كانت تنتصب مدينة «كلوبيا» (Clupea) وكذلك «سيفتاس سجيتانا» (Civitas Siagitana) والمدن الكثيرة والحصون العديدة التي لاحت لقيصر وهو على سفينته في طريقه إلى «حضرموت» ! هذه هي الأرض التي كانت تقوم عليها «فراديس» (Faradeese) و«فنيريـا» (Veneria)، المدينتان الرومانيتان اللتان بلغتا في سالف الزمن أوج الازدهار ! هذا هو إذن أحد أجزاء إقليم «زوغتانا» الذي ازدهر قديما الازدهار كلّه ! إنّها التربة التي مدّ فيها إنجيل المسيح عروقا باكرة حيث كان يعيش أمجد آباء الكنيسة وحيث كانت الكنائس والأديرة، إلى غاية القرن السابع، تزين القطر وترسل نور الاعتراف بيسوع المسيح ربّا ! والآن — يكاد ينعدم أدنى أثر لكل هذا. ولا يسعني إلّا [أن أشاطر] الشاعر العربي قوله : «واعلم أن الدنيا دار فانية والآخرة هي دار الخلود». وهنا تصدع حقيقة الانجيل التي لا ريب فيها : تزول الدنيا بعظمتها لكن الذي يعمل بمشيئة الله يكون من الخالدين.

غادرت الحمامات في الخامسة صباحا. وما ان تركنا البلدة خلفنا حتّى برزت أمامنا آثار «فراديس» التي تبتدىء على ساحل البحر وتتوغل بعيدا داخل السهل. وبعد مسير ساعة بلغنا منهل «بير سالم». هنا يلتقي الرعاة لايراد قطعانهم وتناخ إبل القوافل لتجديد زادها من الماء وهنا يطفىء المسافر التّعب ظمأه. كم هي عظيمة تلك السذاجة التي يتّسم بها الكتاب المقدس عامة

وتلك الأمانة في وصف الأمور ! فعلى بئر ربض «أليعازر» غلام ابرهيم، بإبله، مترصدا النّساء والصبايا الوافدات من المدينة لجلب الماء، وعلى بئر التقى «يعقوب» «براحيل»، وعلى بئر أعان موسى، وهو هارب إلى أرض «مدين»، بنات «يثرون» على ملء الماء. وكان على حافة بئر أن خاطب الرّبّ السّامريّين. وما فتئت هذه العادة إلى يوم النّاس هذا مألوفة لدى العرب. ولفهم هذه الظاهره حق الفهم يجب أن نعلم أن ساحل شمال افريقيا تسكنه ثلاث فئات مختلفة من العرب. أمّا في المدن فإنه يقال لهم (Mauren)، ومن عادتهم حجب نسائهم وبناتهم ومنعهن من مغادرة البيت وان فعلن فعليّهن الالتحاف بصفة تجعل الناظر يخالهنّ كتلا حيّة تتنقّل. ويعيش الصنف الثاني منهم تارة في القرى وتارة تحت الخيام. وهم **الذين** ما زالوا يحافظون على العادات التي يصورها لنا الانجيل وهم الذين يسمّون عادة عرب. والبدو هم العرب الرّحّل الذي لا يستقرّون في مكان بل يتنقلون من موضع إلى آخر. ومن حين إلى حين تعترض المسافر بئر. وعند حلول المساء تخرج الصبايا والنساء من خيامهن أو منازلهن وعلى أكتافهن الجرار لجلب الماء. ولهذه الجرار شكل مرمدة ذات أذنين. وتقع الآبار دوما خارج القرية وعلى مسافة ذات بال من المنازل وذلك من أجل راحة الرّعاة. وبالقرب من «بير سالم» المذكورة تقع آثار مدينة «سياجتانا» (Civitas Siagitana) **القديمة** وقد اشتهرت في عهد «انطونينوس» (Antonin).

وابتداء من هنا وطئنا سهلا رحيبا لا تحصره العين يبلغ عرضه، انطلاقا من البحر حتى الجبال ما لا يقل عن ميلين، وطوله حتّى «هرقلة» أربعين ميلا. ويسود كامل هذه المنطقة اقفار تامّ، فلا شجرة تبين ولا منزل، ومن حين لآخر فقط يلوح بعض الجمّالين يسوقون القوافل أو بعض الرّعاة مع قطعانهم. وبان من سفح الجبل نصب جنائزي، يسطع من بعيد، يدعى «المنارة» وقد سبق أن وقف عليه السيد الدكتور شاو. ويبلغ قطره عشرين «روتا»[10] وقد

(10) مقياس ألماني قديم (Rute) يختلف طوله شيئا ما من مقاطعة إلى أخرى فيساوي مثلا في بافاريا 2،9 مترا .

شيّد في شكل اسطواني وله ثلاثة مذابح تكتنف الكتابة التّالية :

L. Aemelio Africano Avvunculo.

C. Suellio Pontiano Patrueli. Vitelio Quarto Patr....

ويبدو أن النصب برمته كان على ملك أسرة واحدة.

وقطعنا في تؤدة هذا السهل المديد حيث اعترضنا كوكبتين من البدو الرحل. ولسوف يضربون خيامهم اليوم في هذا الفضاء ويفرشون بسطهم المصنوعة من ضريع البحر على الأرض ويخيّمون حول قطعانهم وعندما يقلّ الكلأ أو عند حصول أي اشكال فانهم يقلعون أوتادهم ويطوون خيامهم ويحملون متاعهم القليل، بالاضافة الى الأطفال والكلاب والقطط، فوق ظهور الحمير والابل ويواصلون ترحالهم الى أن يعثروا من جديد على مكان ملائم.

ولم يؤثر الاسلام في هؤلاء البشر كثيرا أو انه لم يؤثر فيهم قطعا ولم يغير شيئا من عاداتهم الرّاسخة وفظاظتهم الفطرية وقساوتهم ولا انسانيتهم فقد ظلوا على حالهم كما كانوا قبل آلاف السنين وفي الحقيقة ليست لهم ديانة فكل معرفتهم على الصعيد الديني تنحصر في الشهادتين : « لا الاه الاّ الله، محمد رسول الله »، وهم يجدون في هذا كلّ القناعة. ونمط عيشهم بسيط، قوامه اللبن والزبدة ولباسهم كذلك بسيط ويقتصر على ضرب من الدّثار الصوفي يلف حول الجسد ويكون لهم في نفس الحين لباسا يوميا، صيفا وشتاء، وفراشا عند النوم.

وعند المساء بلغنا « هرقلة » بعد أن قطعنا مسافة اثنين وأربعين ميلا ومررنا بستة مواقع أثرية مختلفة. وما « هرقلة » إلاّ « حضر موت » الرومانية. ولئن صحّ أن آراء الجغرافيين تتباين في هذا الصدد تباينا كلّيا فإن كتب القدماء في التاريخ والجغرافيا لا تبقي مجالا للشك في خصوص هذا الموقع، وبعد المعاينة الدقيقة لا يسعني إلاّ أن أشاطر الدكتور شاو رأيه السائر في هذا الاتجاه دون أدنى تحفّظ. وكان يوجد في هذا المكان خلال العهد المسيحي السعيد دير شارك رهبانه سنة 426 في الجدال القائم آنذاك بين أوغسطينوس وبيلا جيوس. وقد استخلص هؤلاء الرهبان استنتاجات سلبية من تعاليم أوغسطينوس حول مسألة « النعمى الاختيارية » فأدّى ذلك الى أن وجه اليهم

أوغسطينوس كتابيه الموسومين بـ « De gratia et libero arbitrio ».(حول النعمى وحرية الاختيار) و« De corruptione et gratia » (حول الفساد والنعمى). ولم اكتشف في هذا المكان أية كتابة حجرية وكل ما تبقى من العصور القديمة ينحصر في بضعة أعمدة مرمرية متكسرة وأحجار مربعة كبيرة، وقد اتخذ بعض البدو لهم من هذه الآثار مقرّا.

وكان فندق المكان في حالة رديئة جعلتني أفضّل المبيت في العربة. وبينما عكف خادمي على اضرام النار لطهي القهوة قصدت القرية الصغيرة لاقتناء نصيب من اللبن. وكانت تلك هي فترة جلب الماء من المورد فالتقيت بنساء وصبايا تحلّين بأقراط كبيرة وخلاخيل وأساور صنعت من أصداف البحر الصغيرة، وقد حملن على أكتافهن القلل. ولكم وددت معاينة هذه النفائس عن كثب، الاّ أنهن جرين هاربات لما أردت الاقتراب منهن. وسعدت كثيرا لما حصلت على نصيب من اللبن وعدت بحصيلتي الى الفندق وكأنني عائد بنصر مبين. وفي الأثناء أقبلت عدة قوافل أصحابها شتات من العرب. وطفق هؤلاء البشر يحدّقون فيّ بكل فضول ويدقّقون النظر في كل ما عليّ. وحضرت القهوة فشربناها في الحال. ولارواء ما بقي لي من عطش هيأت لنفسي وعاء معدنيا ملؤه ماء سكّري أضيفت اليه قطرات من ماء الزهر وتجرّعت جرعة وما ان رأى العرب هذا حتّى ظنوا أني أحضرت دواء فأحاطوا بي جميعا والتمسوا شيئا من رحيق الحياة هذا. وتركت الوعاء يدور عليهم الى أن عاد لي فارغا على آخر قطرة. واثر هذا قرأت عليهم شيئا بالعربية فأنصتوا بكل شوق وانتباه. وحل الليل وكنت متعبا فنمت في العربة بينما اضطجع خادمي تحتها.

وفي الساعة الثالثة صباحا بارحنا « هرقلة » وبلغنا سوسة على الساعة التاسعة. واستقبلني نائب القنصل الأنكليزي الذي كنت أحمل اليه معي خطابات توصية ورحب بقدومي وخصّني بغرفة قصدتها في الحين.

V

سوسة في 6 جوان 1835

تقع سوسة على البحر ويحيط بها سور عال جميل يمنعها على أحسن وجه. وتعتبر هذه المدينة، بفضل تجارتها وموقعها، ثاني مدن المملكة. ويقال — وعلم اليقين في هذا الصدد صعب المنال — انها تشتمل على 1100 منزل تؤوي 8000 نسمة، بالاضافة الى حامية تعدّ 2500 رجل. وتتميّز أنهجها نسبيا بالاتساع والنّظافة. وتتألف منازلها على العموم من طابق واحد. وأما البناءات التي تمتاز على غيرها فهي « القصبة » و «القلعة» (الرباط) وبقايا ثكنة اسبانية قديمة صارت مسجدا من مساجد « المالكية ». ولئن لم ينمّ السوق عن ثراء فهو نظيف. وباعتبار أن المدينة عاصمة لولاية من ولايات البلاد وتتبعها أربع وعشرون قرية فإنه من المفروض أن يكون لها وال يقيم فيها بصفة قارّة. غير أن واليها يفضّل الاقامة بتونس تاركا بالنيابة عنه «خليفة» ينظر في كافّة النزاعات المدنية. أمّا القضايا ذات الصبغة الدينية فهي من مشمولات « القاضي » أي كبير رجال الدين [كذا]. وحسبما أفادني به أحد المسلمين المثقفين ممن تعرفت عليهم فان سوسة قد أسست في القرن السابع على مقربة من آثار المدينة العتيقة. وتوجد في البحر حذو المرفإ بضع بقايا أثرية تعبث بها الأمواج. وما زال بإمكان الزائر أن يطّلع أيضا على ضريح مؤسس المدينة القديمة، وعليه شاهد انطمست كتابته، يقال انه كتب بالخط الكوفي.

ولا نجد لأهل المكان مورد رزق غير غراسة الزيتون فلا غرو أن نرى كامل المنطقة المحيطة بالمدينة تعج بما لا يحصى ولا يعد من غابات الزيتون. وليس هناك اعتناء بزراعة الحبوب ولا وجود لزراعة الأشجار المثمرة. وعندما تكون صابة الزيتون حسنة فإنه يصدّر من مواقع الخزن

الرئيسية الثلاثة، وهي سوسة والمهدية وصفاقس، مليون « مطر »[11] من الزيت في السنة. ويعادل « المطر » خمس عشرة من وحدات كيل مقاطعة « بافاريا » ويباع بما يتراوح بين ثمانية واثني عشر ريالا، في حين نراه يرتفع هذه السنة الى عشرين ريالا. وبمقدور أهل سوسة أن يكونوا من أكبر الأثرياء لو عرفوا كيف ينتفعون. لكن الاسلام يحرّم على المؤمنين اقتراض المال مقابل فائض لذلك لا نجد من بينهم أصحاب رؤوس أموال. فإذا توفّر لديهم مال فإنهم يشترون القلائد الذهبية والجواهر واللآلىء لزينة نسائهم أو هم يكنزونه في الأرض أو يبذرونه تبذيرا وهو ما يحصل في أغلب الأحيان. وهذا ما يفسّر ان مسلمي هذه المدينة يكادون أن يكونوا دوما مفتقرين الى النقود. واذا طالت فترة من فترات القحط فإنّهم يلجؤون الى الدّين فيرهنون نفائسهم ويدفعون الى اليهود والنصارى فائضا بأربعة وعشرين على المائة وهو المقدار المعمول به والمشروع أيضا. وبعد فترة قصيرة فقط أصبح المسيحيون الذين استقروا بالمكان — وهم يشكلون أربع أو خمس عائلات — من كبار الأغنياء ومن الدارج أيضا أن يبيع المسلم ما يحصل عليه من زيت قبل موسم الجني بسنة. فلنفترض مثلا أن أحد المسلمين يملك بستانا يوفر محصوله أربعمائة « مطر » من الزيت فإنه يبيع هذا المحصول مسبقا لنصارى أوروبيين أو ليهود بنصف سعره فقط. ولقد وقع اشتراء « المطر » في السنة الماضية مسبّقا بسبعة ريالات ثم بيع بعشرين ريالا.

تعيش في سوسة حوالي مائة أسرة يهودية قد يبلغ مجموعها نحو ألف نسمة. وهم يرتزقون من الصناعات الحرفية فنجد من بينهم صاغة الذهب والخياطين والأساكفة والنّساجين إلخ، وكذلك التّجار. ولهؤلاء سوق خاصة بهم لا يحتل فيها دكانا غير اليهود. ويضاف الى هذه المجموعة ثلّة من اليهود الأوروبيين يقيمون هنا لأسباب تجارية فقط، اذ هم يتولّون تصدير الزيت

(11) كان « المطر » يساوي في تونس العاصمة 20،2 لترا وفي سوسة 25،55 لترا وفي صفاقس 29،81 لترا إلخ ... انظر : M. Legendre ,Survivance des mesures traditionnelles en Tunisie. Paris 1958, p. 57.

والصوف والشمع. كما أنه يعيش هنا، فضلا عن ذلك، نحو أربعمائة مالطي، يتعاطون كذلك الصناعات الحرفية.

ومنذ حلولي بالمكان واظبت على الكرز بالانجيل المنقذ على مسمع نصارى ويهود ومسلمين. وقد ابتهج النصارى المنتمون الى الكنيسة الكاثوليكية، والمحرومون من كنيسة وقساوسة، كثير الابتهاج لتمكنهم من الانصات الى كلمة الرّب. وبالرغم من أن مسلمي المكان يتصفون بسوء الظن وبالتعصب الديني فقد وفّقت حتّى الآن في توزيع صندوقين من الكتب المقدسة. وقد اعترضني أخيرا في الشارع مسلم خاطبني قائلا :

— أنت هو اذن الـ« بباص » — يعني القسيس — الذي يقرأ العربية ؟

— أجل، أعرف شيئا من ذلك.

— قل لي اذن بصراحة أي الديانات هي الأفضل، الاسلام ؟ أم المسيحية ؟ أم اليهودية، ما دمت على دراية بها جميعا ؟

— الديانة المسيحية هي الفضلى والوحيدة التي هي على حقّ.

— ماذا تقول ؟ كيف ؟ هذا غير معقول !

— تعال معي الى غرفتي وسنواصل الحديث هناك.

وتبعني ومعه شرذمة من اليهود. ولما وصلنا قلت له : « برهن لي على أن القرآن صادر عن الله وأن محمّدا كان نبيا. »

واستشهد بشتّى المواطن من القرآن للاستدلال على ذلك. فلمّحت له بأني لا أستطيع أن أقبل هذه الحجج طالما لم يأتني بالدليل على أن القرآن كلام الله. فردّ عليّ قائلا : « ليس لي من العلم ما يؤهلني للتدليل على ذلك، ولكن تعال معي ان شئت الى أحد علمائنا وسوف يجيبك على اسئلتك بما فيه الكفاية. » فوافقت على ذلك.

ورغم أن الليل قد انسدل فقد اقتفى أثرنا جمع لا بأس به من اليهود والمسلمين الى منزل الشيخ. وأطلعه صاحبنا المسلم على سبب مجيئنا وبعد تبادل المجاملات قال الشيخ : «يرد ذكر محمد في الانجيل وفيه كتب أنه سوف يظهر. » فأجبته : « لقد قرأت الانجيل على آخره ولم أجد فيه موطنا يذكر فيه محمد. لكن اذا كان لديك كتاب انجيل يتضمّن هذا الذكر فأرجو

من فضلك أن تريني ايّاه». «فنهض وأتى بكتاب وقرأ منه عدة فقرات من العهد القديم والعهد الجديد، منها مثلا الاصحاح 18 : 18 من سفر موسى الخامس وكامل المزمور الثاني والسبعين والاصحاح 15 : 26 من انجيل يوحنا، وهنا أشار إلى أن « المعزّي » (12) لا يمكن أن يكون سوى محمد. وبيّنت له أنه ليست هناك صلة بين هذه الفقرات وبين محمد. عندئذ استشهد بالآية المعروفة من سورة الصفّ :

﴿واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل انّي رسول اللّه اليكم مصدّقا لما بين يديّ من التوراة ومبشّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

فأجبت : «صحيح ان هذه الآية واردة في القرآن ولكنها غير واردة في الانجيل قطعا. » فقال الشيخ : « انما القرآن كلام اللّه واللّه لا يكذب. » ووافقته فيما يتعلق بالجزء الأخير من قوله وطالبت بالحجّة فيما يتعلق بالجزء الأول منه. وفي الأثناء تقدم بنا الليل شوطا وضاق الوقت لمواصلة الحوار.

واعتقاد مسلمي المكان في الخرافات الباطلة والخوارق يتحدّى كل التصورات ولا يعرف تعصبهم الديني حدودا. فلقد تعرفت قبل أيام في السوق على تاجر صابون يحذق شيئا من الايطالية وترجاني أن أرسم له الأبجدية الايطالية قبالة الأحرف العربية التي كتبها بنفسه. ولما هممت بتلبية طلبه هرع نحونا عدد من المسلمين وقالوا في صياح : « كيف تضع كلام الله في يد هذا الكافر ! أتريد أن يلقى بك في الجحيم ؟ »

وحاول تاجر الصابون عبثا أن يشرح للجمع الصاخب أن الأمر لا يعدو أن يكون متعلقا بالأبجدية واني ما التمست منه شيئا بل هو الذي ابتغى أن يتعلم مني شيئا ولكنهم ادّعوا أن جميع الكلمات الواردة في القرآن من وحي الله وان الكلمات تتركب من أحرف وأن الأحرف تشكل الأبجدية ولهذا يجب تكريم الأبجدية مثلما يكرم القرآن نفسه. وانصرفت قائلا اني لا أحب حمل أحد على ارتكاب خطيئة.

(12) يرد في الاصحاح المشار إليه (يوحنا 15 : 26) ما يلي : « ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من عند الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق فهو يشهد لي » .

وكره النصارى في هذه الديار مما يرضع مع حليب الأم ويظل كامنا في القلوب لا يزول. صحيح انهم صاروا منذ سقوط الجزائر يجتنبون الافصاح به جهرا ولكن الويل للمسيحي المسكين الذي لا يأخذ حذره كما ينبغي ويطمئن اليهم دون تحفظ ودون سلاح. وقد جدّ خلال اقامتي بالمكان حادث فظيع فيه عبرة ودليل على هذا. ومفاده ان مالطيا يتعاطى تجارة التهريب عقد صلة ببعض تجار المكان وأعطاهم مسبّقا مالا مقابل بضاعة لم يتسلمها بعد. وها هو الآن مفقود منذ سبعة أيام. وقد نزل بفندق فقام الوكيل الأنكليزي بتفتيش غرفته وفحص سجلاّته ولكن لم يجد كل ذلك نفعا لأن تخوفه من أن يفتضح أمره جعله يعمد الى تسجيل أسماء مزيفة. ولكن الشيء المتأكد منه هو أنه دفع قبل بضعة أيام الى أحد المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ريال تسبقة على خمسة وعشرين قنطارا من الشمع تم الاتفاق على أن يتسلمها منه، مع الملاحظ أن الشمع من البضائع التي يقع تهريبها والاّ فمن المفروض أن لا يباع الاّ لمصرف يتمتع دون غيره بحق ابتياعه. وبناء على كل هذه القرائن يصح الاعتقاد أن هذا الشقي وقع في فخ المسلم الذي جلبه الى بيته حيث قتله وقبره. ومن دلائل تعصبهم أيضا أن أصغر الصبية يصيح، اذا وقع نظره على بعض النصارى، بقوله : « رومي بن كلب » [كذا] أي « مسيحي ابن كلب ». وقد أكرمني بهذا اللقب الشرفي طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره، حين أبصرني وهو يسير في الشارع صحبة أمه. وصحيح أن تطاولهم هذا يعرضهم للعقاب اذا رفعت ضدهم الشكوى ولكن من يتجرّأ على التشكي ؟

Hic diximus, non eadem omnibus esse honesta
atque turpia, sed omnia maiorum moris iudicari[13].

انها حقيقة راسخة ومعروفة. لكن لم يحصل أبدا أن بانت لي جليّا ولمستها كما حصل لي في هذا المكان. أن يرفع أحدهم العمامة ليتفقّد هل

(13) أي : كما قلنا ، بعضهم يعتبره غير مستقيم وبعضهم غير قبيح . لكن كل شيء يشكر أو يذم حسب الأخلاق السائدة .

من نزلاء حطوا الرحال، أو أن ينزع الجوارب القصيرة ويخلصها من سكانها ويعمد دون أدنى حرج الى قتل السجناء، أو أن يبصق في الغرفة محدثا صوتا عاليا، كلها تصرفات تؤدى على مرأى ومسمع من الغير ولا يستأثر بها عامة الناس فحسب بل تشمل حتى أعيان القوم، دون أن يرى في ذلك عيب أو إخلال بالآداب.

فبينما كنت ذات مرة أتناول الطعام رفقة مضيّفي وعائلته إذ دخل علينا أحد المسلمين وجلس على كرسي جانبنا وفتح « قفطانه » وأخذ يفحص سرواله فلم أقدر على مواصلة الأكل. الاّ أن النّصارى المستقرين هنا تعوّدوا على مثل هذه الممارسات وصاروا لا يعونها. وقلت [لمضيّفي] : « انه حقا يتصرف وكأنه في بيته! » فكان الجواب : « انه وسيطي ».

ويقول المسيحيون مواليد هذه البقاع : « ان مسلمي سوسة ينعدم لديهم كل شعور بالنخوة وكل اعتراف بالجميل وسيّان ان عاملتهم بلياقة أو بخشونة. ومن السهل اليوم ادخالهم السجن من أجل دين عليهم وحجز كل ما يملكون لكن حالما ينهون مدة العقاب يعيدون الكرة وكأن شيئا لم يكن. ولقد حدثني إيطالي ممن يقيم هنا انه تكفّل بتربية صبيّ من الأهالي المسلمين على غاية من الفقر وجعله خادما في بيته وعاملته كافة الأسرة معاملة الأبناء ولم يعد يشك أحد في ولائه للبيت وأهله. لكن لما أعلنت الحرب بين باي تونس وملك سردينيا قبل ثلاثه أعوام وظهر أسطول هذا الملك عرض «حلق الوادي »، ما راع أهل البيت الاّ والخادم الوفي يقول : « الآن سننتقم منكم على آخركم يا معشر الكلاب المسيحيين بسوسة. » فرد عليه سيده : « كيف! أنت أيضا ضدّنا؟ أنت كذلك تنكر معرفتنا؟ » فأردف الصبي المسلم : « ليس الآن وقت معرفة بل حان موعد الانتقام. » وبالفعل أحدق آنذاك بالمقيمين النصارى خطر ولكن الربّ أبعد الخطر بفضل رحمته.

لقد أحدث التغيير الجديد الذي طرأ على عرش تونس دهشة في نفوس أهالي المكان ودوّخ عقولهم لأنه لم يسفر هذه المرة — خلافا لما هو مألوف في تاريخ هذا القطر — عن إراقة دماء. فيا لها من دماء سالت لدى بيعة

الباي الأخير، دماء ابني أخيه وطبيبه الخاص و« صاحب الطابع » والكاتب المكلف بالشؤون الخارجية، الذي كان من النصارى[14]. لقد كان مشهد انشرحت له صدور هؤلاء « البرابرة » الهمج، مشهد قطع رقبتي الشابين وليّي العهد الشرعيين و« صاحب الطابع » الذي ساهم كثيرا في تجميل تونس وأسس مسجدا جميلا وحفر آبارا كثيرة، ثم مشهد جرّ الجثث عبر شوارع المدينة. أيعقل أن يمرّ الآن كل شيء في تمام الهدوء والسكينة دون أن يتمّ على الأقل ازهاق روح صاحب الطابع المكروه خنقا! ولا شيء لتتويج الحدث سوى نفي مملوكين الى « جربة »! هذا غير معقول! هكذا تحدث القوم وقالوا. لكن اكتشف في الكتب التي هي في حوزة رجال الدين ما ينبىء بأن الباي الحالي لن يحكم أكثر من سنتين ونصف[15] وعندها سوف يسقط من الضحايا ما فيه الكفاية. وها هم الناس على أحر من الجمر في انتظار هذا الحين، هذا بالرغم من أن كل تغيير يطرأ على مستوى العرش يكبّد البلاط أموالا طائلة. ذلك أن « القفطان » يشترى من السلطان الأعظم دوما بأبهظ الأثمان. ويساهم إقليم سوسة وحده في كل مرة بـ 40.000 ريال، ومع ذلك فإن هذه الأحداث تلاقى دوما بكامل الترحاب. وبعد شهر سيسافر « صاحب الطابع » المذكور أعلاه من تونس الى القسطنطينية للاتيان بـ « القفطان » الى سيده. وقد تم منذ مدة انشاء بضع سفن حربية في مرسيليا لهذا الغرض وصلت الى تونس قبل بضعة أيام وسرعان ما وقع تسخير ملاّحين خصيصا لقيادتها منهم 24 من سوسة وحدها... [...]

(14) يشير ايفالد هنا إلى أحداث لم تطرأ ، كما يدعي خطأ ، عند بيعة الباي الأخير، أي حسين باي (1824) بل قبل ذلك . ففي ذكر « ابني الأخ » تلميح إلى الانقلاب الذي قام به محمود باي ضد عثمان باي سنة 1815 ، وفي ذكر « صاحب الطابع » إشارة إلى مقتل يوسف صاحب الطابع على يدي محمود باي . وأما « الكاتب » النصراني فهو بدون شك مريانو ستنكا الذي أعدم بأمر من عثمان باي بدعوى أنه تسبب في موت سيّده حمودة باشا ، بمعية « الطبيب » السابق الذكر أيضا .

(15) امتد زمن حكم مصطفى باي من ماي 1835 إلى وفاته في أكتوبر 1837 وهكذا يكون استغرق فعلا حوالي سنتين ونصف . إلاّ أن الخلافة بعده لم تصاحبها أحداث دامية .

VI

المنستير في 13 جوان 1835

في صبيحة الثامن من الشهر الجاري بارحنا سوسة، أنا وخادمي ومسلم يحمل سلاحا. وكنّا نمتطي بغالا ونقود أخرى عليها أمتعتي. واتبعنا طريقا ساحليا كثير المنعرجات حتى بلغنا هذا المكان. ولم تتميّز المسافة التي قطعناها بشيء سوى غابات زيتون جميلة. واستقبلني السيد فليتشي سارّا (Felice Serra)، الذي كنت موصى إليه، في بيته حيث أفرغ لي غرفة وخصّني الى حدّ هذه الساعة بضيافة جيّدة وأحاطني بفائق التقدير. وتقع المنستير على بعد اثني عشر ميلا فقط من سوسة وتحتل موقعا رائعا على حافة البحر ولها مرسى حسن وسور منيع يحيط بها ويحميها. ويرابط في القلعة « الطبجي الباشا »، وهو الآمر العسكري، بمعية حفنة من العساكر. وتشتمل المدينة على 1400 منزل وتعدّ، حسب التقدير، نحو 12.000 ساكن، منهم خمسون يهوديّا واثنا عشر مسيحيّا وعدد من المالطيين. والمنستير أيضا مركز نفوذ « قايد » يتولّى، فضلا عن نطاق المدينة ذاتها، أمر اثنتي عشرة قرية. وبها الفلاحة وتربية الماشية في وضع حسن. ويكثر في المنطقة بصفة خاصة الزيتون والأشجار المثمرة. ولموقع المدينة منافع صحية متميّزة فهناك البحر من جهة والبساتين الغنّاء من جهة أخرى. وقد مرّت الآن ثلاثمائة وعشرون سنة على طرد الاسبان من هذا المكان حيث كانت لهم لأمد طويل مستعمرة. وزال كل أثر من احتلالهم البائد ولم يبق ظاهرا سوى صليب من صلبان فرسان مالطة منحوت على عمود رخامي عند أحد أبواب المدينة. وأنهج المدينة متسعة نظيفة لا تعلو فيها المنازل أكثر من طابق واحد. ووجدنا مسلمي المكان أكثر طيبة وأقل تعصبا من مسلمي سوسة وكانت لي معهم يوميا طوال إقامتي محاورات صريحة. وسرعان ما نفدت المجموعة الصغيرة من الكتب المكتوبة بالعربية التي أتيت بها الى هنا وصرت كل ساعة أسأل

هل من مزيد، ولكن لم يبق لي منها مع الأسف شيء. ويسود هنا يسر ملحوظ ومع هذا يتصف الأهالي بالكدّ في العمل وبالمسالمة في معاملة الغير. وقد رأيتهم يقبلون على محادثتي بسرور وسمحوا لي حتى بشراء مصحف قرآن كان معروضا للبيع. ومصاحف القرآن لا تباع بتاتا مقابل نقود ويعتبر أخذ المال عليها اثما. بل انها تقتنى مقابل خبز يوزّع على الفقراء. وقد كلّفني مصحفي 332 رغيفا من الخبز الاّ أن البائع أبى أن يتسلم الخبز بل احتسب ثمنه وتناوله مني نقدا وأنا متأكد من أنه احتفظ به لنفسه.

الاّ أنني وجدت سكان المكان كغيرهم من أهالي بلاد البربر في كل مكان متشبثين بالاعتقادات الباطلة. وقد طلب مني أخيرا أحد المسلمين أن أعلمه « خطّ الرمل » وهو ضرب من ضروب السحر يمكّن صاحبه من معرفة كم سيعيش انسان ما ويعطيه القدرة على جعل الديار تنهار وعلى التحكم في حياة انسان أو مماته. وقلت للرجل : « افتح قرآنك واقرأ لي ما جاء في آخر سورة «لقمان» وسوف تلقى ما تتوق إلى معرفته فأجاب : « ما أنا بطاهر الآن ولا يحقّ لي أن أمس القرآن. ها هو ذا افتحه بنفسك واقرأ علّي. » ففعلت وقرأت عليه المقطع المعني حيث يأتي أن لا انسان يدري كم يعيش مخلوق آخر بل لن ذلك سر من الأسرار الخمسة التي لا يعلمها سوى الله وهي قيام الساعة وموعد نزول الغيث وما في الأرحام، ان ذكرا أو أنثى، ومصير الانسان مستقبلا ومتى وكيف وأين يموت انسان ما.

وفي الحادي عشر من الشهر الجاري أصاب القمر الكسوف وسألني بعض أهل العلم عن سبب هذه الظاهرة فشرحت لهم الأمر بكل بساطة ولما ذكرت لهم أن الأرض تدور حل الشمس احتجوا وقالوا أن ذلك مستحيل وزعموا أن الأرض ترتاح على قرن الثور الأكبر الذي يقف فوق الحيتان الكبيرة التي توجد بدورها في البحر. ولم تجد البراهين نفعا وتشبثوا بخرافتهم السخيفة. ويوجد بالمكان ضريح « مرابط »، أو ولي صالح، غريب الأطوار. وضريحه كسائر أضرحة أمثاله ملاذ للمجرمين فمن أسعفه الحظ وبلغه ضمن لنفسه الحرية وتفادى القصاص. وكفى غرابة أن نعلم أن هذا الولي الصالح

إيطالي الأصل ارتد عن دينه واعتنق الاسلام وأبهر الناس طويلا بشتى الخدع وأدوار الشعوذة إلى أن حسبوه صاحب كرامات. وحصل أن كاتب ذات يوم والده طالبا منه أن يرسل إليه في أعقاب الخريف بضعة صناديق من العنب الايطالي. وكان قائد السفينة وملاحوها متواطئين مع صاحب الخطّة فما أن بلغوا الشاطىء حتى ردموا الصناديق في موقع متّفق عليه. عند ذلك قال صاحبنا للأهالي المسلمين : « اذهبوا الى الشاطىء وهناك حيث الصخر الكبير تجدون تحت التراب صناديق ملؤها عنب شهيّ ». وقصدوا المكان الموصوف وأخرجت الخبيئة العجيبة. ومنذ ذلك الحين اعتبر من الصالحين وعند مماته أقيم على قبره مقام فأضحى ملاذا حصينا.

ان يهود المكان لفقراء ولهم بيعة وحاخام. وقد تسنى لي الحديث معهم ببساطة وصراحة وتناولوا مني كتب الانجيل بكامل السرور ولم يكن بحوزتهم من قبل أيّ منهما. لكن عند وصولي وجدت لدى المجموعة بأسرها نسختين فقط اشتريتا من عندي في تونس. وكانت تعاليم المسيحية مجهولة لديهم تماما. وزودت كذلك ثلة من النصارى بكلمة الحياة. وهم يعيشون معا في طمأنينة ووفاق، ولكن لا أحد منهم متزوج.

وعلى مسافة يوم سفر فقط تقع مدينة القيروان الذائعة الصيت، حيث يوجد قبر صحابيّ من أصدقاء شباب محمد، وحيث يوجد أكبر وأجمل مسجد في بلاد البربر، تزينه 500 من الأعمدة الصوانية. وإلى القيروان يحج من تعذر عليه الرحيل الى مكة. وثمة أسطورة تقول ان مكة ستسقط يوما في أيدي النصارى فتصبح القيروان آنذاك قبلة حج المسلمين الأولى. وكم أودّ أن أزور هذه المدينة غير أن المكان على درجة من القداسة تجعل زيارة النصارى له دون ترخيص من السلط العليا أمرا مستحيلا. والحاصل أنه يحجر على أي مسيحي دخول هذه المدينة دون اذن خاص من لدن الباي وإذا تهيّأ هذا فلا بد للزائر من كوكبة من المماليك لمواكبته.

ولهذا وجب عليّ الاقتصار على أخبار من أتيحت له زيارة المكان. ويقال أن القيروان تشتمل على ستة آلاف منزل وعلى عدد لا بأس به من السكان.

وفي مقام الولي المذكور يواظب ليلا ونهارا على تلاوة القرآن. وكان أهل القيروان سابقا يتمتعون بامتيازات عديدة ويعفون من عدة أداءات. ولما تولى « صاحب الطابع » الحالي مقاليد الحكم أقام، لسد فراغ الخزينة، ضرائب جديدة وأبى أن تبقى القيروان معفاة منها. فتقرر أن ترفع هنا أيضا كما في سائر المملكة خمس وعشرون بالمائة على كل المواد الغذائية القابلة للاستهلاك. فثار أهل القيروان غيرة على حقوقهم الراسخة ورابط ثلاثة آلاف من رجالهم بالسلاح حول المدينة للقاء القوات القادمة من تونس كما يلزم.

وكان « صاحب الطابع » مقيما بسوسة حين وافاه خبر انتفاضة المدينة المقدسة. وفي الحين ركب الى القيروان على رأس خمسين رجلا فقط وفاجأ أهل القيروان على حين بغتة ودون سابق اعلام. فكان لظهوره المفاجىء وقع أدخل في قلوب القيروانيين الصناديد الرعب والفزع وجعلهم يلوذون بالفرار لا يلوون على شيء. ونزل « صاحب الطابع » من على مطيته أمام منزل « القايد » ودخل وقال ببرودة دم : « ائتني بفلان وفلان ». ولما تمّ له ذلك قال : « أنت تذهب الى السجن وأنت تسخّر للجدف على السفن الحربية ». وعلى هذا النحو أبعد رؤوس الثورة وأنزل على القيروان غرامة قدرها أربعة ملايين ريال تدفع في الحال.

أود ختاما أن أضيف ما يلي وهو من باب النوادر الطريفة، ذلك أن من بين الرسائل التي وصلتني خلال إقامتي هاهنا رسالة من انكلترا جاءت عبر فرنسا وإيطاليا الخ. وفي إحدى مقاطعات إيطاليا فتحت وقرئت ثمّ ثقبت وختمت من جديد وكتب عليها ما يلي : netta fuori, spurca dentro أي « نقية من الخارج ونجسة من الداخل ». ولم يعد محتوى الرسالة أن يكون مجرّد ردّ على طلب سبق أن وجهته إلى كاتب جمعية التبشير.

VII

المهدية في 16 جوان 1835

كان المؤذن يسمع أهالي المنستير آذان الفجر من أعلى الصومعة، بقوله « الله أكبر! »، لما اجتزنا باب المدينة على ظهور البغال، ومعنا مسلمان يحملان سلاحا. وما هي إلّا فترة وجيزة حتى تركنا بساتين المدينة الجميلة وحقولها الخصبة خلف ظهورنا واكتنفتنا منطقة قفراء موحشة لكنها ثرية بآثار العصور القديمة. وبلغنا أول ما بلغنا قرية « خنيس » الصغيرة ثم « الكرب »، وما ان تجاوزناها حتى بدت لنا « لمطة » المعروفة لدى القدامى بـ« لبتيس بارفا » (Leptis Parva) وقد كان يبلغ محيطها في سالف العهد ميلا كاملا، وها هي الآن مجرّد قرية يائسة. وما زالت تشهد على عظمة هذا الموقع الغابرة بقايا القلعة البارزة فوق سطح الأرض بوضوح. ثمّ بلغنا آثار « بوحجر »، وبعد بضعة أميال أدركنا حافة بحيرة مالحة قد يكون لها ثلاثة أميال من الطول ونصف ميل من العرض، يسميها الأهالي « سبخة ».

وسار بنا الطريق طوال حافة هذه البحيرة. والغريب أن الدولة الحريصة عادة على احتكار المحاصيل تسمح لأي كان برفع ما شاء من ملح هذه البحيرة. ثم وصلنا بعد ذلك إلى « طبلبة » حيث توجد كذلك آثار العصور القديمة، إثر ذلك حللنا بـ« البقالطة ». وبما أن القيظ بدأ يشتد فقد وقفنا برهة من الزمن في ظل الزياتين لنترك دوابنا تستريح. ولم تعد تفصلنا عن « المهدية » سوى تسعة أميال وكنت آمل أن أطوي ما بقي لي من المسير لهذا اليوم في ظرف ساعة ونصف، لكننا طفقنا نمشي الساعة تلو الأخرى وسط غابة زيتون كثيفة دون أن يظهر لنا هدفنا المنشود باشتياق كبير. واشتد بي القلق وكبرت حيرتي لما اختفى عنا كل أثر لرسم طريق فوقفنا، ونحن خمسة فرسان، لا ندري إلى أين المسير. وهنا اتضح أن مرشديّ لا يعرفان الطريق وبات من الجليّ أننا ضللنا سبيلنا. ولا ينفع مع المسلمين في مثل هذه الحالات غضب أو انفعال. فأنت لا تسمع منهم أبدا سوى : « هكذا قدّر ! هكذا أراد الله ! » يقولونها في منتهى الهدوء والبرودة.

وبعد مداولات طويلة جاء الخلاص من هذه الورطة على يدي خادمي الذي قال : « سيدي، لنذهب قدما في هذا الاتجاه. فهناك البحر وعندما نصل الشاطىء نجد طريقنا بتأكيد ». ومشينا بالنصيحة فخرجنا من الغابة بسلام ثم لمحنا « المهدية » تسطع في البعد. وأدركت هذا المكان وأنا في حالة قصوى من الاعياء وبصداع شديد في الرأس، سببه حرارة الشمس اللافحة. وتقطن بالمكان ثلاث أسر مسيحية، إحداها إيطالية والأخريان فرنسيتان، وذلك من أجل تجارة الزيت. وكنت أحمل توصية إلى السيد « جوسيبو كاستالينو » (Giuseppo Castellino)، من أصيلي كورسيكا، فاستقبلني بفائق الحفاوة. ونظرا الى حاجتي الملحّة الى الراحة ، لما سبّبه لي سفر اليوم، تحت أشعة الشمس المتقدة من ارهاق، رأيتني أبادر فور وصولي بالارتماء على الفراش. وخرجت إثر ذلك للفرجة على المدينة. ان « المهدية » أو « افريقية » — وهو حسبما يقال أول موقع أسسه الرومان على ساحل افريقيا الشمالي — تقع في شبه جزيرة وتحتوي على أجمل وأعظم ما رأيت الى حدّ الساعة من آثار العصور القديمة. وما زالت تقوم عند مدخل المدينة ثلاثة أبراج حسنة الصيانة، وفي الممرّ المقّبب الذي يتجاوز طوله مائة خطوة وجدت كتابة حجرية صارت للأسف مطموسة تماما. وتشهد على عظمة القدم مجموعة من خزانات المياه، العديد منها في حالة حسنة، وكتل مرمرية منها قطع على غاية من الضخامة، وأبراج وقبور منقورة في الصخر وجدار متداع. أما اليوم فلا تعدّ المدينة أكثر من خمسة آلاف ساكن، منهم « آغا » هو آمر الحامية المرابطة في القلعة وهو قاضي المدينة في الآن نفسه، وهناك بعض اليهود ومن ذكرنا من المسيحيين. ويقال ان هواء المكان صحّي للغاية وان الأهالي يعمرون طويلا وقد توفيت من أيام قليلة امرأة في سنّ المائة وعشرين عاما. وينتشر هنا الزيتون بكثرة وتحف بالمدينة غابات كثيرة منه. لذا نجد السكان على غاية من الثراء ولكنهم كسالى. فلا يزرع شيء ولا يجنى الاّ ما جادت به الطبيعة تلقائيا. وأما تربية الماشية فسيّئة ولا يجد الأروبي ما يلذّ للسانه الاّ ما قلّ. لكن الرغبة في الثراء، أملا في قضاء بضع سنين من الترف والرخاء في **أروبا**، تجعل الأروبيين

المتعطشين الى جمع المال يتحملون جميع الصعاب. ونظرا الى أن إقامتي في هذا المكان لم تتجاوز يوما واحدا فانه لا يتسنّى لي أن أحكم على طبع سكانه المسلمين. بيد أني سمعت من النصارى المقيمين هنا في أمان تامّ انه ليس لهم من التعصّب الديني الاّ قدر قليل.

صفاقس في 21 جوان 1835

في السابع عشر من الشهر الجاري وفي الساعة الرابعة صباحا كنا في طريقنا نسير، بعد أن تركنا « المهدية » وراءنا. وكان دربنا يلتوي التواء الثعبان عبر البساتين الجميلة طوال سبعة أميال. وبعد ذلك انقطعت كل مظاهر الزراعة ووصلنا الى وطن الأعراب المتوحشين الذين يكنّون العداوة لسكنى الديار ولا يعيشون الاّ في الخيام، منصرفين الى رعي غنمهم ومرحبين بما تدرّ عليهم الأرض طوعا. وقد سبق لي أن سمعت الكثير عن بقايا فاخرة من مسرح روماني مدّرج في هذه الفيافي المقفرة أو وسطها. ويسميه العرب « الجم » بينما كان يعرف لدى القدامى بـ« تسدراس » (Tisdras) أو « تسدروس » (Tysdrus). وقد كنت لرؤيته على أحرّ من الجمر وها أن الموعد يحين اليوم لكي أشاهد هذه الأعجوبة الباقية من العصر القديم، بل أقيم مبيتي بجنبها.

وأخذ طريقنا في الصعود شيئا فشيئا فقلت في نفسي : متى بلغت القمة أمكنك أن تملأ نظرك من هذا الصرح العظيم الذي شيّده الأقدمون. ولكنني أخطأت الحساب، فقلت : سوف تتاح لك رؤيته من أعلى ذلك المرتفع! ووخزت بغلي ووصلت الى فوق فإذا بهضبة أخرى تحجب الرؤية. وأخيرا صاح مرشدي : « هذا الجم ! هذا البرج الكبير امتاع الرومي ! » [كذا] ودققت النظر فانتابني شعور كئيب لا يوصف مزّق أحشائي. كيف لا وأنا أرى هذه الآية المعمارية العجيبة وسط هذه الصحراء الافريقية تحيط بها الطغم الوحشية العديمة الحضارة والمفتقدة لكل احساس بالفن ! وبدا هذا المبنى الجبّار من مشرفي وكأنه حصن من حصون الفرسان الألمان صانه الدهر. وكانت الشمس آنذاك في كبد السماء ترسل أشعّتها اللافحة فتألمت كثيرا من الحرّ ممّا دعاني الى أن أزيغ عن الطريق جانبا حتى احتمي بظلال بعض الأشجار المنعشة. وكنت أنوي المكوث هناك حتى يحلّ المساء. وفي

الأثناء لم تفارق عيناي هذا البناء العجيب، بينما عاد بي ذهني القهقري الى العصور التي كان فيها الرومان والمسيحيون يعمرون هذا القطر المبارك، الذي غدا اليوم في تعاسة. غير أن مرشديّ لم يتركاني أتمهّل طويلا وألحّا على مواصلة السير، ذلك لأنهما كادا يموتان عطشا، فتعيّن عليّ الانصياع وسرنا على ظهور مطايانا رويدا رويدا صوب وكر اللصوص الواقع في ظل الآثار المذكور والمسكون من قبل عرب شبه عراة. وفي هذا المكان تنزل كل القوافل الواردة من شتّى الجهات للاستراحة. وبالتالي فإن الفنادق هنا تعجّ بالحشرات على مختلف أجناسها، ممّا يجعل كل مسافر غريب يقضي كامل ليلته في حركة ونشاط. وحرصا مني على تفادي هذا السوء أخذت احتياطي وجلبت معي رسائل توصية موجّهة الى عربيّ من أعيان المكان. وسلّمته رسائلي فأبعد نساءه واستقبلني في كوخه. ورغم ما كنت عليه من تعب خلّفه لي سير اثنين وثلاثين ميلا، رأيتني أسرع، حالما سمحت قواعد اللياقة بذلك، الى الخارج لكي أدقّق النظر عن كثب في أعجب ما رأيت لحد الآن. ويقال ان هذا الأثر هو أعظم معلم من معالم فنّ الرومان وترفهم، وقد شيّد في عهد « غرديانوس » (Gardianus) الذي نودي به قيصرا رومانيا في مدينة « تسدروس »، على مقربة من هذا المعلم.

وكان هذا المسرح المدّرج في سالف العهد يشتمل على أربعة صفوف من الأعمدة قائمة بعضها فوق بعض وعلى أربعة وستين من الأروقة المقنطرة. لكن نجد حاليا صفّ الأعمدة العلوي منهارا أو يكاد ولم يبق في حالة طيبة سوى الصفوف الثلاثة الباقية. ويكون القياس من القاعدة الأساسية الى قاعدة الرواق العلوي الرابع تسعين قدما، باعتبار ان ارتفاع العمود الواحد خمسة عشر قدما. وبالتالي يكون ارتفاع كامل البناية مائة وخمسة أقدام. أما الساحة الداخلية فلها ثلاثمائة قدم طولا ومائتان عرضا. ويوجد في الوسط جبّ لكنه مطمور حاليا. وقد قال لي العرب انه كان منفذ نفق تحت الأرض يصل حتى « المهدية » وما ذلك في اعتقادي سوى خرافة. وما زالت بقايا هذا المدّرج تظهر وكأنها حديثة العهد أو أنجزت توّا. وقبل مضيّ مائة سنة أمر أحد بايات تونس بنسف أربعة أروقة مقنطرة لأن العرب تحصنوا خلال بعض

انتفاضاتهم بالمبنى وقاوموا مقاومة باسلة. وتبلغ كثافة الأروقة المقنطرة التي وقع نسفها مائة وخمسة أقدام. ويبلغ محيط المبنى برمته 1570 قدما. ويوجد في احد أركان المسرح تمثال لـ« فينوس » لكنه مبتور الرأس. وما زال بارزا على المبنى نفسه رأس جدي وآخر لرجل. وبين هذا الصرح الجبار وأكواخ العرب الحقيرة تباين لا يوصف. ولم يسبق لي بتاتا أن رأيت أكواخا أكثر بؤسا ولا بدوا أكثر فاقة من هؤلاء. وتعجّ دوائر المكان بكتل المرمر والأعمدة ودواثر البناءات الغابرة وخزانات المياه. وعلى بعد نحو ربع ساعة من هذا المسرح يوجد الموقع الذي كان يكتنف المدينة العتيقة وما زالت تنتشر فيه آثار كثيرة جدّا. وقد رأيت تمثالا مرمريا لرجل عملاق ولكنه ويا للأسف مبتور الرأس أيضا. ذلك أن تعصّب العرب الديني أدّى الى تحطيم كل المعالم الفنية. ولم أملّ من مشاهدة هذا المبنى فطفت حوله مرارا للتمعن فيه من كل جوانبه، يتبعني حشد من البدو، رجالا ونساء وأطفالا، قد لازموا خطايا غير فاهمين أين يكمن العجب الجدير بالفرجة. كما أنهم عرضوا عليّ قطعا نقدية قديمة للبيع وتعجبوا من كل ما كان عليّ. وبالرغم من أن لباسي كان لا يعدو كونه من نسيج الكتان الأبيض فقد سرى في اعتقادهم أني لا بد أن أكون بعض القناصل أو تاجرا على أقلّ تقدير. والقنصل في أعين هؤلاء المخاليق أرقى ما يكون. ثم أني كنت أحمل عادة، وقاية من حرارة الشمس الشديدة، زوج قفّاز أبيض اللون، يمكّن اليدين نوعا ما من شيء من الرّطوبة، لذا استقطبت أصابعي جلّ انتباههم وقد تبادر الى أذهانهم أن القفّاز جزء طبيعي من يدي لا ينزع فسألوني كيف يمكنني أن أتناول الطعام ـــ مع الملاحظ أنهم لا يعرفون سكينا أو شوكة بل هم يأكلون بالأصابع.

وتفصل هذا المكان عن « صفاقس » مسافة خمسة وخمسين ميلا. وقد أبدى مرشداي تخوفا من متابعة الطريق صحبتي بمفردهما فرأيت أنه من الأفضل أن أواصل الرحيل في المساء رفقة القافلة القادمة من تونس. وبينما كنت أكرّر الفرجة على المعلم الأثري عينه، والبدو يحملقون فيّ، شاهدت مشاهد أدخلت على نفسي كدرا كبيرا. ذلك أن بعضا من مماليك الباي

انهالوا على عدد من البدو ضربا وأساؤوا معاملتهم بكل عنف، لماذا ؟ لأنهم باعوا الى بعض الأروبيين مسبقا أكثر زيتونا مما حصل لديهم اثر الجني. وهاهم الأروبيون يبعثون الزبانية لا لأخذ الزيتون بل للمطالبة بثمنه. والعربي الذي أدّى به سوء الطالع الى أن يبيع « مطر » الزيتون بخمسة ريالات يجد نفسه الآن ملزما بدفع عشرين ريالا للأروبي وريالين للمملوك على عنائه. ولم يكن يعرف أدنى شيء من هذه التجاوزات الفظيعة قبل أربع سنين فقط. ففي ذلك الوقت لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأروبيين المهتمين بشراء الزيتون وما كانوا يتعاملون إلّا مع من كان قادرا من الأهالي على توفير ما التزم ببيعه. ولكن منذ بضعة أعوام دفع الجشع والتكالب على الربح بكثير من الأروبيين الى عبور البحر والمجيء الى هنا. وكلّهم حريص على جمع ثروة برأس مال قليل وفي أسرع الآجال، فتراهم يمارسون الرّبا بصفة مهولة حتى انك لا تجد في سجلات أكبر المرابين اليهود ما يضارع ولو قليلا ممارسات هؤلاء المسيحيين المزعومين. وسوف تكون عاقبة تجارة الزيتون هذه، كما يتيسّر التنبؤ به، جدّ مأسوية، بلا ريب. اذ سيجنح العرب المسلوبون بهذه الصفة الشنيعة من قبل الأروبيين والمنهكون الى أقصى درجة الى قتل النصارى المقيمين فرادى هنا وهناك في أرجاء القطر.
وفي الأثناء خيّم الليل فقصدت كوخ صاحبنا البدوي فوجدته قد أعدّ اناء كبيرا مملوأ « بالكسكسي » ودعاني للأكل منه، فجلسنا على الأرض وأكلنا. وبعد العشاء أوثقنا أمتعتنا على ظهور بغالنا وتوجهنا الى المكان الذي تتجمع فيه القوافل في انتظار ساعة الرحيل. وبينما مكث خادمي ومرافقاي منتبهين الى البغال سرحت أنا أحدق في القبة الجميلة التي كانت فوق رأسي، قبة السماء الرائعة، المتلألئة نجوما. وارتقى فكري في سكون الليل الى من تبوأ العرش فوق النجوم، الى الرحمان الرحيم.

وفي الساعة الحادية عشرة تحركت القافلة وجهز كل أحد سلاحه ليكون على استعداد في حالة حصول أي اعتداء. وراقبت بدوري مسدّسي واحتزمت السيف من باب الاعتياد أكثر منه للاعتماد على هذا السلاح فكل ثقتي كانت بيد من يدبّر الأمور ويسيّرها بحكمة. وامتطيت دابّتي وفعل خادمي بالمثل،

وترك أحد المرشدين البغل الثالث ليناولني معطفي ولما عاد اليه ـــ ماذا حصل ؟ لقد غاب البغل واختفى ومعه كل لباسي وكتبي وغير ذلك من المتاع، كان مشحونا في حقيبتين. فامتلكني ذهول عظيم، وتبادر الى خاطري ان البغل اقتفى أثر القافلة التي كانت قد انطلقت. فأرسلت أحد مرشديّ ليدركه ويعود به ولكنه عاد صفر اليدين وعليه علامات الحيرة. وكانت الساعة آنذاك تشير الى منتصف الليل وكان يسود المكان ظلام حالك. ما العمل يا ترى ؟ هكذا فكرت وكانت النصيحة في تلك الآونة فعلا لا تشترى بالذهب. ثم اني طالبت بحضور « شيخ » المكان، كما أرسلت في طلب البدوي الذي كنت موصى اليه وقد ساورتني شكوك في أمره. فأقبل يصحبه بعض البدو كما لحق « الشيخ ». وقلت لهؤلاء البدو في صراحة ان قومهم الذين لازموا أثرنا طول الوقت هم سرّاق بغلي. فأجاب « الشيخ » بأن قومه أهل ثقة وسألني في نفس الحين ان كان في الحقيبتين نقود فأجبته بأنهما لا تحتويان على نقود بل على كتبي وثيابي لا غير. فردّ عليّ : « لا تخش شيئا إذن، إن لم تكن هناك دراهم فسوف تستعيد ما افتقدت ». ثم أرسل رجالا الى مختلف الجهات ولكنهم كانوا كل مرة يعودون فارغي الأيدي. حينذاك لم يبق أمامي سوى حلّين لتخويف هؤلاء البدو، قصد استرجاع أملاكي.

انّ هؤلاء القوم لعلى قدر كبير من الاعتقاد في الخرافات والأباطيل، ثم أنهم يعلمون اني أحذق العربية وأقرأ القرآن. وبالتالي يكفي أن أقول أني خبير بالسحر المعروف بـ« خطّ الرّمل » [كذا] واني سوف أنفذ هذا السحر في صورة ما لم يحضروا لي بغلي وان الجاني سيلقى عندئذ عقابا شديدا. بيد أني أبيت أن أزيد في دعم اعتقاداتهم الباطلة والتجأت الى الحل الثاني. علما بأن الأنكليز يحظون في أعين العرب بمكانة عالية، قلت، وأنا مقرّ العزم على فعل ما أقول، اني سأترّقب حتّى طلوع النّهار أن تعاد اليّ أمتعتي وان لم يحصل ذلك فإني سأرسل على جناح السرعة أحد رجالي الى تونس لاعلام القنصل الأنكليزي بما جرى وهو بدوره سينقل الخبر الى الباي. وعند ذلك سيدفعون لي ثمن بغلي وحقيبتيّ غاليا. ولئن أظهروا وكأن لا شأن لهم مع

الباي، بل مع القنصل، فقد لاحظت فورا أن كلامي أحدث في نفوس هؤلاء البرابرة الهمج وقعا ملموسا. اثر ذلك تفرّقوا ثانية قصد التفتيش بينما اعتصمت أنا ورجالي بالهدوء التّام. وفي الساعة الثالثة صباحا أقبل أحد البدو وقال لي : « اطمئن، ان بغلك في منزلي ». وما هي الاّ هنيهة حتى جيء به اليّ يقوده أولائك اللصوص أنفسهم. وكم كانت فرحتي عارمة، لا سيما وأنه لم يكن ينقص من متاعي أدنى شيء رغم ما بدا جليا من عطب لحق بالحقيبتين لتعرّضهما للفتح عنوة، بعد أن قطعت أحزمة الاغلاق بسكّين.

والتفّ حولي عرب كثيرون وطالب كلّ منهم بمكافأة على عنائه في البحث عن البغل وتجاوز مجمل طلبهم مائة ريال. ولما صرحت لهم دون التواء بأني لن أعطيهم شيئا بل أني سأشتكي من تصرفهم العديم الحياء، انتابهم الخوف وقالوا : « اذا لم يكن لديك مال فاننا نهبك ما أدّيناه لك هدية وما عليك إلاّ أن تنصرف في سبيل حالك.» لكنني ما كنت لأتجرّأ على احتياز هذه المنطقة صحبة رفيقيّ فقط : انها فلاة خالية من البشر، عديمة النّبت، تمتدّ على طول خمسة وخمسين ميلا بين الجم وصفاقس. ولهذا رأيتني أتوجه الى البدوي الذي كنت موصى إليه، قائلا : « اني أعتبرك الآن بمثابة والدي وقد جئت موجها إليك رأسا، فاعطني اثنين من ثقة الرّجال ليواكباني حتّى صفاقس » فقال : «هاهما رجلان فإذا منحتهما أجرا كافيا فإنهما سيرافقانك». بيد أني لقيت فيهما اثنين من أولائك الذين ثبت لي مشاركتهم في السرقة. فأخذت صاحبي البدوي جانبا وقلت له : « هل تعرف هذين الرجلين جيّد المعرفة ؟ هل هما من أهل الثقة وهل يمكنني أن أتكل عليهما ؟ » فأجاب : « أقسم لك برأسك ورأس «سيّرا » ـــ وهو اسم السيّد الذي أوصاني اليه ـــ أني أعرفهما وانهما من أهل الثقة. » فأجبته : « اترك الآن رأسي ورأس « سيّرا » جانبا واحلف لي برأسك ورأس أبنائك » وحينها تلعثم صاحبي البدوي وأحجم عن الكلام، فكان لي في ذلك دليل بيّن على الخبث وسوء النيّة. واكتفيت بأن قلت : « سأبقى هنا في انتظار القافلة الآتية » وهكذا فعلت وحمدت الله على طيبته ووفائه وعلى رعايته ولبثت على بركة الرّب كامل اليوم التالي رابضا في ركن حقير من القرية صحبة

أتباعي. وفي المساء على الساعة السادسة وصلت قافلة من تونس فانضممنا اليها وواصلنا مسيرنا ضمنها.

ومن عادة أدلّاء قافلة كهذه وسائر أفرادها أن يكونوا مدجّجين بالسلاح. وكان يتقدّمها راكبا أعرف الأدلاء بالطريق وواكبها من كلا الجانبين دليلان آخران وسار في المؤخرة رابع. وكانت البغال والجمال والخيل والحمير بأسرها تعرف الطريق، وليس على المرء سوى الانضمام الى صفّها وترك المطايا تمشي على هواها. وكان الأدلّاء يعرفون جيّدا كل شجرة وكل نبتة وكل منعطف طريق. فكانوا ينادون باستمرار : « انتبهوا ! هنا شجرة ! هنا يأخذ الطريق في الصعود ! أو : هنا ينحدر ! » كما كانوا ينتبهون كي لا يغفو أحد المسافرين، فكنت تراهم تارة يحادثون هذا وتارة ذلك. ووجدت هؤلاء الأدلّاء على غاية من الكياسة وحسن السلوك. وفي الأثناء خيّم الليل شيئا فشيئا وصرنا نبصر هنا وهناك في البعد نيران البدو مشتعلة ونسمع نباح كلابهم. ومن عادة هؤلاء البدو ألّا يقيموا مضاربهم على قارعة الطريق تفاديا لضيوف غير مرغوب فيهم. وكانت النجوم ترسل شعاعها الوضّاح وكان الليل في منتهى الجمال. بيد أن حادثة الأمس التي تمثّلت حينها الى خاطري بكل خطورتها أدخلت عليّ الكآبة ولم تفارقني هواجس الخوف كامل تلك الليلة، لا سيما ونحن نسير عبر بيداء رهيبة. وعند الصباح شعرت بتعب شديد وسطا عليّ النوم بقوّة حتى أضحيت ألاقي عناء كبيرا في الثبوت فوق السّرج.

ولاحت على بعض المسافة ديار فخلتها صفاقس. الّا أن بعض الرفاق قال لي انّما تلك بساتين هذه المدينة ومنازلها الريفية، وما زالت تفصلنا عن هدفنا عشرة أميال. لكن جميع قواي نفدت ولم تعد لي قدرة على مواصلة السير فانفصلت عن القافلة وحدت شيئا ما عن الطريق ثم أوعزت الى خادمي بأن يهيّء لي فنجان قهوة ونزلت عن مطيتي ونمت في الحال. ولما حضرت القهوة أوقظت من سباتي فشربت القهوة واعتليت دابتي ومشينا الأميال العشرة الباقية عبر أجمل البساتين الى أن أدركنا هذا المكان [صفاقس] في سلام وعافية بفضل رعاية الله. واستقبلني العون الأنكليزي، السيد « بلانكبارغ »

(Blankberg)[16]، السويسري الأصل، خير استقبال وبعد بادرة السلام سألت عن فراشي في الحين واستسلمت الى نوم عميق.

(16) لا ريب أنه نفس الشخص الذي يذكره الأمير بوكلير موسكاو باسم Blanchenay (انظر : « سميلاسو في افريقيا » ، المصدر المذكور ، ص 290).

صفاقس في 8 جويلية 1835

قد لا توجد على كامل ضفاف البحر الأبيض المتوسط مدينة لها ما لصفاقس من موقع متميّز ومحيط جميل فتّان. مباشرة على حافة البحر ترتفع الأسوار الباسقة التي تكتنف ألفا ومائتين من البناءات الرئيسية وألفين وأربعمائة من البناءات الثانوية. وباعتبار هذه الديار وكثافة المخلوقات الرائحة والغادية في الأنهج دون انقطاع، يجوز تقدير عدد السكان المسلمين بما يتراوح بين عشرة واثنتي عشرة ألف نسمة. ان صفاقس لمحصّنة تصحينا حسنا، تعلو أسوارها المدافع، ولكنّني لم أبصر قطّ حراسة. ويحتل الحصن « آغا » رفقة بضعة جنود يقال لهم « زواوي » [كذا] وما زال زيّهم على الطراز التركي القديم، هذا في حين أن الجند في تونس وغيرها من البقاع عرف منذ ستّ سنوات تنظيما جديدا وصار يعرف بالعسكر النظامي فكسي وفقا للنمط الأروبي ودّرب تدريبا أروبّيا. ويكفي ما قلّ من العناية ومن التكاليف لتجهيز المرفإ تجهيزا لائقا. لكن عوضا عن ذلك نجده حاليا غاصا بالوحل وبأعشاب البحر، ممّا يخوّل إلّا لصغار المراكب الوصول حتى المدينة، بينما تضطر السفن الكبيرة إلى الارساء على بعد نصف ميل. أما شوارع المدينة فهي حسنة ومبلطة في بعض الأحيان، كما أن المنازل جميلة تنمّ عن الحفظ والصيانة. وكاد الجولان عبر هذه الشوارع يكون متعة، لولا أنها، كما هو الحال بالنسبة إلى كامل بلاد البربر، تغصّ بالأوساخ على كافّة أجناسها.

وهكذا والحق يقال فإنه من خاصيات مسلمي سواحل شمالي إفريقيا أن يروا في قذارة الشوارع ضرورة لا غنى عنها. ولا توجد هنا بناءات متميّزة ما عدا مسجدا كبيرا جدّا على مذهب « المالكية »، في حين تفتقر المدينة الى مسجد على مذهب « الحنفية ». ويستحيل أن اعترضني مكان يعجّ مثل هذا بملاذات المجرمين. ولا يقتصر الحال على مقامات الأولياء فحسب، بل نجد مناطق بأسرها حبست شيئا فشيئا على مقامات الأولياء وصارت لها

بذلك نفس الصلاحية. ويكفي أي مجرم كان أن تطأ رجله منطقة من هذه المناطق ليحتفظ بحريته. وتحتوي صفاقس أيضا على بضعة أسواق جميلة وثرية توجد فيها منتوجات البلاد ومصنوعات المعامل الأروبية على حدّ سواء وتفد على صفاقس بصفة خاصة قوافل غدامس لبيع بضائعها المستوردة من داخل افريقيا، أذكر منها التبر والعاج وورق السنا وريش النعام والعبيد وغير ذلك. أما مشترياتهم العادية فتتمثل في الدّرر الزجاجية والمرايا والمقاص والسكاكين والورق الخ.

ولتجّار غدامس عادات غريبة، من ذلك أنهم لا يسلمون التّبر قبل أن يقبضوا ثمنه الذي يشترط أن يكون من فضّة، بحيث انهم لا يقبلون النقود الذّهبية. ومن عجيب الأمور أن السّكن داخل أسوار مدينة صفاقس حكر على « الصفاقسية » الأصليين محرّم على سواهم. ولا يتسنّى لأيّ غريب امتلاك منزل في حيّز المدينة، عربيا كان أو بدويا. ويتعيّن على القادمين من تونس أو من طرابلس أو من أي مكان اسلامي آخر أن يقيموا مساكنهم خارج أسوار المدينة. ثم انّ أهل صفاقس بأسرهم وبدون استثناء أهل يسر وليس هناك صفاقسي فقير الحال. فكل منهم يملك بستانا جميلا خارج المدينة، يتوسطه منزل ريفي يقيم فيه وعائلته بأسرها طيلة أشهر السنة الجميلة الستة. انه لعمري مشهد ممتع في هذا الفصل، يتهيأ لمن يقف في العشية عند باب المدينة فيرى الخلق صغارا وكبارا، أطفالا وشيوخا، يمرّون زرافات في برودة النهار، قاصدين الأجنّة البهيجة التي تبتدىء على بعد ربع ساعة خارج المدينة، مكوّنة نصف دائرة يبلغ أقصى قطره اثني عشر ميلا. ويشمل هذا الفضاء زهاء الستة آلاف من هذه الأجنّة. وتمتاز تربتها بخصوبة لا توصف : تفّاح واجّاص وعنب وتين ورمّان ومشمش وخوخ ولوز وليمون وبرقوق وتوت الخ. الى جانب عدد آخر من فواكه الأقاليم الجنوبية، كل هذا يزين أجنة «الصفاقسية». لكن على نقيض هذا فإن الخضر التي لا تحظى بشغف الأهالي المسلمين لا تزرع الاّ نادرا. فالبطاطس غير معروفة على كامل سواحل شمال افريقيا ويستجلب المقيمون الأروبيون احتياجاتهم منها من مالطا. لكن البصل والفقوس اللّذين يحبّذهما الأهالي بصفة ملحوظة يوجدان

بوفرة. وتزرع الحبوب بكثرة، لا سيما القمح والشعير، وكذلك الجلبان والعدس وكلاهما يفوق حجما مثيله في أروبا، علاوة على أن العدس يكون أكثر حمرة من نظيره الأروبي. تربية الماشية طيّبة على الاجمال ولكنها دون ما هي عليه في أروبا. وهناك فيض كبير من الغنم، الطويل الذيول منها والعادية. وتتوفر كذلك الخيول والابل والبغال بكثرة. وهناك أيضا فيض من طرائد القنص على مختلف أنواعها ولكن لا أثر للسبّاع الضّارية. ولئن ما زال هناك، حسب ما شاع بعض الشيء منها في داخل البلاد فإنها لم تعد بالوفرة التي كانت عليها في عهد الرومان. وبما أنه ليس هناك ما يحدّ من حرية الصيد فإن ممارسته من أهمّ ما يتعاطى أروبيو المكان للترفيه عن النفس. وكثيرا ما تراهم يغيبون عن ديارهم أسابيع فيصطادون ويعودون بصيد وافر. ثم ان « الصفاقسية » لمن كبار محبي السمك. وهناك منه، والحق يقال، كميات هائلة ثم ان صيده يسير لا يتطلب عناء كبيرا، وذلك بأن تقام الحواجز المجدولة بعيدا داخل البحر وتنصب في طرفها الشّرك واذا حصلت الأسماك في حيّز هذه الحواجز فإنها تصبو الى الخلاص فتواصل السباحة قدما حتى تقع في الشّرك الذي يمتلىء عادة مرتين في اليوم.

ويقام حاليا موسم الحصاد، مع العلم أن القمح والشعير ينضجان في آن واحد. ويأتي كل واحد من أهل المكان بحزم حصاده أمام باب المدينة، حيث توجد ساحة رحبة تخصص لهذا الغرض، ويختار لنفسه موقعا يكدس فيه حزمه شيئا فشيئا كلما جلب منها قسطا من الحقل وعندما يتّم هذا وينتهى من جلب الحزم وترصيفها يحضر « قايد » المدينة ويقدر كل كدس قائلا : « هذا يعطي مائة كيلة وهذا خمسمائة » وهكذا دواليك. ولا يحق لأحد الطعن في هذا التقدير. والأمر متعلق بالعشر الذي يحق لسيّد البلاد. وفي الحين يشرع كل مواطن في الدّراس باستعمال آلة الدّراس المألوفة لدى القدامى. وهي بالنسبة الى الشعير عربة وطيئة لها أربع اسطوانات لكل منها ما بين ستة وثمانية أقراص من حديد. وتربط هذه العربة بالدواب ويأخذ السائق مكانه فوقها. وقبل ذلك تنشر حزم السنابل في نسق دائري فتأخذ عربة الدّارس في الدوران فوقها الى أن تهشم وتداس وتغدو إربا. وفيما يتعلق بالقمح

تستعمل خشبة سميكة لها حوالي أربعة أقدام طولا وقدمان عرضا، اثبتت في صفحتها قطع من حديد وحجر الصّوان. وتربط هذه الخشبة الى الثور أو الحمار ويقف السائق فوقها ويشرع في الدوران الى أن يتفتّت كل ما هنالك. وفي وقت وجيز يدرس بهذه الكيفية حصاد كثير. ولفصل الحبّ عن التّبن يعكف بعض الرجال على ذرو الخليط بواسطة مذار كبيرة فتحمل الرّيح التبن جانبا ويسقط الحب الى أسفل. وفيما بعد تملأ الحبوب في أكياس وتشحن فوق ظهور الجمال وتنقل الى مخزن الحبوب الذي يكون عادة مطمورا تحت الأرض. ويجمع كذلك التبن المهشم اربا صغيرة بعناء ويحمله الجمل وهو الحيوان المفيد الى مكان حفظه. وبهذه الصفة ينتهي في ظرف عشرة أيام كامل موسم الحصاد والدّراس. وقد اتضحت لي جليّا، وأنا أشاهد هذا النشاط، الاصحاحات التالية من الكتاب المقدس : 1 : 3 وميخائيل 4 : 13 وهوسايا 10 : 11 الخ. ولما أخبرت العملة بالطريقة المستعملة في أروبا لدراس الحبوب استغربوا كثيرا وقالوا : لا بد أن الأروبيين لا يزرعون الاّ ما قل من الحبوب ما داموا يتوخّون طريقة عسيرة في الدّراس.

يوجد من اليهود في صفاقس نحو مائتي أسرة تجمع حوالي ألفي نسمة . وهم يسكنون ربضا مستقلا بذاته ينفصل عن المدينة نفسها بسوره ذي الأبواب. وهم يشتغلون على غرار غيرهم من يهود سواحل شمالي افريقيا بالصناعة والتجارة. وبرسمهم بيعتان كبيرتان لإقامة الصلاة وتعليم الأطفال ودراسة التلمود. ولم ألاق هنا من اليهود الأثرياء الاّ عددا قليلا فمعظمهم لا يكسب من الرزق الاّ ما يفي بالحاجة ويسد الرمق. ونتيجة للحرب الأهلية الناشبة في طرابلس منذ ما يزيد على ثلاث سنين، فّرت الى هنا ما لا يقل عن ثمانين أسرة يهودية. وتؤدي المجموعة اليهودية الى سيّد القطر ضريبة سنوية لا تتجاوز ثمانين ريالا. ومن غريب الأمور أن يهود الدول الثلاث، تونس وطرابلس والجزائر، يختلفون بصفة متميزة من حيث غطاء الرأس. فأما يهودي الجزائر فانه يلفّ لحافا من الحرير الأسود حول جبينه ويحمل يهودي تونس عمامة سوداء، في حين يتعمم يهودي طرابلس بعمامة من منسوج الحرير الملون. وتحمل نساء يهودي طرابلس الأصليين حول الجبين عصابة

تتدلّى منها قطع من الذهب يرتبط عددها وحجمها بثروة الزوج، وكثيرا ما تحمل المرأة بهذه الصفة على جبينها مجمل ثروة زوجها.

ولم يكن هناك نصارى قبل مضي عشر سنوات وكانت أول عائلة مسيحية استقرت هنا في صفاقس عائلة العون القنصلي الفرنسي والتحقت بها بعد فترة وجيزة عائلة [نائب] القنصل السرديني كما أنه يوجد منذ أربعة أعوام [نائب] قنصل أنكليزي. وفي نفس الفترة تقريبا قدم بضعة تجار مسيحيين. وعندما اندلعت الثورة في طرابلس التجأت الى هنا أيضا عدة عائلات، لا شك أنها ستستقر على الدوام. الاّ انه يوجد عدد غفير من المالطيين الذين ينتشرون في كل مكان انتشار الأعشاب الطفيلية ويجلبون معهم العار والفضيحة لاسم المسيح. ويتعيّن على كل النصارى السكن في حيّ اليهود ولئن سمح للعون الأنكليزي بالسكن داخل أسوار المدينة نفسها فما ذلك الاّ من باب التبجيل وبصفة استثنائية. وقد تمكن الأروبيون المقيمون هنا من الاثراء في ظرف فترة وجيزة. وأعرف منهم من حلّ بالمكان قبل أربعة أعوام دون أدنى ريال في جيبه، وها هم الآن بوسعهم أن يستقروا للعيش في أية مدينة أروبية بما توفر لديهم من رؤوس أموال. وعلى كل حال أبدى مسيحيو المكان اهتماما بالغا بمهمّتي التبشيرية وآزروني على جميع المستويات بالرغم من انتمائهم كلهم، عدا واحد فقط، الى الكنيسة الكاثوليكية. وقد رحبوا بأسفار الانجيل بكل شغف.

ويعتبر مسلمو صفاقس أهل علم وأصحاب معرفة وقد أجريت مع العديد منهم نقاشات. كما أنهم تحصلوا من لدني على نصيب لا يستهان به من الكتب المكتوبة بالعربية. الاّ أني لم ألمس من علمهم الواسع الاّ شيئا قليلا. فقد قال لي أحد علمائهم وهو يعد من المتبحّرين في العلم، لمّا تحاورنا في علوم الفلك : « هناك سبع سماوات بعضها فوق بعض ولكل سماء شمسها وهذه الشموس هي التي يحسبها المسيحيون خطأ الأفلاك السبعة. ويتبوأ السماء السابعة كرسي الله وفوق الكرسي يوجد السرير [كذا] ». وقد أضاف الرأي الأخير تعقيبا على قولي بأنه يوجد أحد عشر كوكبا.

أخذت درجة الحرارة ترتفع يوما بعد يوم وقيل لي انها سوف تشتدّ حدّتها كلّما توغّلت نحو الشرق. وقد بلغت الحرارة اليوم 28 درجة حسب مقياس « رومير ». لكن حذو البحر يكتسي المناخ بعض الاعتدال. وأخطر من الحرّ وأشد منه تلك العقارب التي تتخذ من هذه البقاع موطنها الحقيقي. فبالأمس بينما كان صبيّ يلعب في التراب ببستان قريب اذ بعقرب تلدغه وما هي الاّ ساعات حتى وافاه الأجل. وتبلغ خطورة العقارب ذروتها في شهري جويلية وأوت. غير أنها لا تؤذي النائم طالما ظلّ جامدا وأمسك عن الحركة، واذا تحرك فانها تلسعه. وأفضل وسائل العلاج في هذه الحالة فصد موقع الاصابة حالا بواسطة موسى الحلاقة والمواظبة على دلكه طيلة ساعات بالزيت. ويقال ان الآلام حينئذ لا تدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة ثم يزول الخطر. وأنا متيقن من أن السيد الربّ الذي اكتنفني برعايته الى حد هذا المكان لن يحيل عني كفّ رحمته فنحن حيثما كنا، في افريقيا أو في أروبا على حد سواء، نظل دوما في كنف رحمته !

X

قابس في 20 جويلية 1835

بين صفاقس وإقليم قابس الذي يشتمل على ثلاثة وثلاثين قرية مسافة تناهز بحرا مائة ميل. ونظرا الى خطورة الطريق البري، لأن بدوه نصف متوحشين يسيطرون على المسالك ويجعلونها غير آمنة، ونظرا الى قلة حركة السفن، فقد اكتريت مركبا يملكه ويقوده مالطي. واتفقنا على أن ينقلني هو ورجاله الثلاثة الى اقليم قابس. وفي مساء الأحد، الثاني عشر من الشهر الجاري، هبّت ريح ملائمة أبى الربان إلّا أن يستغلها فأشار بالرحيل فامتطيت باسم الذي يحكم الأمواج ظهر المركب الضيق. ونشر الشراع وما هي الّا دقائق معدودة حتى تركنا صفاقس بعيدا خلفنا. وفي الحين انتابني كالمعتاد دوار البحر. وعندما حلّ الليل اتضح أن صاحبنا قائد المركب لم يسبق له بتاتا أن قام بمثل هذه الرحلة فكان يجهل الطريق تماما، ممّا حدا به الى الارساء مكانه في انتظار طلوع النهار. وساءني هذا الوضع الى أقصى حدود الاستياء لأني توقعت أن السفرة ستكون طويلة وشاقة لا سيّما وأني اتّكلت على رائس غير حاذق لا عهد له البتة بالطريق المؤدية الى قابس طوال ساحل البحر، حيث بعض الصخور الناتئة والأرصفة الرملية التي يتعين تفاديها بمهارة. وما كان بيدي سوى الاستسلام الى مشيئة الرب، ما دام سلطان الكذب قد طغى بصفة خاصة على عباد هذه البقاع. فقبيل اقلاعنا من صفاقس تظاهر هذا الرّبان بأنه يعرف أدنى شبر من الساحل المذكور خير معرفة ولولا ذلك لما اطمأننت اليه.

واستسلمت للأمر المقضي وصبرت الصبر كله في انتظار الصباح، ولما طلع واصلنا سفرنا. لكن ما كنا نسير نحو ساعة حتى أخذت الرياح تنفخ بشيء من العنف فادعى الرائس الجبان أن مركبه غير قادر على مواجهة تلاطم الأمواج وعرّج صوب البّر وأرسى وجعل يدخن غليونه في أتم راحة بال. ومكثنا على هذا الحال حتى العشية ومع انسدال الليل أرسينا من جديد.وهكذا

لم نصل ضفاف قابس إلّا في اليوم الثالث بعد أن ذقت الويل خلال هذه السفرة القصيرة المدى، من جراء دوّار البحر وبسبب حرارة الشمس اللاذعة التي يكون مفعولها على البحر الساكن أشد منه على الأرض اليابسة. ولكنني جوزيت على شقائي بأن فوجئت بمنظر واحات النخيل الفتّان، التي تزين الضفاف وتترامى بعيدا داخل البلاد. وليست هذه أول مرة أشاهد فيها نخلا ولكنني لم أشاهد قبل ذلك قط غابات منه في نفس الكثرة ونفس النّضارة الخلابة. ولا ينضج ثمر النخل إلّا في شهر أكتوبر. وعند الظهر ولج بنا المركب نهر قابس الذي يصب في البحر. وهو ضيّق قليل العمق لا تصله لأجل ذلك السفن الكبيرة، وحتى الصغيرة منها لا تتوغل فيه إلّا ساعات المدّ. ويشكل ولوج هذا المجرى خطورة بسبب الرصيف الرملي الذي يفصل بينه وبين البحر والذي لا يبرز للعيان إلّا ساعات الجزر. وكم مرّة تاهت سفن في هذا الرصيف الرملي فساخت فيه. وما ان يبدأ المدّ حتى يشتد ارتطام الأمواج بالشاطىء فتتطلّب قيادة المركب للدخول في النهر والخروج منه مهارة فائقة وعناء كبيرا وخبرة.

وبعد أن أرست بنا السفينة نزلت ومعي نوتّي ليرافقني الى أهمّ قرى المكان وتدعى « المنزل » وتقع على قدر نصف ساعة من النهر المذكور. وسار بنا الطريق صاعدا صعودا هيّنا وبعد فترة وجيزة لاحت أمامنا قرية « المنزل » في حين بانت يسارنا قرية أخرى تسمى « جارة ». ومنطقة قابس بأسرها منطقة جبلية وتعتبر قرية « المنزل » أهم قراها ومركزها الرئيسي ومن ثمّ حرصت قبل مجيئي على التزود برسائل توصية تفيدني في هذا المكان حيث لم يكن يقيم أي مسيحي. فمن أربعة أعوام فقط كان يعدّ من باب التهور أن يحل هنا نصراني دون حراسة هامة. بيد أن المالطيين تطرّقوا الى هذه الجهة كغيرها أيضا وصاروا يقبلون من حين الى حين لتعاطي التجارة. وفي هذه الفترة بالذات يوجد هنا رجل مالطي غريب الأطوار يدعى السيد « ف... »، استقر منذ أربعة أشهر، وإليه جئت بخطابات توصية. كانت الشمس فوقنا ترسل أحرّ وهجها وقبل أن أبلغ مأربي كنت أتصبّب عرقا

وثيابي مبتلة وكأنها غمست في الماء. وعلى هذه الحال أدركت قرية « المنزل » وفي الحين سألت عن السيد « ف... » فاقتادني بعضهم اليه فاذا به رويجل صغير البنية في الخمسين من عمره تقريبا يتحلى بشنب طويل ولحية وعلى أنفه نظارة، يرتدي ثيابا جمعت بين الافرنجي والتركي. وكان جالسا تحت سقيفة أمام الدار، منهمكا في المطالعة. انه السيد « ف... ». وناولته الخطابات الموجهة اليه فقرأها وأعرب عن ترحيبه بي ثم قال لي : « سيدي، اننا نعيش هنا عيشة الفلاسفة[17]، فاذا تجاوبتم مع فلسفتي فانكم تحلون عندي حلول الضيف المبجل المكرم. اجلسوا هنا حتى آمر بتهيئة غرفة لكم واثر ذلك سأقدمكم الى عائلتي ». وفعلت ما طلب مني ونادى السيد « ف... »: «اسكندر !» فظهر صبيّ مولّد همس السيد « ف... » في اذنه كلمات وصرفه. عند ذلك دنا مني فيلسوفنا وجلسنا جنبا الى جنب وفي قليل من الوقت استمعت الى كامل قصة حياته، وهي التالية : بعد ولادته في مالطا، تربىّ السيد « ف... » تربية لائقة وفي سنّ الثامنة عشرة أصبح كاتبا مساعدا في الجيش واحتفظ بهذا المنصب طيلة اثنتي عشرة سنة، أقيل عقبها ولم أخبر لأي سبب. ثم سافر عبر كامل أوروبا حتى وصل القسطنطينية ومنها تحول الى حلب فبغداد ثم الاسكندرية بمصر حيث استقر في آخر المطاف. وهناك جمع في غضون اثنتي عشرة سنة بفضل مضاربات تجارية مربحة ثروة لا بأس بها فذهب بها الى طرابلس حيث أقدم على مضاربة غير صائبة أفقدته ثروته ولما اندلعت الثورة هاجر صحبة عدة مسيحيين آخرين الى صفاقس

حيث دهاه سوء الطالع فأصيب بكسر في رجله. عندئذ شعر بالملل من كثرة الترحال وحنّ الى الاستقرار في ركن من أركان المعمورة، يقضي فيه على غرار الفلاسفة ما تبقى له من العمر. ونصحه بعضهم بقابس فعمل بالنصيحة. وحتى لا يظل عاطلا اعتزم امتهان الطب وأحسن المهنة الى حدّ أن العرب صاروا يفدون عليه جموعا للمداواة. ويبدو أنه لم يمت بعد أي مريض من مرضاه على يديه.

(17) عبارة واردة باللغة الفرنسية .

وعاد الصبي المولّد وقال ان كل شيء على أحسن ما يرام. فنهض السيد «ف...» ورجاني أن أتبعه. وفتح الباب المؤدي الى فناء الدار ومشينا الى أن أشار السيد «ف...» بالأصبع الى غرفة حالكة الظلام لا نوافذ لها ولا باب يغلق وليس لها شيء عدا جدرانها الأربعة، فكانت تلك هي غرفتي. «على نحو الفلاسفة، يا سيدي، على نحو الفلاسفة كما ترون». هكذا قال السيد «ف...» ثم أضاف قائلا : «تعالوا الآن لرؤية أسرتي». وسرت وراءه وهو يعرج، ثم قال : «أترون هذه العنز؟ انها هدية من أحد العرب شفيته من داء السلّ. انها تزودني بلبن القهوة. وتلك الشاة هناك؟ انها هدية من امرأة اعترافا منها بالجميل بعد أن أنقذتها من الموت. وما قولكم في هذين الخنزيرين البريين الصغيرين؟ لقد جيء لي بهما من الجبل كعربون شكر على براعة طبية فائقة حققتها. وتلك الدجاجات الرائعة؟ انها ثمن خدمات قدّمتها، مثلها مثل تلك الحمامات. آه! لا بد أن تروا عضوا مفضلا آخر من أعضاء أسرتي، أعني غرابي. يا له من حيوان مسكين! لقد دهاه ما دهاني من مكروه فأصيب بكسر في ساقه. إلاّ أنني عالجته خير علاج. لكن مع الأسف ها نحن كلانا نعرج كما ترون. هذه هي، سيدي، أسرتي التي أعيش معها باستمرار في هناء وسلام. لكن لا أحد يسبب لي تعبا مثل اسكندر الذي هو ابني من امرأة زنجية».

وعند هذا الحدّ أنهى السيد «ف...» قصة عائلته. وتركني بعد ذلك أطّلع على أرجاء المنزل. ولم يسبق لي أن رأيت مزيجا عجيبا من دلائل البؤس والفاقة المدقعة ومن مظاهر الثراء البائد كالذي تجلّى لي في هذا المنزل. هنا فرشت بقايا زربية من أثمن الزرابي الفارسية، بجانب كرسي مهشّم عديم المسند. علق هناك على الحائط القذر شيء كان في سالف الأيام مرآة ذات اطار مذهّب. ولا بد اليوم من خيال واسع لادراك هذه الوظيفة الفائتة. وثمة صحون وقوارير وكؤوس وغير ذلك، اختلطت كلها بعضها ببعض بصفة عشوائية. وبعد ذلك أرسلت في طلب أمتعتي من السفينة ورتبت شؤوني كما سمحت به الحال.

ولمّا علم «شيخ» المكان بقدومي أرسل في الحين طبقا من «الكسكسي» معلنا أنه سيلحق ليشاركنا الأكل. وبالفعل أقبل بعد هنيهة وجلسنا حول مائدة الطعام. غير أن «الشيخ» طفق يأكل على عادة أهل البلاد بالأصابع ويصول ويجول بيده في كامل الطبق فلم ألبث أن أحجمت عن الأكل. وبعد الغذاء خرجت للفرجة على المكان. ويبلغ عدد سكان «المنزل» من العرب نحو خمسة آلاف ساكن. إلّا أن ما يكتنف هذا الموقع من قاذورات وحشرات ضارة ووسخ يتحدى كل التصورات. ولا يعتبر هؤلاء السكان، كغيرهم من أهالي منطقة قابس عموما، من المسلمين الحضّر بل من الأعراب ولو أنهم لا يسكنون الخيام بل ضربا من الديار، هي أقرب إلى أفنية، ويقال لها «حوش» والفناء منها عبارة عن ساحة يحيط بها جدار ولها باب. وفي هذا الفضاء توجد الخيول والجمال والبقر والمعز والطيور الخ. وفي ركن من أركانه يوضع السرير تحت سقف من سعف النخل تستره الستائر. وفي ركن آخر يوجد المطبخ، وفي موضع آخر غرفتان أو ثلاث غرف من طين وحجارة، عديمة النوافذ.

ويمتاز رجال قابس بحسن المظهر والقدّ الممشوق والأعين السود والبنية القوية والهيئة المهيبة. وهم فرسان مهرة ورماة بارعون، شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب الجبلية لكنهم كسالى يستنكفون من العمل. وتقوم النساء بجميع شؤون المنزل وأعمال الحقل، ما عدا الحرث. ويظهر النساء هنا دون لحاف ويبدين ولعا بالغا بالحلي فتراهنّ يتحلّين بأقراط مفرطة في كبر الحجم وبأطواق للرقبة والجبين وبأسورة وخلاخيل مصنوعة من ذهب أو فضة أو نحاس. ويتوازى لباس الفقيرات منهن والغنيات من حيث الطراز والهيئة. وهو يتمثل في ثوب من القطن يصل الى الكعبين، ينحسر في مستوى الخاصرتين ثم يتجزّأ من هذا المستوى فصاعدا الى جزئين أحدهما يستر الصدر والآخر الظهر ويقفل عند الرقبة بواسطة ابزيم من فضة وهكذا يظل جانبا الجسم دوما عاريين. ثم انهن يوشّمن وجوههن لا سيما من الذقن الى الشفتين.

إن كميات الأحجار الضخمة المنحوتة والأعمدة المرمريّة الموجودة قرب «المنزل» لدليل قاطع على أنه كانت هناك في الجوار مدينة كبيرة قائمة الذات. إلّا أنني لم أتمكن من العثور على أية كتابة حجرية. ومن المحتمل أن المستعمرة الرومانية العتيقة كانت تبعد عن هذا المكان مسافة نصف ساعة. كما أني اكتشفت ثلاثة صهاريج أحدهـا في حالة جيدة من الصيانة والحفظ. ويتداول العرب خرافات كثيرة في شأن عظمة هذه المدينة البائدة. وحسب رواياتهم فانها كانت تشتمل على خمسين ساحة سوق تجمع كل واحدة منهما خمسمائة دكان. ويوجد اليوم قرب هذه الآثار قرية صغيرة تدعى «سيدي [أبو] لبابة»، يحجر دخولها على اليهود والنصارى على حدّ سواء ذلك لأنها تؤوي رفات ولي صالح عظيم الشأن، يزعم أنه كان حلّاق [الرسول] محمد الخاص. ومن المحتمل أن تربة هذه الناحية خصبة، إلّا أن الأهالي الكسالى لا يوفون الغرس حقه، لذا تكاد مواد المعيشة تكون منعدمة، خصوصا بالنسبة إلى الأوروبي الذي يتضايق كثيرا ان أبى أن يحذو حذو العرب فيقتنع بالخبز والزيت. ومن جهة أخرى فإن واحات النخيل على غاية من الفتنة والجمال وكم من مرة خيّل إليّ وأنا أتجوّل وسطها أني في حلم أو عرضة للأوهام.

ان العربي أصيل المكان يقضي طوال النهار في الظل يستمتع بالراحة أو مستسلما للنوم. ولئن توفرت لدى الحضّر من المسلمين امكانيات تقصير الوقت كالتدخين ولعب «الدامة» وما شابه ذلك والجلوس في المقاهي أو دكاكين الحلاقين للثرثرة أو الذهاب الى الحمامات، فإن الأعرابي لا يعرف من كل ذلك شيئا. وهو لا ينتزع من راحته إلّا اذا أعلن عن حالة حرب أو اذا انتظمت عملية سلب ونهب. حينذاك تراه يسارع بتجهيز حصانه وتقلّد سلاحه وفي لحظة يكون على أتمّ الاستعداد لخوض غمار المعركة وعندها يشعر الأعرابي بأنه قد ردّ الى عنصره والى بيئته الحقيقية. وليست مثل هذه المناسبات بالقليلة لأن مختلف قبائل الجهة تكاد تكون في حرب مستمرة مع بعضها. ولئن توقفت حرب القبائل فليس من النادر أن ينشب العراك بين القرية والأخرى. وفي الوقت الراهن بالذات، وأنا مقيم بالمكان، فإن المعركة

قائمة بين «المنزل» و«جارة». ذلك أن «جارة» أجرت قناة ماء جديدة فعمدت قرية «المنزل» الى صدّها وفي الحين التجأ القوم الى السلاح. وفي احدى الليالي قامت «جارة» بغارة على «المنزل» فسالت الدماء وانسحب المهاجمون ومنذ ذلك الحين خمدت المعركة ولا أحد يدري كم ستدوم الهدنة(18).

تعيش بين السكان العرب مائة وخمسون أسرة من اليهود، يعانون فقرا مدقعا ويتعاطون شتى الصناعات. وهنا رأيت لأول مرة حدّادا يهوديا. وترتدي نساء اليهود ما ترتديه نساء العرب، إلّا أنهن لا يوشمن وجوههن. وأديت الزيارة للحبرين وأجريت معهما حديثا مباركا. ولم أجلب معي سوى ستين نسخة من الانجيل وبالتالي لم تلبّ كل الطلبات. ولم يسبق لهؤلاء المساكين أن سمعوا شيئا عن دين المسيح وتقبّل كثيرهم «العهد الجديد» بالشكر والترحاب. وكان لي مع العرب أيضا حديث حول الحقيقة التي في يسوع المسيح ووزعت نسخا من الانجيل العربية القليلة التي جئت بها ولم أستبق منها شيئا.

---

(18) يروي الرحالة الألماني هاينريش بارت الذي زار قابس في مارس 1846 أحداثا من هذا القبيل (انظر : « سبع رسائل مخطوطة لنهاينريش بارت » ، قرطاج (بيت الحكمة) 1987 ، ص 51 وما تلاها) .

XI

قابس في 26 جويلية 1835

إن هواء هذا المكان غير صحي بتاتا والماء فيه رديء للغاية . ونظرا لعدم وجود منازل بأتم معنى الكلمة فإنه لا وجود كذلك لصهاريج المياه. وتقع البئر الوحيدة على بعد نصف ميل من قرية «المنزل» لكن ماءها ساخن. وفي الصبح والعشية تقصدها النساء والصبايا اليهوديات والعربيات على السواء لجلب الماء وعليهن كامل حليهن. وللموسرات منهن حمير لحمل القلل. ويتعين ترك هذا الماء بضع ساعات حتى يبرد ويصير قابلا للشرب وحتى ذلك الحين فهو يكاد يكون غير مستساغ بالنسبة الى من لم يألفه. إلّا أن المرء يجد في رحيق النّخل أو «اللاقمي» خير بديل. وللحصول عليه تحدث في أعلى الشجرة حزّة يشد من تحتها اناء ينسكب فيه الرحيق. ويكون هذا الرحيق فور انزاله من أعلى النخلة في الصباح قبيل الشروق أو في المساء بعد الغروب شرابا لذيذا منعشا، فيه فضلا عن ذلك، للصحة نفع كبير. لكن يكفي أن يترك بضع ساعات حتى يصير مزّا لحد أني لم أستسغه. بيد أن العرب يفضلون «اللاقمي» بهذه الصفة لأنه يسكرهم.

وفي «جارة» التي تفصلها عن «المنزل» مسافة نصف ميل يقيم «الخليفة» أو ولّي أمر اقليم قابس. وقد تحولت إلى هذا المكان رفقة السيد الحكيم والفيلسوف «ف...» على ظهر حمار. وفي منتصف المسافة يوجد ما شابه الحصن، يؤوي حامية من الجند الأتراك، وقد أقيم بغية الحد من الحروب الدامية بين القريتين، لكن قلّما يتحقق هذا المرام. واستقبلني «الخليفة»، سيدي عمر في فناء محكمته بالحفاوة والترحاب وحباني برعايته وأهداني بطيخة وشيئا من البصل من حديقته فتقبلتها بالشكر. وبناء على رغبتي في الفرجة على القرية وتحسبا لما قد ينجر عن ذلك من خطر ان تجرأت على التجوال بمفردي عيّن لي «الخليفة» بضعة من رجاله لمرافقتي. ولكن هذا لم يمنع من أن يتبعني قطيع من العرب أخذوا يدقّقون فيّ النظر لإشباع فضولهم من

النصراني. وتقيم في هذا المكان أربعون أسرة من اليهود لا يقلون عن يهود «المنزل» فقرا. وما زالت توجد هنا أيضا عدة أعمدة مرمرية وكثير من الأحجار المنحوتة الكبيرة، كلها من مخلفات المدينة العتيقة. وبعد أن اطلعت على الموقع ودّعت «الخليفة» الذي أمعن في الاحسان اليّ وأبى إلاّ أن يأمر بمرافقتي الى «المنزل»، علما بأن السيد «ف...» لم يلبث أن عاد أدراجه على حماره فور وصولنا. وما إن عدت الى محل سكناي حتى بعث «شيخ» قرية «المنزل»، وقد بلغه ما حظيت به من حسن استقبال من قبل الخليفة، في طلبي، راجيا مني القدوم الى بيته ليكرمني بكأس «لاقمي». وذهبت اليه فوجدت امرأته أيضا بصحبته. وكانت ترفل في لباس فاخر رفيع الذوق. ولئن لم يختلف رداؤها عن رداء عامة النساء من حيث الطراز فانه امتاز بقماشه الثمين الموشّى بالذهب. وازدان رأسها بعمامة سوداء وجبينها بشريط تحلّى بأربعة صفوف من قطع الذهب والجوهر. أما المرأة نفسها فلو كانت في أروبا لعدّت من الحسناوات. وبعد أن شربت «اللاقمي» وتجاذبنا أطراف الحديث، فكر «الشيخ» على عادة العرب أمثاله، في أنه من حقّه أن يطالب بهدية جزاء كرمه. وأبدى أولا اعجابا مفرطا بساعتي ثم أشاد بمسدسي وأخيرا شدّ سيفي كل انتباهه. بيد أني تجاهلت خفايا مديحه ولم أبال برغباته.

قضيت أيامي بـ «المنزل» في هناء نسبي لكن لياليّ كانت فظيعة. فما ان استلقيت على حشيتي أول ليلة حتى انقضّ عليّ جيش من الحشرات واحتفى بقدومي بأشنع الصّفات. وبما أني تعهدت بأن انتهج هنا منهج الفلاسفة فقد خطر لي أن أمارس استعداداتي الفلسفية وقلت في نفسي : «لعلي استطيع أن آلف هذه الحشرات، فلأتركها تفعل ما تشاء». ولكن فلسفتي لم تصمد طويلا. فبحثت عن كرسي نصبته أمام الباب وجلست فوقه، وفي هذه الوضعية قضيت ثلاث ليالي بأسرها في حالة يرثى لها، وفرحت بالخلاص لما حان موعد رحيلي. وشكرت السيد «ف...» على مروءته وتوجهت صوب مركب صغير على ملك مالطي، كان في انتظاري منذ أربعة أيام. ومكثنا طوال الليل على متن القارب في النهر نترقب النهار والجزر [كذا] معه. ولكنني في الأثناء التقطت بعض التصريحات الصادرة عن قائد المركب ورجاله أدخلت فيّ

الشكوك في شأنهم وأفقدتني الثقة في هؤلاء الخبثاء. ولحسن الحظ كانت أربعة مراكب أخرى على ملك مسلمين راسية في النهر. وما إن طلع النهار حتى تركت سفينتي الأولى واتفقت مع صاحب سفينة مسلم على أن يأخذني الى جربة. عند ذلك كلفت بعضهم بإنزال أمتعتي ودفعت للمالطي أجره وعدت الى «المنزل» والى مقامي الفلسفي، بينما مكث خادمي بجنب متاعي. وفي المساء عدت الى خادمي وكلفت رجالا بشحن أمتعتي فوق السفينة ثم ركبنا بدورنا. وافترشت بساطي على ظهر السفينة ونمت على بركة الربّ. واستفقت بعد بضع ساعات فاذا بالسماء تتلألأ نجومها في روعة وبهاء. ونهضت لأمتع النظر بعظمة الإله المتجلية في قبّة السماء ثم عدت الى مكاني فما راعني إلاّ والبساط قد سرق. وكنت مقتنعا من براءة طاقم السفينة ومتيقنا من أن اللص لم يكن غير حارس من حراس الشاطىء، له كوخ على مقربة من مرسانا، ناهيك وأننا اكتشفنا آثار خطوات السارق واقتفيناها حتى هذا الكوخ.

وقامت ريح معاكسة واستعصت علينا مبارحة النهر فما كان عليّ إلاّ أن عدت أدراجي بمتاعي الى صاحبي الفيلسوف وفي نيتي السفر الى جربة عن طريق البر. ولما وصلت استشرت «الشيخ» في ذلك لكنه أكد لي أن السفر من هنا الى جربة برّا خطير جدّا وحتى طاقم حراسة بأربعين رجلا غير كاف لوقايتي من أخطاره. وصرت في حيرة كبيرة لأني كنت أرنو بكل جوارحي الى مغادرة هذا المكان المنكر عندي المضرّ بصحتي ولكن ما كان بيدي سوى الصبر والتريّث. وكان قائد احدى قبائل العرب وصل بالأمس الى هنا صحبة خمسة عشر من رجاله قادمين من تونس فعرض عليّ ايصالي سالما الى جربة. لكن قبل أن أطمئن الى هذا الشخص فضلت أن أستمع الى رأي «خليفة» «جاره». وقصدته وشكوت اليه حيرتي، كما أخبرته بسرقة بساطي فرد عليّ بما يلي :

«أما فيما يتعلق بسفرك فأقول لك انه لا يمكنك الذهاب الى جربة عن طريق البرّ. فالعرب الذين عرضوا عليك ايصالك سالما سيكونون أول من

يقتلك ان أنت استثقتهم. فليكن في علمك أن هؤلاء الناس لا يتورّعون عن قتل نفس بشرية من أجل بصلة لا غير. لذا ترقب في صبر حتى ينعكس أتجاه الريح ثم سافر في البحر في رعاية الله. أما فيما يتعلق ببساطك فلنعالج الأمر حالا». وعلى هذا أرسل في طلب رئيس حراس الشاطىء ثم أضاف قائلا : «خذ لك مكانا بجانبي وانتظر حتى يأتي المعني». وما إن جلست حتى أعلن عن عدّة مداولات قضائية وشرع النظر فيها.

كان «الخليفة» جالسا على عرش مرتفع في بهو كبير وكان كاتبه الأول والأخير يهوديا، رأيته يتدخل في جميع القضايا المطروحة وكان «الخليفة» يستشيره. وامتدت على طول بهو المحكمة يمينا ويسارا مصطبتان بنيتا من حجر، جلس عليهما أحباب «الخليفة» ومعارفه بالاضافة الى مواطني المكان الذين أحبوا متابعة المداولات، مع العلم أنه يحجر على أي كان دخول المحكمة بسلاح. وكان أعوان «الخليفة» — وهم كذلك بدون سلاح — في حركة متواصلة لتنفيذ أوامر سيدهم. ويدخل الشاكي البهو ويجثو على ركبتيه على بعد ثلاث أو أربع خطوات من العرش ويبسط في هذه الوضعية أمره. وتكون ديباجة الشكاية دوما كالتالي :

«الله يحفظك أيها الخليفة ويبارك رأسك ورأس أبنائك ويضيف الى ما كتب لك من العمر ثلاثين سنة أخرى ويحيطك برحمته». ويجيب «الخليفة» : بارك الله فيك. ما حاجتك؟».

— لقد سرق لي جمل في المرعى.

— متى؟

— عشية أمس، فعندما أردت العودة به وجدته قد اختفى.

— هل كان جملك يرعى بمفرده أم كانت معه جِمال أخرى؟

— كانت جمال علي بن أحمد وجمال مصطفى بن حسن في نفس المكان.

— ولم يفتقد أحدهما جماله؟

— نعم، كلاهما جماله في الدار.

وهنا نادى «الخليفة» :

— حمودة! يا حمودة! اذهب بسرعة وائتني بعلي بن أحمد ومصطفى بن حسن.

ونفّذ الأمر وما هي إلّا هنيهة حتى دخلا واعتلى «الخليفة» قليلا وقال :

«انكما سرقتما جمل مسعود فاتيا به في الحال وان لم يتمّ ذلك في غضون ساعتين من الزمن فاني أحكم عليكما بالجلد خمسمائة على باطن القدم. وفي انتظار ذلك ليلق بهذين الوغدين في السجن». وفي الحين اقتيدا الى السجن. ولم يمض زمن طويل حتى دخل شخص وقال انه تم العثور على الجمل المفقود وانه في انتظار صاحبه في منزل علي بن أحمد.

ومباشرة اثر ذلك وقع النظر في القضية التالية :

تسلم جمّالان من أحد تجار «المنزل» بضاعة لنقلها الى «الجريد» وأعطيا أجرهما وقدره 130 ريالا ابان شحن البضاعة. هذا ما قاله التاجر. أما الجمّالان فقد ادعيا أنهما لم يحصلا إلّا على نصف الأجر، إلّا أنه لم يكن هناك أي شاهد. وأطلع التاجر «الخليفة» على دفتره حيث سجّل القيمة المذكورة. وأحدث الطرفان ضجة عارمة بينما تقيّد «الخليفة» بوقار يحسده عليه رئيس غرفة «اللوردات» الانكليزية. ولما كفّ الطرفان عن الصياح توّجه «الخليفة» إلى أصغر الجمالين سنّا قائلا :

«تعال اقترب!» ثم خاطب الجمّال الثاني بقوله : «برأسك لا تفتح فمك حتى أسألك». وأردف وهو يخاطب أصغر الجمالين : «يا بني، أنقلت أنت وصاحبك البضاعة المذكورة الى «الجريد»؟

— نعم سيدي.

— كم كان في جيبك من المال عندما فارقت «المنزل»؟

— ولا فلس واحد، ما عدا ما دفع لي التاجر.

— كان معك اذن نصف الأجر لصالحك؟

— نعم سيدي.

— وعند عودتكما اقتسمتما ما تبقى من النقود، وبعد خصم مصاريف السفر كم كان نصيبك الذي حصلت عليه؟

ـ 25 ريالا، يا سيدي.
ـ هكذا، 25 ريالا، حسنا، حسنا جدا.

قل لي الآن، كم استغرقت رحلتك؟
ـ 27 يوما، يا سيدي.
ـ أليس صحيحا أنك قضيت الليلة الأولى في المكان كذا؟
ـ أجل.
ـ وكان لديك جملان وحمار أدّيت لصاحب الفندق مبيتها؟
ـ أجل، ستّة «خرّوبات».
ـ وأنت بكم أكلت؟
ـ أكلت رغيف خبز وشيئا من الزّيت وزيتونيا وذلك بأربع «خروّبات».
ـ لكن دوابك أيضا كانت في حاجة الى علف، فكيف حصلت عليه؟
ـ اشتريت بكذا تبنا وبكذا كلأ مجفّفا.
ـ حسنا، كل هذا يساوي كذا. قل لي الآن، من المكان كذا ذهبت الى المكان كذا، أما تناولت طعاما؟

واستعرض «الخليفة» كامل أطوار الرحلة ذهابا وايابا وحسب كل ما صرف من «خرّوبات» واذا بالمجموع يساوي 130 ريالا. وهكذا وبدقة رياضية اتضح أن التاجر كان على حقّ والجمّالين على باطل وبالتالي صرفا بتوبيخ لاذع.

وفي الأثناء وصل رئيس حراس الشاطىء وهو شيخ زنجي طيب القلب. فقال له «الخليفة» :

ـ يا سليم اني أعرفك خالصا كالذهب ويمكنني أن آتمنك على كل كنوز الدنيا ولكن ليس كل الناس مثلك. لقد سرق لهذا النصراني البارحة بساط من السفينة. ان النصارى يقولون الحقّ والمسلمين لا يفعلون ذلك في كثير الأحيان ولو أنه كان مسلما لزعم أنه سرقت له خمسمائة ريال وكان من واجبي بوصفي «خليفة» أن أعوّض له الخسارة. يا سليم، عليك الآن أن

تجتهد في البحث عن البساط الى أن تعثر عليه وإلّا فعليكم معشر الحراس أن تدفعوا ثمنه.
ـ الله يحفظك، الله يطيل عمرك أيها الخليفة أين لي أن أجد هذا البساط؟ والنبي لا أدري عنه شيئا! نحن مجرّد حراس للشاطىء وعددنا قليل والعرب كما تعلم لصوص كبار، ثم ان السفينة كانت قد سارت في النهر شوطا وابتعدت عن منطقتنا، وبالتالي أيحقّ أيها الخليفة أن نتحمل مسؤولية السرقة؟
ـ ماذا تسمّون، أنتم الذين أقمتم أكواخكم عند مصبّ النهر، ماذا يقال لكم؟
ـ حراسا.
ـ إذن فعليكم أن تحرسوا. وبهذا تكون قد صرّحت بحكمك بنفسك. أنكم تكافؤون بوصفكم حراسا فعليكم أن تحرسوا. هذا هو القرار، فتّش عن البساط ولا يهمني أن أعرف من استولى عليه، أطلب منك فقط أن تأتيني به.

ثم استأذنت بالانصراف وقلت للخليفة انه إذا تمّ العثور على البساط فيا حبّذا وإلّا فإني أرفض أخذ مال هؤلاء الناس المساكين.

واضطرني الحال أن أمضي أربع ليال مضنية إضافية في «المنزل» لأن الريح استمرت معاكسة. وبما أني صرت معروفا فقد قضّيت أيامي بين اليهود والمسلمين أكرز لهم بكلمة الخلاص. وكم تمنيت أن أزور سكان المناطق الجبلية في الداخل، المسلمين منهم واليهود، الذين يسكنون مساكن لا فوق الأرض بل تحتها. وحتى في مطماطة التي تبعد من هنا مقدار يوم سفر فقط يعيش سكان الكهوف هؤلاء. لكن من التهوّر أن أجرأ على الذهاب إليهم.

XII

جربة في غرة أوت 1835

أخيرا تغيرت وجهة الريح وتحولت مرة أخرى من «المنزل» إلى النهر المشؤوم. ولئن صارت الريح ملائمة فان المدّ كان ينقصنا لخوض غمار البحر. فما كان علي إلّا أن أخذت أهبتي مرة أخرى لقضاء ليلة بلا نوم. وجلس النوتية طوال الليل شاهرين المسدسات للحراسة ولصدّ العرب المارين بالمكان. وفي كل لحظة كنت تسمع : «منهو ؟ منهو ؟» [كذا]. وببطء سرت ساعات الليل وبأكثر بطء دنا موعد المدّ. وحين أشارت الساعة أخيرا الى منتصف النهار اكتمل المدّ المرتجى بفارغ الصبر وعظيم الاشتياق. وجذفنا بصعوبة صوب البحر. ولا تتجاوز المسافة الفاصلة بين قابس وجربة خمسين ميلا بحريا تقطع في ثلاث أو أربع ساعات عندما تكون الرياح ملائمة. واستبشرت بوصولي الى جربة مع حلول المساء. ولكن الأقدار شاءت أن يطول امتحاني فما إن تقدمنا مدى ثلاثة أميال حتى فوجئنا بريح معاكسة تدفعنا القهقرى نحو الساحل. فتحتّم علينا الارساء وكان ذلك في ناحية تصول فيها وتجول عصابات ساطية من البدو المتوحشين وتكرّرت أهوال الليلة المنصرمة. وزاد الطين بلة أن انتابني الدّوار. ثم انه لم يكن معنا ما يكفي من المؤونة فقد تعفّن اللحم الذي تزوّدت به ونفد الخبز ولم يبق لدينا، أنا وخادمي، سوى قليل من الشاي. وفي الصباح تسنّى لنا الاقلاع والابحار بعض المسافة ولكن سرعان ما هدأت الرّياح وخيّم سكون شامل وأضحينا عرضة للشمس التي كانت تصبّ علينا جام لهيبها. ولبثنا كلنا على أشدّ لهفة نترصّد شيئا من الريح وابتهلنا الى السماء لتمنّ علينا بنفحة ريح ولو ضعيفة تكون لنا رحمة ونجدة. وانسدل الليل من جديد دون أن نكون قد تقدمنا كثيرا، وألقينا المراسي ونام من استطاع النوم. وفي الصباح الموالي قامت علينا بعض الرياح المعاكسة فصرنا نهيم ذات اليمين وذات الشمال حتى ألفينا أنفسنا في آخر المطاف بالقرب من جزيرة جربة. ولم نكن أنا

وخادمي الوحيدين في نفاد زادنا بل ان كامل طاقم السفينة وثلاثة من البدو سافروا معنا عانوا مثلنا من النقصان. إلّا أن هؤلاء البشر كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف. ذلك أنهم كانوا يهيئون «الكسكسي» وطريقتهم هي التالية : تأخذ بضعة مكاييل من الشعير وتجهّز الرّحى المتكونة من حجرين وترحى الحبوب بكل جهد ثم ينقّى السميد من الشوائب ويبلّ بشيء من الماء ويخلط. ثم تضاف الى هذا الخليط قطع بصل وقليل من الزيت والفلفل الأكحل ويوضع فوق النار ويترك للطهْي. ويعد هذا الصنف من الطعام أشهى لقمة في ذوق هؤلاء الناس. أما أنا فلم استسغ هذه الأكلة قط.

وشيئا فشيئا اقتربنا أخيرا من جزيرة جربة لحد أنه أصبح في متناولنا ولوج المرفإ الواقع في شرق الجزيرة. بيد أن المدينة تقع في غربها على بعد ثمانية عشر ميلا. ولاح لنا قارب فأطلقنا حناجرنا بالنداء لكي يدنو منّا ولكن أصحابه ظنوا أننا قادمون من طرابلس حيث وصلت مؤخرا قوات تركية من القسطنطينية مما استوجب فرض الحجر الصحي على كلّ سفينة قادمة من هناك. وبالتالي واصل المركب مسيره دون أن يكترث بأمرنا. وأصرّ البدو المرافقون لنا على النزول الى البرّ ورمت نفس الشيء. ودنا بنا المركب من الضفة جذفا قدر المستطاع ونزل البدو وتخبطوا في الماء الضحل حتى بلغوا الشاطىء. حينذاك أوعزت إلى خادمي بالبقاء على متن السفينة ريثما أذهب الى المدينة وأعود ببعض المؤونة. وأراد الربان أن يصطحبني كما تطوع شيخ نوتيّ أنهكه الجوع بحملي الى الشاطىء رغم ما كان عليه من الضعف. ولكنني، رغم أني لم أذق تقريبا ما يسد الرّمق منذ أربعة أيام، تيقّنت من أن هذا الشيخ الذي رأيته على السفينة يلاقي عناء ومشقة في الوقوف على رجليه غير قادر على حملي الى اليابسة. غير أني رضخت أخيرا تحت إلحاح الرّبان واعتليت كتفيه ونزلنا الى الماء وما ان تجاوزنا نصف المسافة حتى أخذ الشيخ يترّنح ثم خرّ جاثيا على ركبتيه وهوينا الى الماء. إلّا أني كنت قرأت لمثل هذه العاقبة حسابا فانفصلت عنه أثناء السقوط ونهضت قائما على رجلي وأدركت الشاطىء بسلام ثم لحق بي الشيخ البّحار. وحمدت الرّب على النجاة وفرحت كثيرا وأنا أقف من جديد على اليابسة. وليس هذا من

فرط ما أحدق بي من خطر بل من أجل الدّوار الكريه الذي يبلوني كل مرة أشد بلاء، فأنا أعرف حقّ المعرفة أن الأرض والسماء في حكم الاله. وبعد سير نصف ساعة بلغنا بعض الدور فالتمست جرعة ماء فكان لي ذلك على الرحب والسعة. يا لها من نشوة لذيذة منعشة! وقد اشتقت أيضا الى بعض الطعام ولكن ما كان يوجد شيء يؤكل، وأخيرا عثر لي على بيضتين. يا لها من وجبة شهيّة! وامتصصتهما نيئتين ثم استويت على ظهر حمار ائتمنني عليه ربّ البيت وطويت مسافة ثمانية عشر ميلا حتّى السوق الكبيرة أو مدينة جربة. وبلغت الفندق وأنا في حالة قصوى من الاعياء والارهاق والاحتراق من جراء شعاع الشمس، وجسمي كله حشرات، لكنني كنت ولله الحمد في صحة وعافية. وطلبت فنجان قهوة واستلقيت في الحال حتى أستريح قليلا.

XIII

جربة في 4 أوت 1835

ما ان استلقيت على دكّة في بهو الفندق طلبا للراحة حتّى أقبل عليّ البوّاب الخيّر وسكب على رجليّ ماء باردا، علما بأني أتيت بدون جوارب ولا حذاء. وحينها أدركت لأول مرّة الفضل الكبير في غسل رجلي عابر سبيل جلس للاستراحة، كما نقرأ في مواطن عديدة من الكتاب المقدّس. واستسلمت للنوم. ولم أصح الاّ بعد مرور زمن طويل. وفي الحين أرسلت بعض المؤونة الى خادمي في السفينة، مشيرا اليه بالالتحاق بي صحبة أمتعتي حالما ينتعش بما يطيب له من الطعام. واثر هذا حضر صاحب الفندق ويدعى سيدي مصطفى، وهو يتقلد خطّة عون قنصلي يتعامل مع سائر القناصل المسيحيين بتونس(19). وكنت أصطحب معي خطابات موجهة إليه فرحّب بي ببشاشة وأخذني إلى حجرته حيث سلّمني مجموعة من الرسائل الموجهة إليّ.

وتقدم بنا الوقت وخادمي لم يصل بعد وأمتعتي معه فقبلت دعوة مصطفى إلى اصطحابه إلى منزله الرّيفي. وهنالك أحضر لي العشاء على الطريقة الأروبية فلم أستنكر ذلك بتاتا ثم هيّأ لي فراشا مريحا فنمت حتى الصباح. ولما عدت الى الفندق وجدت أن غرفة قد خصّصت لي، بل قل فضاء تحيط به أربعة جدران. وكان خادمي قد وصل ومعه متاعي فاحتللت محلّي ورتّبت حالي كما تيسّر الأمر. وكنت على درجة من الارهاق الى حدّ أني مكثت اليوم الأول عاجزا تماما عن القيام بأيّ شيء. وكانت ثلاث سفن يونانية راسية بالمرفاء أقبل منها الى الفندق بعض الملاحين فوزّعت عليهم عددا من أسفار « العهد الجديد » باللغة الاغريقية الحديثة. فعادوا بسرعة الى السفن

(19) هو المدعو مصطفى بن ابراهيم الذي عمل زمنا طويلا نائبا لعدة قناصل أروبيين في جزيرة جربة .

وأطلعوا رفاقهم على الكنز الذي أحرزوه فما هي الاّ لحظات حتى كان طاقم السفن الثلاث — وهم من أصيلي سباتسة (Spetsa) وحيدره (Hydra) ومن جزيرة سيروس (Syros) – ملتفين حولي وكلهم يلتمس منّي الانجيل. وسلمتهم ما كان معي من كتب « العهد الجديد » المكتوبة بلغتهم. ولقد روجت الى حدّ الساعة على سواحل شمالي إفريقيا عشرة صناديق من كتب الانجيل.

إن جربة لجزيرة لها ثمانية عشر ميلا من الطول وما يساوي ذلك من العرض وفي شرقها وغربها مرفآن. ومن الأكيد أنها كانت في سالف العهد شبه جزيرة، إذ انه لا يفصلها عن البر من الشرق سوى ربع ميل أنكليزي. ولئن جاز القول عن بشر إنهم يسكنون في أمان بين كرومهم وأشجار تينهم فذلك ينطبق تمام الانطباق على هذا الموطن وأهله. فالجزيرة قاطبة بمثابة المنتزه الفسيح. وبصرف النظر عن مدينتين يهوديتين فليس بجربة مدن ولا قرى بل مجرّد منازل منعزلة عن بعضها، تحيط بها أبهى الحدائق الغنّاء. وتغطّي الزراعة كل شبر، لذا يوجد في هذه الجزيرة الفتّانة كل شيء بوفرة : القمح والشعير والنّخل والزيتون والكرم وشتّى أشجار الثمار وأصناف الخضر. وتوجد بجوار كلا المرفأين ساحة يقام فيها السوق مرّتين كل أسبوع، ممّا يفسّر وجود بضعة ديار متجمّعة بالمكانين، علاوة على عدّة فنادق لإيواء المسافرين الغرباء. ويقع أكبر السوقين في الناحية الغربية وهناك حططت رحالي. وبما أني دخلت الجزيرة من شرقها وتنقلت راكبا ظهر مطية حتّى المرفأ الغربي، مخترقا إياها من طرف إلى آخر، فقد تسنّى لي منذ البداية ملء النظر بجمالها والتحقق من حسنها وبهائها. وقد يبلغ عدد سكانها نحو 150.000 نسمة غير أنه لم يتيسّر لي التأكد من ذلك على وجه التدقيق. ويقال ان الجزيرة تحتوي على 400 مسجد وبالاعتماد على هذا الرقم قدّرت عدد السكان.

وأهل هذه الجزيرة اللطيفة من المسلمين كما هو الشأن بالنسبة الى كامل ساحل شمالي افريقيا. وينقسم هؤلاء عادة الى « حنفية » و« مالكية ». الاّ

انه اعترضتني في هذا المكان طائفة ثالثة غريبة الأطوار يقال لها «الوهابية»[20]، ينتمي إليها ما يزيد عن أربعة أخماس أهل الجزيرة ويعملون بتعاليمها. ولهم لغة خاصّة بهم تختلف عن العربية كل الاختلاف، لكن لها صلة باللهجات الدارجة في داخل افريقيا وفي جبال الأطلس. ولهم مساجد خاصة بهم ومعلمون وهم يتزوّجون فيما بينهم فقط [...] وينتمي الى هذا المذهب أيضا عرب كثيرون من سكّان الجبال الدّاخلية، ممّا يجعلنا نرجّح أن وهابيّي جربة أصيلو هذه المنطقة. ونراهم يواجهون من قبل بقية المسلمين بشديد الكراهية ويلاقون منهم الاضطهاد هناك حيث يقلّ عددهم. وفي حين أن سائر المسلمين يكتفون عند أداء الصلاة بخلع النعال فقد نجد الوهبيين يخلعون السراويل أيضا ويصلون بدونها. وكل المسلمين يرفعون عند الصلاة الأيدي الى فوق ويهتفون مرتين « الله أكبر »، أما الوهّابيون فإنهم يرخون الأيادي ويعيدون عبارة « الله أكبر » أربع مرّات. وهم يرفضون كل مفسّري القرآن ويتقيّدون بحرفه فقط ويعتبرون أنفسهم « سنّيين » أي أصحاب العقيدة الصحيحة. [...]

ان أهالي جربة ليسوا بميسوري الحال فحسب، بل هم أثرياء، يعيشون عيشة شرقية أي رغيدة ومترفة. وتصنع في هذه الجزيرة أبهى البرانس والأحزمة والشيلان ومنتوجات عديدة أخرى من نسيج الصّوف، تصدّر الى مصر والى سائر بلاد البربر والمغرب وغيرها. بيد أنّه في الفترة الأخيرة تراجع تسويق هذه المنتوجات بنسبة كبيرة، من جراء التحوير الذي أدخله السلطان الأعظم على لباس جيوشه، فقد أضحت هذه اليوم في غنى عن البرنس والحزام. لذلك نرى أصحاب المصانع في جربة يضمرون للسلطان الشرّ، والأفدح في هذا أنهم ذهبوا الى حدّ الادّعاء علنا أن السلطان الحالي يهودي وليس بمسلم. ومع كل هذا فإنّ الصادرات من المنتوجات المذكورة ما

(20) الوهبية هي فرقة من فرق الأباضية ، سميت هكذا نسبة إلى مؤسسها الامام الخارجي عبد الوهاب بن رستم (مع العلم أن هناك من ينسبها إلى عبد الله بن وهب الراسبي) .

زالت هامّة جدّا وما فتئت تدرّ على البلاد أموالا طائلة.

تقام كل يوم اثنين وخميس من أيام الأسبوع سوق كبيرة يؤمها أصحاب المصانع بسلعهم فيبتاعها الغرباء القادمون من كل حدب وصوب ويرسلونها في الحال إلى مواطنهم. وكما هو الحال بالنسبة الى الأماكن التي تتوفّر فيها المصانع، نجد أهل جربة يتّسمون بلباقة وحسن معاملة نفتقدهما في الأماكن التي تفتقر الى مصانع، ذلك لأن توافد الغرباء ومعهم أسباب الارتزاق يفرض التّحلّي بهذه الخصال. ولم يسبق بتاتا أن اعترضني مسلمون ألطف من أهل جربة، ومن المستحيل أن يوجد في أي مكان آخر مسلمون يفوقونهم استقامة ودماثة أخلاق. وكنت أتيت حاملا خطاب توصية الى أحد المسلمين من أعيان المكان يقطن في ضيعة تبعد عن السوق مسافة تسعة أميال. وما إن علم بقدومي، وكنت قد أرسلت اليه الخطاب، حتى سارع بارسال أحد أبنائه ليستضيفني. وتمّ الاتفاق على يوم يرسل فيه اليّ بغلا يزينه سرج فاخر. ووجهت الدعوة أيضا الى مصطفى، مضيّفي، وبعض وجهاء الجهة.

وكان صباح جميل ذلك الذي ركبنا فيه الى « الحاج يونس »، كما يدعى المسلم المذكور (21). واستقبلت في ردهة الاستقبال في « السقيفة » وقد ازدانت بالطنافس المليحة والزرابي الوثيرة. وبعد أن أخذنا نصيبا من الراحة وزّعت لنا المرطبات. ثم أقبل اثنان من أبناء الدّار لتحيّتي، لكنهما مكثا في حضرة أبيهما واقفين على مقربة منا، اذ لا يجوز للأبناء الجلوس في حضور الوالد. وبعد هنيهة انصرف كل الحاضرين حتّى يتسنّى لي الحديث في كامل الحريّة مع الحاج يونس، الذي بلغ الثمانين من عمره. وكان في ذلك التصرّف لياقة فهمتها حقّ الفهم. وعلمت من هذا الشيخ أنه زار العديد من بلاطات أروبا وأنه كلّف مرّة بمهمة الى القسطنطينية وكان يتكلّم اللهجة الافرنجية (Lingua franca) ويخاطبني بأسلوب فيه من البشاشة والوقار ما يليق بأي رجل

(21) لا شك أنه ابن الحاج يونس بن يونس الذي علا شأنه في عهد حمودة باشا وبلي في عهد محمود باي فسجن بمعية ابنه هذا إلى أن أفرج عنهما حسين باي سنة 1824 .

دولة أروبّي. وكان يملك في ماضي الأيام ثروة عظيمة تقدّر بخمسين مليون ريال، الاّ أن الحكومة عرفت كيف تستحوذ على نصيب منها، ومع هذا فهو أغنى رجل في الجزيرة. وبعد أن تحادثنا طيلة نصف ساعة، انسحب الشيخ المسنّ تاركا لابنيه المجال لمحاورة النصراني. وبعد هنيهة غادرنا « السقيفة » وتحوّلنا إلى قاعة فخمة مزدانة على النمط الشّرقي، تعج بأطيب الروائح. وهنا جلسنا على أرائك ثمينة، في حين انتصب ثلاثة زنوج بالباب يترصّدون أوامر سادتهم. وأديرت القهوة في فناجين تركية أعلاها من الفخار النفيس وأسفلها من الذهب الخالص. وتسلينا مع شرب القهوة بتدخين تبغ عطر فوّاح. وتكوّن المجلس فضلا عنّي من ستّة من المسلمين الحضر واسترسل الحديث شيّقا وتمحور حول الحرب والسلم وحول الحكومة السابقة والحالية، وندّد ابنا البيت دون احتراز بتعسّف البلاط وطغيانه فتعجّبت كثيرا من هذه الصراحة. وقد كانت العبارات المستعملة شديدة اللهجة الى حدّ أن أحد المسلمين الحاضرين نبّه الى ذلك، فإذا بأحد الابنين يثب واقفا ويقول : « لا تهمني حكومة تونس، فأنا أنكليزي ». وفي الابان غادر القاعة لحظات ثم عاد وهو يفتح علبة فضيّة وأخرج منها وثيقة حصانته الأنكليزية.

فلقد اتفقت القوى المسيحيّة مع باي تونس على أن لا يخضع الأشخاص المنتمون الى قنصليات هذه الدّول لسلطة الباي بل يعاملون بوصفهم رعايا الملك المسيحي الممثّل. ولا ينطبق هذا على أعوان القنصليات فحسب بل على سائر التّجار النّصارى وخدمهم ووسطائهم. وقد بادر اليهود بالانتفاع بهذه الاتفاقية فعملوا على أن يكونوا وسطاء التّجار وانتدب الوسيط لنفسه وسيطا واتخذ هذا بدوره خادما وهكذا دواليك. وعلى هذا المنوال أصبح اليوم عديد اليهود في أهمّ بقاع ساحل إفريقيا الشمالي يتمتّعون بالحماية الأنكليزية أو الفرنسية أو الهولندية. ويستأثر هؤلاء الأشخاص بأكثر حرية من غيرهم ولا يرزحون تحت جور الحكومة. ثم ان الأهالي المسلمين تفطّنوا أخيرا بدورهم الى هذا الملاذ فلم يتورّع أثراهم وأوجههم من أن يصبح خادما لأحد القناصل حتى ينجو من تكالب الباي على الابتزاز.

بعد هذا أحضر الغداء وانفردت أنا وسيدي مصطفى بالأكل على الطريقة الأروبية، بينما استعمل بقية الجماعة الأصابع كالمعتاد. وتوقّف الكلام أثناء الأكل، وكانت أصناف الطعام تلتهم بسرعة ثم ترفع وتعوّض بأخرى. وعددت الأصناف التي قدّمت خلال هذه المأدبة فكانت أربعة وعشرين صنفا. وعندما يشرب أحد تهتف الجماعة : « صحّا ! »، أي « تشرب بالشفاء ». ويكون الرّدّ : « يسلمك ! »، أي « الله يعطيك السلام [كذا] ». واذا شبع أحد أو توقف عن الأكل فانه ينهض دون أن ينبس بكلمة ويشير الى غلام فيأتيه بوعاء ويسكب منه ماء على يديه. وبعد الطعام أديرت القهوة من جديد ثمّ عيّن لكل واحد، حسب عادة المكان، موضع لقضاء القيلولة ونلت أنا أيضا مكاني. وبدا لي خلال وجودي بالدار وكأنها خالية من الاناث. لكن كل ما في الأمر، في واقع الحال، أن النساء انزوين في الخدر وعكفن بلا ريب على تتبّع الأحداث الجارية بكل دقّة. أفيعقل أن يستضاف نصرانيّ يقرأ القرآن كما لو كان « قاضيا » [كذا]، بل وأكثر من ذلك، يخوض في تفسيره بلغة هي لغة المسلمين المقدسة، أيعقل أن يستقبل رجل كهذا ويودّع دون ملء العين برؤيته ! ألا يعني ذلك امتحانا قاسيا لطبيعة بنات حوّاء ! وبالفعل، ما إن اضطجعت في ركن من أركان « السقيفة » لأغفو اغفاءة حتى رأيت الباب المقابل يفتح بهدوء وسمعت همسا خافتا ثم لاحت سيّدة ثم أخرى فثلاث وأخيرا صرن خمسا، ووقفن يتفحّصنني عن بعد ويردّدن فيما بينهنّ :

ـــ انه ينام !

ـــ كلاّ، انه غير نائم !

ـــ انه طويل القامة !

ـــ لا بل هو قصير القامة !

ـــ انه شاب !

ـــ كلاّ، كلاّ، انه كبير السنّ!

واقتربت السيّدات رويدا رويدا حتى صرن على قيد شبر منّي. وعلى حين غرّة انفلتن بالضحك وهرعن صوب الباب وأغلقنه وراءهنّ بسرعة.

والتأم شمل الجماعة ثانية، بما في ذلك الحاج يونس المسنّ. وقدّم للحاضرين شراب منعش ثم قهوة في فناجين مختلفة عن الأولى لكنها ليست دونها قيمة. وقوبل اقتراح أحدهم القيام في رطوبة العشية بنزهة على ظهور المطايا بالترحاب، فزرنا بعض البساتين حيث استمتعنا بشتى أصناف الفواكه. ثم جلسنا للعشاء فكان فاخرا يشهد بثراء مضيفنا وكرمه. واثر ذلك تسامرنا حتّى ساعة متأخرة من الليل. وفي الأخير ذهب كلّ لنيل نصيبه من الرّاحة. واكتنفني مضجع فاخر. وفي الصّباح التالي ركبت عائدا الى مقامي صحبة مضيّفي سيدي مصطفى.

جربة في 8 أوت 1835

كانت جربة فيما مضى بمثابة منجم الذهب بالنسبة لمن اضطلع بشؤونها من الولاة. ذلك أنهم كانوا يدفعون للدولة سنويا مبلغا معينا غير مرتفع ويستحوذون مقابل ذلك على حقّ نهب الأهالي كما أحبّوا واشتهوا. ومنذ زمن طويل استأثرت عائلة « بن عياد » بهذه الخطّة. ولكن عندما تسنّى لصاحب الطابع الحالي الارتقاء من مجرّد عبد الى وزير أول جعل ملء خزينة مولاه الخاوية همّه الأكبر. ولهذا الغرض قام شخصيا بزيارة مختلف أقاليم المملكة، بما في ذلك جربة. واستقبله الوالي، بعد أن علم بقدومه، في بيته الذي كان مؤثثا ومزوقا بصفة يحسده عليها الملوك. واطلع الوزير البصير على هذه الأبهة وهذه النفائس بعينين ملؤهما الطمع ثم عاد أدراجه الى تونس. وبعد فترة وجيزة بعث الى الوالي يأمره بالمثول أمامه وخاطبه قائلا :

« لقد عرفت كيف تملأ خزائنك بما هو ملك يمين سيدك، فبنيت لنفسك الدّيار وزينتها بأغلى زينة، في حين كان مولانا يعاني أشد الضيق. انك تستحق الشّنق وأن تجرّد من كل أرزاقك. لكنني، رفقا بك، أعفو عنك وأتركك على قيد الحياة، لكن شرط أن تدفع حالا مليوني ريال لصالح خزينة الدولة. وحذار أن تضع رجلك ثانية في جربة.» ونفّذ الشرط الأول دون أدنى نقاش. أما الشرط الثاني فقد كان فيه من المسّ بكرامة كافة أسرة ابن عياد ما جعلهم يدخلون في مساومات سرية مع صاحب الطابع الحنق الى أن لانت قناته. وعفا عن الوالي المغضوب عليه وأعيد الى منصبه « قائدا » على جربة لكن بشروط تختلف تماما عمّا سبق، فقد تقرر تعيين عشرة من أعيان الجرابة ليكونوا له مستشارين فلا يحقّ له جمع ضرائب أو جبي أداءات دون استشارتهم. وفي نفس الوقت حدّد الوزير الأول الضريبة السنوية بـ 130.000 ريال. ويضطلع مجلس العشرة المستشارين بجبي هذا المبلغ حسب طاقة كل من الأهالي ثم يسلم الى الباي بينما أضحى « القايد » يحصل على

جرايته من الباي. وهكذا لم يعد الجربي في حاجة الى ادعاء الفقر وقلة ذات اليد بل صار بإمكان أي أحد أن يتنقل بثروته حرّا وأن يتظاهر بثرائه جهرا، وهو ما يحصل على العموم.

ولا يفوت المرء عند احتكاكه بالجرابة أنهم يمتازون بسلوك مهذّب الى أقصى حدّ وبآداب لائقة ولطيفة. كما أنهم لا يعاملون المسيحيين معاملة الكراهية والازدراء، حتّى أننا نكاد ننسى أننا وسط أعداء الانجيل الألدّاء، لولا وجود نصب تذكاري مروع تقشعر له الأبدان، يشهد بما يكمن هنا من كره للنّصارى. وهو يحتل موقعا على شاطىء البحر ويتمثّل في هرم من جماجم النّصارى ومن عظامهم. فقد حدث أن التجأ أثناء آخر المعارك التي دارت رحاها في هذه الجزيرة بين الاسبان والمسلمين (22) ثمانيمائة من المحاربين الصناديد الى حصن أقيم قرب البحر وقاوموا العدّو ببسالة. وقام المسلمون بمحاولات عديدة لاحتلال الحصن فباءت كلّها بالفشل وتكبّدوا خسائر جسيمة. وسقط ثلاثة من قادتهم دون أن يصاب اسباني واحد بجراح. وتمادى الحال الى أن حصل ما يخشاه المحاصرون عامة، أعني نفاد المؤونة. وترقبت جماعة النّصارى يوما بعد يوم وصول نجدة وامدادات ولكن بدون جدوى الى أن أرغم الجوع الحامية على الاستسلام، بعد أن حصلوا على وعد باخلاء سبيلهم. لكن ما ان استولى المسلمون على الحصن حتى انقضوا على الثمانيمائة اسباني المجردين من السلاح وفتكوا بهم عن آخرهم وأقاموا بجماجمهم وبعظامهم على شاطىء البحر نصبا تذكاريا جديرا بهؤلاء البرابرة الهمج. وها هو لا يزال منتصبا منذ ذلك العهد ومن حين الى آخر يطلى بالجير. وتقع بجوار هذا الهرم قبور المسلمين الذين سقطوا على أيدي هؤلاء الصناديد. وباعتبار كثافة القبور فان عدد الضحايا المسلمين لم يكن بالقليل. وتتميز قبور القادة الثلاثة بقباب تعلوها. وقد انتابني وأنا أقف على هذا المعلم

(22) إشارة إلى وقائع سنة 1560 التي منيت فيها القوات الاسبانية بهزيمة ساحقة.
انظر : Ch. Monchicourt : L'expédition espagnole de 1560 contre l'île de Djerba. Paris 1913.

اللا انساني، نصب الخيانة والغدر، شعور غريب، وبدا لي وكأن العظام الرمادية تتحرك وكأن الأذرع تمتد نحوي، وكأن الجماجم الخاوية تشير اليّ وكل فم يسعى أن يقول لي : « رح أيها المسافر، اعبر البحر ورح الى بلاد المسيح وبلّغ أننا لا نلبث منذ قرون طوال نحمل ثقل هذا العار وما زالت عظامنا بدون ضريح يؤويها. لعل صدى ندائك يبلغ أذن أمير تقيّ فيعمل على ترحيل بقايانا الى أرض الوطن ».

يعيش في هذه الجزيرة، فضلا عن المسلمين، نحو ستمائة أسرة يهودية تحتل مدينتين هما « الحارة الكبيرة »، على بعد ميل من رحبة السوق الفسيحة، و« الحارة الصغيرة »، تبعد عن نفس المكان خمسة أميال. ويخضع هؤلاء اليهود لرئيس منهم مزكّى من قبل الحكومة، يقال له « نجيد » (Nagid) ويمثل بمعية بضعة أحبار سلطتهم العليا. وتوجد على مسافة ميل من «الحارة الصغيرة»، وسط ساحة منعزلة، بيعة يقال لها «الغريبة»، يزعم أنها أقدم البيع على كامل ساحل افريقيا الشمالي. ولا تتفق أخبار اليهود فيما يتعلق بعمر هذه البيعة. فمنهم من يدّعي أنها شيّدت بعد تدمير المعبد الأول، في حين يزعم أخرون أن يهودا نزحوا من مصر هم الذين أسّسوها. والشيء الوحيد الثابت هو أنه عثر قرب «الغريبة» على شاهدة ترجع تاريخ القبر الذي وضعت عليه الى 1300 سنة خلت. ويمكن أن نستنبط عمر بيت الصلاة هذا من تصميمه على مثال معبد أورشليم إذ نجد له رواقا وقدسا وقدس أقداس. ويجتمع اليهود في هذه البيعة أيام الاثنين والخميس والسبت لقراءة التوراة. ويفد بنو إسرائيل من مختلف أصقاع إفريقيا إلى هنا حجيجا لاقامة الصلاة في هذا المقدس ولا يغادرونه دون أداء عطية لصيانته. وحتى المسلمون أنفسهم يرون في هذه البيعة معلما مجيدا من العهد القديم وبالرغم من انزوائه ونأيه عن عمران البشر فإنه لا يجول بخاطر أي مسلم أن ينتهك حرمة هذا المبنى. ولم يعترضني قطّ يهود أشد فقرا ممّا رأيت في جربة، وبنفس الكثرة. ويخال المرء وهو يشاهد نسل يعقوب في هذا المكان وكأن عجلة الزمان عادت به أربعة آلاف سنة الى الخلف ويتصوّر نفسه وكأنه في مصر والعبيد اليهود تبني لفرعون [نصب] « بطح » و« رمسيس ». ويهود

جربة هم عمال مقاطع الحجارة فيها وبنّاؤوها وأجراؤها وحدّادوها الخ. ويضطلعون بأدنى الأشغال وأشقاها. وبالرغم من أن تجارة المنتوجات المحلية تدر أرباحا لا يستهان بها فإننا لا نجد أيّ يهودي له سهم في هذه التجارة بل هي بتمامها في حوزة المسلمين. ويكتفي جلّ اليهود من حيث اللباس بقميص طويل خشن، يضيف القليل منهم فوقه قميصا ثانيا من الصوف. ولا يقدر إلاّ أقلّهم عددا على لبس ما يلبسه إخوانهم في أماكن أخرى من « بلاد البربر » ولا يعرف الكثير منهم طعاما آخر سوى خليط من دقيق الشعير والماء والملح. وعلى غرار طعامهم الزهيد نجد أجرهم بالمثل تماما. فقد مررت قبل أيام بمقطع حجر يشتغل فيه يهود فسألتهم وقد أنهوا العمل : « كم يتقاضى الواحد منكم على هذا العمل في اليوم ؟ » فأجابوا : « أربعة خروبات [23] ». ولا يساوي هذا المبلغ سوى ستة« كرويتسر [24]»

لم يكن بالجزيرة قبل سنتين مسيحي واحد. الا أن ثورة طرابلس حملت عددا صغيرا من العائلات المالطية على الهرع الى هذا المكان، وها هم اليوم يحتلون الفنادق. فقد استقرت في الفندق الذي نزلت فيه اثنتا عشرة أسرة بنسائها وأطفالها وبخنازيرها ودجاجها. فكانوا يحدثون طوال اليوم صخبا مزعجا ويملؤون الفندق نتونة وقذارة الى حدّ أني بقيت في الساعات الأولى عاجزا عن التفكير. وحدا بي الأمر أن فكرت في تغيير مكان الاقامة، بيد أني قلت في نفسي : passus graviora ! dabit Deus his quoque finem[25] وبالتالي مكثت في مكاني. ولا يعيش حاليا في الجزيرة أروبيون غير هؤلاء المالطيين.

لقد سبقني من صفاقس قبيل حلولي بجربة الخبر بأن مسيحيّا سيأتي ليتحاور مع يهود ومسلمين في شؤون الدّين. فلما أديت، حال وصولي، لوالي الجزيرة رفقة سيدي مصطفى، زيارة التعرف التفت الوالي إلى مضيّفي سائلا

(23) مفرده « خروبة » ، وحدة نقدية تساوي 1/16 ريالا أو ثلاثة « ناصري » وربع.

(24) «Kreuzer» عملة ألمانية قديمة ضئيلة القيمة .

(25) أي : لكن سوف تزول المحنة وسوف يُجعل لها حدّ .

ان كنت أنا المسيحي الذي جاء ليتحاور مع يهود ومسيحيين في مواضيع دينية. ولما أجبت بنعم، خاطبني قائلا : « أما فيما يتعلق باليهود فسوف أجمع هنا كبار الأحبار حتى تتجادل معهم وان كنت على حقّ فإني سوف أجبرهم على التنّصر ». فرددت عليه قائلا : « إنه ليتنافى تماما مع مبادئنا أن ينشر دين المسيح بحدّ السّيف، ولا بد أن تتبلور حقيقة عقيدتنا بمحض الاقتناع الشخصي، لذا فكل ما أرجوه هنا، كما تمّ لي ذلك في أماكن أخرى، هو أن يسمح لي بمخاطبة الناس في ديارهم ودكاكينهم في هذه المواضيع الهامة. » فقال الوالي : « ان كنت تفضّل هذا فتصرف كما شئت، ولكنك سوف تلقى صعوبة في اقناع الناس بهذه الطريقة. » فكان جوابي : « اني أترك هذا لمشيئة الله الذي يحكم في كل شيء. » ثم رحت أكرز بالانجيل على اليهود والمسلمين. فليبارك الربّ ما صدر من قول.

إن هواء جربة لنقي وماءها ممتاز إلى درجة أني لم أشعر بنفسي طوال كامل رحلتي في صحة وعافية مثلما شعرت في هذا المكان وبالرغم من حلول شهر أوت الذي يعدّ عدو الأروبي الألدّ تحت سماء إفريقيا فان الحرارة ليست من الشدة بما تكون عليه في مواقع ساحلية أخرى. ولكن لكل موقع إفريقي ما من شأنه أن يزعج الانسان ويجعله باستمرار في حالة فزع. وعيب هذا المكان هو أيضا العقارب الكريهة. ولئن كانت ليست بكثيرة عددا، في كامل الجزيرة، فإنه ليس هناك أخطر من عقارب جربة، ناهيك أنه إذا أضمر مسلم الشرّ لآخر، قال له : « ليت عقربا من عقارب جربة تلسعك ! » وهي هنا على أجناس شتّى فمنها الصفراء ومنها الخضراء ومنها الضاربة الى البياض ومنها السّوداء. وقد تمكنت من القبض على عدد من هذه السّوام الخطيرة وها أنا أحتفظ بها في سائل الكحول. وأخطر العقارب السّوداء. وهي تظهر عموما خلال شهري جويلية وأوت. بيد أن الانسان يبقى طيلة النهار في مأمن نسبي من شرّها ولا يستفحل هولها الاّ خلال الليل حينذاك تتسرّب من أحجارها الخفية وتقوم بدورياتها. لذلك يظل نور يتقّد طوال الليل حذو كل مرقد يؤوي بشرا. واذا أصيب أحد بلدغة عقرب يكون العلاج الأفضل

والوحيد معا بفصد مكان الاصابة بواسطة موسى الحلاقة وشدّ رباط فوق الجرح شدّا محكما لمنع سريان دم الجرح ويترك هذا يستقطر ثم يدلك بالزيت. وابّان اللدغة تنتاب المصاب الحمّى ويزرقّ لونه أو يسودّ ويتملكه الغثيان ويشعر بضيق في صدره وببرد في يديه ورجليه وتعتريه رعدة وفي غضون أربع وعشرين ساعة يلفظ أنفاسه الأخيرة. أما اذا استعمل العلاج المذكور وهو لا يتيسّر إلاّ إذا أصابت اللّدغة موضعا من الجسم يجوز فيه فتح الجرح فإنه عادة ما يأتي الشفاء بعد أربع وعشرين ساعة. ولأجل هذا رأيتني أضع كل ليلة موسى حلاقة ورباطا في متناول يدي. بيد أن الربّ شملني إلى حدّ الساعة برعايته وصونه فله الحمد والشكر والاجلال.

طرابلس في 3 سبتمبر 1835

بارحت جزيرة جربة اللطيفة في العاشر من أوت بعد الظهر على متن سفينة صغيرة على أمل أن توصلني الى طرابلس سالما بمعونة الربّ. ورغم صغر السفينة وضيقها فقد أركب قائدها المالطي ما يزيد على خمسين مسافرا بين مسلمين ويهود ونصارى جميعهم ممّن فرّ آنفا من طرابلس ورام العودة اليها بعد أن استتبّ الهدوء. وكانت من نصيبي مساحة لا تعدو أن تكون كافية للاضطجاع. وكان من المنتظر أن نبحر في اليوم نفسه، لكن مركبنا رسب في الرمّل فتعيّن علينا انتظار المدّ الذي لم يكن يكتمل الاّ صبيحة اليوم التّالي. وإذاك أطلقنا الشّراع وتقدّمنا شوطا ولكن ما راعنا الاّ والريح تنعكس ممّا أرغمنا على المراوغة. ونتج عن ذلك أن شرعت السفينة ترجّنا رجّا عنيفا مطّردا. وسرعان ما انتابني الدوار من جديد واشتدّ بي. وفي المساء استوجب علينا الارساء قرب « رأس المحبس »، حيث يعيش بدو مجبولون على السلب والنّهب. وتواصلت من الغد الرياح معاكسة عنيفة وتعيّن علينا ملازمة مرسانا طوال اليوم. وأمر الربان باثقال السفينة بغية الحدّ من تأرجحها. وأنزلت الزّوارق وذهب النوتية مدججين بالسلاح الى البرّ لجلب ما يفي بالطلب. وتسلق ملاّح صاري السفينة لمراقبة الشاطىء خشية أن يقترب بعض البدو وقد تمّ الاتفاق على أن ترفع الراية في حالة ما اذا حصل ذلك فتعود الزوارق بعجل. الاّ أن العملية تمّت دون أن يطرأ طارىء، وهو أمر نادر حسبما أدلى به بعضهم. ولما كانت الرحلة من جربة الى طرابلس لا تتطلب عموما أزيد من يومين فإن خادمي اكتفى، من باب التهاون أو الاغفال، بشراء زاد يومين فقط، وها نحن الآن نشكو نقصا. وكذلك زاد بقية الركاب أخذ بالمثل يتقلّص كما أوشك الماء على النّفاد. وشاء سوء الطّالع أن تستمّر الرّياح المضادة تنفخ بعنف وعمّ الاستياء على متن السفينة. وازداد بي السقم والكلال ورغبت في أكل شيء ما ولكنني لم أحرز على لقمة.

واشتد الصراع على الماء ولما هممت بتوبيخ قائد السفينة على ذلك قال لي انه حدث له أن حبسته الرياح المضادّة في نفس المكان طيلة أحد وعشرين يوما بأكملها. وزاد في كربنا أن سكنت الرياح وخيّم الهدوء التام. ومرّت علينا ونحن في البحر خمسة أيام ثمّ لاحت بوادر الفرج. ففي يوم 15 أوت بعد الظهر هبّت علينا ريح خفيفة لكنها موافقة وفي الحين رفعنا المرساة وانطلقنا قدما. ولكن ضوضاء ركاب السفينة من أجل ماء الشراب زادت حدّة وغدا الموقف يهدد بأخذ منعرج خطير. وبالتالي رأيتني أفاتح رائس السفينة في الموضوع وأعرض عليه الموقف من مختلف جوانبه، فقال انّ رياحا موافقة بصدد دفعنا الى الأمام نحو هدفنا وانه لم تعد تفصلنا عن طرابلس مسافة كبيرة. واقتنع بضرورة توزيع الماء وأعطى أوامر بذلك. وأخيرا في السادس عشر من شهر أوت لاح لنا عند منتصف النهار ساحل طرابلس فغمرتنا الفرحة وفي المساء ألقينا المرساة غير بعيد عن الضفة، على مقدار ستة أميال من المدينة. الاّ انه ظهر خلال الليل طلّ كثيف بللّني وبلّل حشيّتي التي كنت أنام عليها في العراء فوق سطح السفينة — لأني التمست في ذلك أكثر راحة — وصيّرها تقطر ماء، وخشيت أن يسيء هذا النّدى الى صحتي. وفي السابع عشر من أوت توجهنا صوب المرفإ وولجناه قبيل الظهر.

تقع طرابلس في برزخ وتحيط بها أسوار شامخة تعلو على سائر مباني المدينة، كما تحميها علاوة على ذلك بطّارية مدفعية مهيّأة في شكل نصف دائرة. كما أن هناك عدة مدافع منتصبة وشتّى التحصينات الدفاعية والمتاريس، تحمي مدخل الميناء الذي يؤوي حاليا خمس عشرة سفينة حربية تركية. وما إن أرسينا حتّى أسرع إلينا قارب فكان على قائد سفينتنا أن أدلى بما طلب منه من ارشادات. وعقب ذلك حضر ترجمان القنصل الأنكليزي ومعه التصريح الذي يخوّل لي النزول الى البرّ فعجّلت بالاستفادة من صلاحيته.

وبما أن طرابلس أضحت تخضع لسيادة الأتراك فقد وجدت على أبواب المدينة جنودا أتراكا يرتدون أزياء أروبية النمط. واجتزت المداخل ونفذت الى المدينة دون أن يوجه إليّ أدنى سؤال. وسعيت باديء ذي بدء إلى اكتراء

محل أحطّ فيه رحالي. وسرعان ما عثرت على ما أبتغيه ودفعت كراء شهر كامل ثم أرسلت في طلب متاعي من السفينة ورتّبت حالي كما تيّسر في مقامي الجديد. وودت أن أزور القنصل الأنكليزي لنتعرف على بعضنا ولكنني لم أتمكن يومها من مقابلته.

وما ان رتبت شؤوني بعض الشيء حتى انتابتني نوبة نقرس عنيفة بذراعي اليمنى عاقتني عن القيام بأي عمل. واحتدت وطأة هذا الداء من ساعة إلى أخرى وبان على هذه الذراع نفسها ما شابه الطفح الجلدي والورم. واختلّ نظام المعدة وصرت في حالة يرثى لها من السقم. وكانت هذه نتيجة البرد الذي أصابني على السفينة والغذاء الردىء الذي تناولته والجوع الذي تلاه. وصرت عاجزا عن الكتابة والقراءة معا وتألمت آلاما مبرّحة. وكانت تلك أيام محنة قدّرها الله فتحمّلتها ممتثلا لمشيئته وفكرت في دار الآخرة. لكن بفضل الاله ورحمته زال الكرب وجاء الشفاء. فقد ألحّ عليّ بعض الأحباب أن أدعو طبيبا فأذعنت مكرها وحضر طبيبان عوضا عن واحد فشرعا في التنقية والدهن والدلك وما الي ذلك الى أن أعان الرّب على الشفاء.

لم استشف الخبر الصحيح فيما يتعلق بثورة طرابلس الهامة الأخيرة الاّ على عين المكان. فقبل ما يزيد عن 150 سنة استولى آل « قرمانلي » على عرش طرابلس وعكفوا بالاشتراك مع تونس والجزائر على سلب النصارى واسترقاقهم. الاّ أنه والحمد للّه تمّ منذ 1816 محو هذا الشّنار الذي ظلّ أمدا طويلا يثقل عاتق الأمة المسيحية قاطبة. وكان من نتائج ذلك أن تقلص دخول هؤلاء اللصوص بنسبة هائلة. ولحق الضرر طرابلس بالخصوص اذ يقال انّ هذه الممارسة كانت تدرّ على الباشا بمفرده ربحا خالصا يقدر بـ 600.000 دولار. وأحسّ يوسف باشا كثيرا بالخسارة ولكنه عرف في البداية كيف يجاري الوضع ببعض التقشف في نمط عيشه. ولكن مع تقدمه في العمر ازداد ولعه بعديد النساء فكان أن دفعته في دوامة النزوات الجنونية. وغرق في ديون بالغة وطالب أصحابها بأموالهم وأخيرا لم يجد حلاّ سوى أن دعا إليه شيوخ العربان وقال لهم انّه في حاجة الى مال لتسديد ديونه وانه يطالب كل فرد منهم بمبلغ معيّن وعليهم، أي الشيوخ، أن يأتوه

بالمحصول في أسرع الآجال. وعاد الشيوخ الى خيامهم وأخبروا طغامهم ببغية الباشا. وما إن تلقّوا الخبر حتى ثارت ثائرة العربان قاطبة وأهالي المدن خارج طرابلس. وعلت من الخيام والقرى والمدن خارج طرابلس صيحة واحدة تنادي بأن يوسف باشا غير جدير بالعرش. ولما وصلت هذه الصيحة المفزعة مسمع يوسف، تصرّف بحنكة وتخلّى عن الحكم لصالح ابنه علي باشا. وتبوّأ هذا العرش وبايعه كامل أهل المدينة باشا عليهم. ولكن أهل الريف (26) لم يفعلوا بالمثل لأنهم كانوا يكنّون الكراهية لعلي. واختاروا على رأسهم اثنين من أبناء شقيق لعلي وابن ليوسف، سبق أن مات أبوهما بأمر من أخي يوسف نفسه. وانطلاقا من الريف اندلعت الحرب الأهلية، وفي مستهل سنة 1832 تعيّن غلق أبواب المدينة. واستمر الصراع سنة كاملة بين طرفي النزاع، عرف كلاهما خلالها النصر تارة والهزيمة تارة أخرى.

ثم ان السلطان أرسل القفطان الى علي باشا، معترفا به بهذه الصورة سيّد البلاد الشرعيّ. غير أن ذلك لم يفلّ من عزيمة شقّ الريف فواصلوا الحرب ضدّ المدينة بكل حزم. وغادر المدينة كل من قدر على ذلك وهاجر العديد من قناصل الدول الأروبيّة وجل النصارى وثلث اليهود وأثرياء المسلمين فأدى ذلك الى أن ضعف صفّ عليّ باشا حتى انه لم يبق معه سوى بضع مئات من الرجال، تعوزهم القدرة الكافية للدفاع عن المدينة كما ينبغي. ورفع القطر بأكمله السلاح ضدّ علي باشا وتمكن جيش أعدائه حتى من جلب المدافع، العادية ومدافع الهاون. وتمّ ضرب الحصار على المدينة في بعض النقاط وتهاطل عليها وابل من الرصاص والقنابل أحدثت أضرارا جسيمة. ومرّت على هذه الحرب ثلاث سنوات بأكملها لمّا ظهر على حين غرّة في عرض طرابلس أسطول تركي قوّته خمسة وثلاثون شراعا، زيادة على عدد من سفن الشحن تقل 6000 رجل من القوات النظامية. واعتقد كل فريق أن الأتراك انما جاؤوا لمناصرته على خصمه. وتحوّل علي باشا توّا الى سفينة القائد التركي الذي

(26) أو « أهل المنشية » كما يعرف بهم في « اتحاف أهل الزمان » لابن أبي الضياف ضمن الأخبار عن هذه الأحداث .

كان يحمل رتبة باشا ذي ثلاثة من « الطوغ » (27) للترحيب بقدومه. واستقبل هذا عليّا بحفاوة فائقة وأكد له أنه لم يأت الاّ ليدعمه في منصبه وأنه سيهاجم الخصم حالما يتمّ انزال جنده، مضيفا أن هؤلاء لم يستعيدوا بعد كامل نشاطهم من جراء أتعاب السفر الطويل وأنهم في حاجة الى نصيب من الراحة. وطلب من عليّ أن يسمح له قبل كل شيء بإنزال قواته إلى البرّ. ولم يكتف عليّ بالموافقة بكل سرور بل ساعد على ذلك بكل جهد. وما ان تمّ للآمر التركي ما أراد حتى أبلغ شقّ الريف أيضا أنه ما أتى إلاّ لتنصيب زعيمهم على العرش وتأديب باشا المدينة. وابتهج أهل الريف كثيرا وأغدقوا على الجنود المؤونة.

وفي تلك الأثناء استولى الأتراك على كل مراكز المدينة ومنشآتها الدفاعية واستحوذوا على المدافع المنتصبة فوق التحصينات. وعلى إثر ذلك أصدر الآمر الجديد بلاغا يدعو فيه أصحاب المدينة إلى تسليم أسلحتهم لعدم جدواها ما دام معه من العتاد ما يكفي لحماية مدينتهم. وأحسّ أهل طرابلس عن حقّ بالخدعة لكنهم رضخوا أمام القوة واستجابوا للطلب. وتلقّى أهل الريف بدورهم أمرا مماثلا لكنهم لم يذعنوا وفضّلوا الانسحاب الى داخل البلاد. وفقد الأخوان، زعيما عرب الريف الثقة في أيّ طرف كان، ففرّ الأول الى مالطا وانتحر الثاني لخيبته ممّا لحقه من غدر. ولكن على اثر بعض المفاوضات انصاع أهل الريف بدورهم وسلّموا السلاح. وخلال كل هذه الأحداث مكث الآمر التركي على متن سفينته ولم يتجرّأ على النزول الى البرّ. وعندما تيقّن من نجاح خطّته تماما نزل الى البرّ وقام بزيارة علي. وبعد أن حظي باستقبال فاخر وبضيافة جديرة بالملوك عاد الى سفينته ووجه بدوره الدعوة الى علي لتكريمه. ولبّى الباشا المخدوع الدعوة واستقبل هو وأتباعه بالتقدير والتبجيل وأقيمت على شرفه مأدبة فاخرة. ولما همّ بمبارحة السفينة، أظهر الباشا فرمانا من لدن السلطان يتضمّن أمرا لعلّي بالتحول الى القسطنطينية

(27) استعملنا هذه الكلمة التركية لترجمة ما معناه « ذنب حصان » وذلك بالاستناد إلى : H. Hugon : Les emblèmes des Beys de Tunis. Paris 1913, p. 81

وبتسليم مقاليد حكم طرابلس الى نديب باشا ــ هكذا يدعى آمر الأسطول ــ حتّى يأتي ما يخالف ذلك. ومنع الأمير الشقيّ من الرجوع الى قصره ومن الغد كانت السفينة تشقّ به وبأتباعه المقربين عباب البحر صوب عاصمة الأمبراطورية التركية. وأمسك نديب باشا بزمام الحكم واتّخذ لنفسه من قصر آل قرمانلي مقرّ إقامته. وأبعد يوسف باشا، وهو شيخ هرم في الثمانين من عمره، ومعه نساؤه الثلاث وأطفاله، وأجريت له من باب الشفقة جراية أسبوعية قدرها ثلاثون « غولدن ». وبهذه الصورة انتهت ثورة طرابلس الأخيرة، التي تسبّبت على مدى ثلاثة أعوام في اقفار المدينة من أهلها وفي افقارها وهدم كيان تجارتها، وفي الحاق ضرر بالقطر لن يزول أثره عمّا قريب. ولا ريب في أنّ دولة طرابلس سوف تظل إقليما خاضعا لتركيا وتدخل بذلك في عهد جديد.

طرابلس في 10 سبتمبر 1835

تتألف الحامية التركية من 4500 رجل زيّهم وتدريبهم أوروبيّا النمط تماما. وعلى العموم فإن هيئتهم حسنة، الاّ أنهم يجدون صعوبة في الالتزام بالوقوف فترى العديد من الحراس جالسين في تمام الراحة في مواطن حراستهم، إمّا على كرسيّ أو على حجر قاموا بجلبه. ذلك أنهم يؤمنون إيمانا صريحا بأن الحراسة جلوسا لا تقل نجاعة عنها وقوفا. ومن منغّصاتهم أيضا واجب لبس الأحذية والجوارب. لكنهم عادة ما يتخلصون من هذا العبء دفعة واحدة أو أنهم ينتعلون الحذاء وكأنه مجرّد شبشب. وقد راعني أخيرا مشهد آمر كتيبة أثناء قيامه بتدريب رجاله، وكان صدره يتحلّى بنجمة وهلال من الألماس وينتعل شبشبا سبق أن كان حذاء. وكان منكبّا هو ورجاله، الذين منهم من انتعل الأحذية ومنهم من تخفّف في الشباشب، على تطبيق قواعد المدرسة الأروبية. ونظرا الى تقيّد المسلمين بالصلاة خمس مرّات كل يوم وبغسل الأيدي الى المرافق والأرجل الى الرّكب [كذا] قبل كل صلاة، فإنه يسهل علينا فهم هذه المضايقة الناجمة عن البزّة الحديثة العهد. الاّ انه يسيء إلى العين الأروبية كلما تبصر ضابطا يرتدي البزّة الأروبية الطراز وهو جالس القرفصاء أمام دكان حلاق، حافي القدمين منهمكا في اللّعب مع صاحب الدكان، وهو مشهد مألوف، كثيرا ما يعترضنا ــ أو عندما نراه يمشي بتزمّت متكلّف بينما سار خلفه بعض أعوان الخفر وخادم يحمل الغليون والجراب والسيف. وبصرف النظر عن ذلك فإن سلوك الجند مثالي لا عيب فيه. وقد مرّت على حلول نديب باشا بطرابلس أربعة أشهرولم يؤدّ بعد زيارة واحدة الى مسجد من مساجد المدينة، ممّا أثار كثيرا من الاستغراب بين الأهالي المسلمين. وأول أمس تفضّل صاحب السمّو بأداء هذه الزيارة. وتمّ نصب الجنود على طول الطريق الرابطة بين القصر والمسجد وأعلن عن قدوم المعني بطلقات مدفع. وجاء الباشا يتقدمه حرسه الخاص، وعددهم خمسة وعشرون

رجلا يرتدون الزيّ التقليدي الأصيل ويتقلد كل واحد في حزامه مسدسين وسيفا ويمسك في قبضته عصا غليظة مطعمة بالفضّة. وتبع هؤلاء الباشا نفسه، وهو رجل وسيم ذو لحية سوداء، له من العمر زهاء خمس وثلاثين سنة. وكان يعتلي صهوة جواد بهي المظهر ازدان بأفخر زينة وأغلاها. وعند ظهوره أدى الجند التحية العسكرية، في حين توخّى الضباط تصويب السيف نحو الأرض ولمسها باليد اليسرى ثم تقبيلها.

لقد بلغت الحرارة مستوى لم أعهده قط من قبل. وعمد الناس إلى إيصاد الأبواب والنوافذ اتقاء من الشمس والريح. ولم تقلّ بذلك حدّة القيظ ناهيك أني كنت طول النهار أتصبب عرقا وكأني في حمّام، وفشل الجسد وصار عاجزا عن أدنى نشاط. وكانت الريح تهب من الصحراء جافة لافحة. ولئن كانت تسهم في انضاج التمور وتؤدي بذلك نفعا في هذه البقاع فإنها مضرة جدّا بصحّة الأروبيين.

قدم يوم أمس باشا طرابلس الجديد ويدعى أحمد. وقد استقبل بدويّ مدفع يصمّ السمع. غير أنه لم يستبشر بقدومه سوى الأتراك. بينما زاد العرب في التقهقر إلى داخل البلاد. ودعي نديب باشا الى العودة وسوف يرحل بعد بضعة أيام. كما نزل على يوسف المسنّ أمر بالتحول صحبة كافة عائلته وأقربائه الى القسطنطينية ويهدف هذا القرار الى محو اسم قرمانلي من مملكة طرابلس، وهو مؤشر جليّ على أن الباب العالي مقر العزم على فرض سيادته على البلاد على وجه الدوام. ويتجاوز الاستياء الذي قوبل به هذا الاجراء الجديد كل التصورات وبالتالي صار العرب يتجنبون المدينة ولا يرتادونها الا نادرا.

لقد اتخذت لنفسي مبدأ التزمت به طيلة رحلتي وهو أن أطوف عبر أرجاء المدن بمفردي قدر الامكان وأن لا أتوجه بالسؤال عن هذا الأمر أو ذاك إلاّ الى من لاقيته بمفرده، ثمّ أفاتحه في بشارة الانجيل بعد ربط الحديث معه. وعلى هذا الأساس لقيت نفسي قبل بضعة أيام أمام باب المدينة الذي يفتح على البحر والتفتّ الى الضفة المقابلة فرأيت الأتراك بصدد القيام بمناورات. فاستقللت زورقا وقصدت المكان. وبعد أن تحاورت مع بعض

المتفرجين أردت أن أعود الى محلي. ولم يسبق لي أن وضعت رجلي في هذه الناحية من المدينة، لذا رأيتني أتجه قدما صوب الباب الذي كان مفتوحا أمامي، فاذا بي في مجاز مقبّب به عديد الحرّاس. وقلت في نفسي : « لابد أن هذا هو مدخل المدينة »، بيد أن بعض الشكوك ظلت تساورني. والتفتّ حولي عسى أن أجد من أسترشده. وأقبل نصراني فخاطبته باللهجة الافرنجية (Lingua Franca) قائلا: « هل يجوز المرور من هنا ؟ » فأجاب بنفس اللهجة : « طبعا ! » فواصلت السير. ووجدت السرداب المقبّب أطول ممّا توقّعت، وكان يعترضني من حين الى حين أحد جنود الحراسة. « يا له من ممر طويل مظلم ! » هكذا قلت في قرارة نفسي، واستبشرت لما أبصرت أخيرا ضوء النهار. ولكنّ سروري لم يطل، فما ان خطوت خطوات حتى وجدت نفسي قبالة درج. وصعدت الى فوق فغمرتني العتمة من جديد. وحثثت الخطى راجيا أن ينتهي هذا السحر العجيب. وسلكت ممرا حالك الظلمة وصعدت بضعة أدراج ومررت بحرس كثيرين، الى أن انتهيت الى باحة صغيرة عارية حوت مدافع. حينئذ تيقّنت تمام اليقين ان الباب الذي دخلت منه لم يكن باب المدينة. ولكن أين أنا ؟ هذا السؤال بقي كاللّغز. ولم تجد محاولاتي في مخاطبة رجال الحراسة نفعا، اذ ما كانوا يفهمون كلامي واكتفوا بالاشارة باليد الى الأمام. وواصلت السير حتى اعترضني درج خشبي صغير. « ما العمل يا ترى ؟ أأعود أعقابي ؟ من يدري، لعلك تتيه أكثر مما تهت في هذه الكهوف السحرية ! » هكذا قلت في نفسي قبل أن أقدم على تسلّق الدرج. ولما بلغت الدرجة القصوى تجلّت لي ساحة غير فسيحة، توسط واجهتها باب مفتوح على مصراعيه. ونظرت عبره، فيا لدهشتي ويا لذهولي! لقد اكتشفت أني أوجد داخل قصر الحاكم وعلى باب قاعة العرش، وقد احتوت على أثاث أروبي وكرسي حكم مزركش زركشة فاخرة بالذهب. وامتلكني حرج كبير أخذ يتعاظم من لحظة الى أخرى، غير أني كرهت أن أظهر شيئا منه بسبب جند الحراسة الكثيرين فابتعدت بسرعة عن المكان. ووجدت نفسي مرة أخرى وسط ممرّ مظلم يلتوي يمينا تارة وشمالا تارة أخرى. ومررت أمام أفنية وقاعات، دون أن

يعترضني أحد سوى عساكر الحراسة الأتراك. وصعدت أدراجا ونزلت أخرى ولم أعثر على المنفذ المنشود للخروج من هذه المتاهة. ولم أترك أحدا من جند الحراسة دون أن أتوجه اليه بالسؤال، مستعملا كل ما في متناولي من اللغات. ولكني لسوء حظي لم أكن أفقه التركية فلم أجن من أسئلتي على اختلافها سوى الاشارة الى الأمام. ثم لقيتني من جديد أرتقي درجا عديدة الى أن انتهيت آخر المطاف أمام باب، فتحه لي الحرس الذي كان واقفا أمامه دون أن ينبس بكلمة. وصوّبت النظر فانتابني الدوّار : لقد كنت في أعلى نقطة من القصر وأقصاها. وقلت للحرس اني أريد الخروج من القصر فأشير إليّ مرة أخرى الى الأمام. واتبعت الطريق الذي كان يحدّه جدار تظهر عليه بين الفينة والأخرى آثار الاصابات التي ألحقتها به نيران العدو. وتعيّن عليّ هنا ملازمة الحذر خشية أن أقع في الهاوية. وانتهيت بعد ذلك الى ساحة عارية توسطها بعض الضباط الأتراك. وقلت في نفسي : «لا بدّ انهم يفهمون العربية أو ربّما بعض اللغات الأروبية ». وخاطبتهم بالعربية أولا ثم بشتّى اللغات الأروبية لكن بدون طائل، فكأني بهم أيضا أصيبوا بالبكم، وكل ما أفادني به هؤلاء الصناديد إشارة الى درج. ولم يكن لي خيار سوى اتباع النصيحة. وقلت في نفسي : « من حسن طالعك أن الوقت ما زال باكرا فيا للحيرة إذا حان المساء !» وارتقيت الدرج برباطة جأش فبلغت شرفة وأمعنت النظر فكادت عزائمي تخور. لقد تربع في هذه الشرفة الباشا نفسه على أريكة فاخرة وحفّ به بعض الكبراء. وفسح لي الحراس الطريق، ربما لأنهم ظنّوا أني ألتمس مكالمة صاحب السمو التركي. وأسرع نحوي فجأة أحد الكبراء ــ وهو الوزير الأول ــ وقال لي باللهجة الافرنجية (Lingua Franca) : « تفضل، اقترب، هل من خدمة أقدمها لك ؟ » فأجبته بأني دخلت القصر على وجه الخطأ وها قد مرّت ساعة وأنا أبحث عن المخرج بدون جدوى. وسأل الوزير : « ما هي جنسيتك، هل أنت فرنسي ؟ » فأجبته : « كلاّ يا سيدي، أنا ألماني تحت حماية أنكلترا. » ودعا أحد

الحرس وقال له « كابيا(Capia)(28) » فردّ بالمثل : « كابيا ». وأعاد الوزير نفس اللفظة وأردفها بكلمات أخرى لم أسمعها جيّدا. بعد ذلك رجاني أن أقتفي أثر الحارس فشكرته واستأذنت وتبعت الرجل الذي أوصلني في فترة وجيزة سالما الى المنفذ الذي كنت أبحث عنه بلهفة واشتياق. وألفيت نفسي أمام الباب الذي دخلت منه. ويدعى ذلك الوزير الأول الذي أسدى اليّ هذا المعروف ساعة حرجي في حضرة صاحب السموّ التركي « بيت المال » [كذا] وقد رأيته فيما بعد مرارا عديدة. وكان يشغل نفس المنصب حتى تحت حكم الباشا الأسبق، يوسف. وقد لعب دورا هامّا أثناء الثورة وساند في البداية شقّ المدينة ثم انضم الى شقّ الريف. وأبحر بنفسه الى مالطا وجهّز عدة سفن وعاد بها ليقذف المدينة بالمدافع من جهة البحر. وعند وصول الأسطول التركي التجأ الى سفينة حربية أنكليزية كانت راسية في عرض طرابلس. الاّ أن الباشا الجديد حثّه على النزول الى البر ضامنا له الأمان من كل سوء. وها هو يرتقي مرة أخرى الى منصب وزير أول، لا سيما وان الحكومة الجديدة في حاجة أكيدة اليه تجعلها تكاد لا تستطيع أن تكون في غنى عنه، نظرا الى خبرته الدقيقة بكامل القطر والى كثرة أصدقائه بين الأهالي العرب.

(28) لفظة تركية معناها : إلى الباب .

XVII

طرابلس في 15 سبتمبر 1835

ان طرابلس أو « أورا » (Ora)، كما كانت تعرف لدى القدامى، أصغر من تونس ومن الجزائر، لكنها تفوقهما من حيث النظافة، شوارعها عريضة ومنازلها لا تختلف عمّا هو مألوف في مدن ساحل شمالي افريقيا عموما، باستثناء منازل القناصل الأروبيين، وعددها أحد عشر منزلا يحق نعتها بالجميلة، وهي مؤثثة بجميع المرافق التي يجد فيها الأروبي الراحة والرفاهة. ويشكل قصر الباشا الأسبق كومة غير متناسقة من البناءات، أنجزت، على ما يبدو، تدريجيا وحسب الحاجة، ويتصل بعضها ببعض بواسطة الممرات الداجية التي تهت فيها أخيرا. ويقال إن طرابلس كانت تؤوي قبل الثورة ثمانية عشر ألف مسلم وأربعة آلاف يهودي وألفين من النّصارى. أما اليوم فلا يتجاوز عدد سكانها النصف أو أقل. فقد هجر المدينة أثرياؤها، غالبهم إلى مصر وأماكن أخرى، ولم يعودوا. وهذا ما يفسر أني وجدت صفوفا بأسرها من الدكاكين مغلقة وشوارع برمتها خالية من السكان. ويرتدي مسلمو المكان لباسا هو أقرب الى لباس عرب البادية منه إلى لباس مسلمي المدن. كما نفتقد هنا العلوم والمعرفة التي ما زال منها شيء في مدن إسلامية أخرى. ويتعيّن على من أراد تحصيلها من أهل طرابلس الذهاب الى تونس أو الى مصر. وكان سوق العبيد قبل اندلاع الثورة أهم هذه الأسواق على كامل ساحل إفريقيا الشمالي. فلقد كان يستقطب قوافل جرارة من أولائك البؤساء أصيلي باطن إفريقيا ومن هنا يؤخذون للبيع على طول الساحل. أما اليوم فقد صار تجار العبيد يسلكون طريقا غير طريق طرابلس. وما زالت توجد هنا وهناك آثار من عمارات رومانية عتيقة على غاية من الجمال. بيد أن أعجب هذه المعالم من الفنّ الروماني القديم قوس نصر محلّى بالنقوش البارزة، وهو لا يزال قائما في حالة جيّدة من الصيانة على مقربة من باب البحر داخل المدينة. وقد شيّد في عصر أنطونيوس بيوس. ونرى اليوم مالطيا اتخذ لنفسه من هذا المعلم دكانا.

يناهز عدد النصارى الكاثوليك المقيمين حاليا في هذا المكان الألفي نسمة. وبصرف النظر عن بعض العائلات الفرنسية والايطالية والاسبانية فإنهم على الاجمال من المالطيين. وقد تقبّل مني كثيرهم الكتاب المقدّس بكل سرور. ويوجد هنا دير للرهبان الكابوشيين يعود تأسيسه إلى العهد القديم. وبناء على أن الأب رئيس الدير كان عادني خلال مرضي فقد رأيت من واجبي أن أعيد له الزيارة. وتحادثنا معا طيلة ساعات عديدة فلقيت فيه رجلا ذا اطلاع ودراية، يجمع بين كثير من اللطافة والمحبّة وسعة الاطّلاع. وسرعان ما غلب على حوارنا الطابع الجدلي. وسعى بكل ما توفر لديه من معلومات إلى الدفاع عن منزلة البابا وتبرير عادة تمجيد القدّيسين والاعتقاد في الذخائر المقدّسة. وقد أثار انتباهي وفضولي حين وسم العذراء مريم بـ«السيدة العظيمة»، وهي تسمية لم أعهدها قط من قبل. وبما أن حججه لم تكن مستمدّة من الانجيل فقد سهل عليّ بالاستناد إلى كلمة الربّ أن أجيبه على كل نقطة الاجابة الملائمة. ولم يكن صاحبنا في الواقع من محبّي الكتاب المقدس بل أظنه ضرب عليه الحجر في بعض الأحاد. أما تصريحاته في شأن « لوتر » فقد اتسمت باعتدال فاق ما كنت أتوقع من راهب مثله. وقال ان « لوتر » هو أحد أبناء الكنيسة وانه كان مسيحيا صالحا ولكنه طلب الكثير، فرغم أنه كان لا يعدو أن يكون مجرد راهب متواضع فقد طالب بأن يتذلل له البابا، أفليس ذلك بطلب فادح بالنسبة الى زعيم الكنيسة ورأسها ! وعلمت من الأب القسيس أيضا خبر نشأة الدير وتاريخه. ففي سنة 1687 أرسل مجمع التبشير بروما راهبا كابوشيا الى هنا مبشرا. وسرعان ما وفّق هذا في نيل ثقة الباشا الحاكم وصداقته، وحصل منه على إذن خاص في بناء كنيسة ذات ثلاثة نواقيس — وهو امتياز يكاد يكون منقطع النظير في سائر بلاد الاسلام — ودير لإيواء الرهبان الذين سوف يلحقون. ولكن التخلي عن عقيدة النبي الدجّال والدخول في خدمة يسوع المسيح فاشتعل غيظ أهل البلاط ضد المبشّر المخلص ولم يهدأ لهم بال إلّا حين صدر القرار بإعدامه. وتمّ نقل الأب القسيس خارج باب المدينة حيث كانت المحرقة في انتظاره. وتبع النصارى الذين اجتمعوا في هذه المدينة زعيمهم الروحي

في كدر وهم ينوحون ويندبون حظهم، قائلين : « واويلاه ! ما عسى يكون مصيرُنا عندما تذهب عنا وتفارقنا ؟ » فأجابهم ببشر : « سأترك لكم قلبي ». فيا للدهشة ويا للعجب حين جمعوا رماد الشهيد فوجدوا تحته القلب سليما لم يلحقه أدنى ضرر. ونقل هذا القلب في وقت لاحق الى القدس ويقال انه محفوظ الى الآن هناك في دير الرهبان الكابوشيين حيث تتسنى مشاهدته. وأرسلت روما اثر ذلك قسّا جديدا لتولّي مكان سلفه ولتثبيت الحقوق التي كسبتها الكنيسة قدر الامكان. ووصل القسّ وأدى للباشا زيارة التعارف فوقع من نفس الباشا موقعا حسنا وأغدق عليه هذا من جزيل فضله كما أنه وعده بأشياء كثيرة في صورة ما اذا ارتدّ عن ديانة المسيح وصار مسلما. أغرته هذه الوعود وأسلم. وعلى إثر هذا جاء من بلاد المسيح أربعة ممن أخلصوا الايمان للربّ ولاموا المرتدّ على خيانته بمحضر من الباشا فنالوا ميتة الشهداء. وقدم فيما بعد كابوشيون آخرون واستعاد الدير من جديد مكانته المميزة في ظل حكم الباشوات اللاحقين، الذين حباه بعضهم بالهدايا. إلّا أن دولة طرابلس تمكنت قبل زمن طويل من حمل فرنسا التي يقع الدير تحت حمايتها على ابرام عقد ينص على أن يقتصر تبشير الرهبان الكابوشيين على النصارى ويمنع عليهم منعا باتّا فعل ذلك بين المسلمين.

ويوجد هنا من النصارى الانجيليين نحو الخمسين نفرا منهم عائلات خمسة قناصل أروبيين — وقد يكونون ستة أحيانا — لكن لم يحدث على الاطلاق أن أمّ المكان قسّ انجيلي. وفي سنة 1830 فقط تكتّل البروتستان المقيمون بالمكان وهيّأوا مقبرة خاصة بهم تقع على حوالي ساعة من المدينة. وقبل بضعة أيام مات للقنصل الأمريكي طفل فشيّعت الجنازة الى المقبرة حيث أقيمت صلوات الجنازة المعتادة. ومنذ إقامتي بالمكان التأم شمل حفنة النصارى الإنجيليين يوم أحد في القنصلية الأنكليزية فأقمت بهم القدّاس وناولتهم العشاء الربّاني.

طرابلس في 18 سبتمبر 1835

قبل بضعة أيام حصلت في يدي صحيفة « مونيتور ألجيريان »(29). وبدا لي كأني بمحررها يحمل فكرة مميزة عن فحوى كلمة « حضارة » اذ هو يسوق في صحيفته أن الرحالة الألماني الشهير الأمير بوكلير موسكاو جاب الجزائر وقام بجولة داخل القطر حيث احتفى العرب بقدومه أينما حلّ وأحسنوا ضيافته. ولما كان الأمير ينقل معه حملا من القوارير ملؤها أجود الخمور فقد كان يقدم منها من جهته الى مضيّفيه من العرب. وتقول الصحيفة إن هؤلاء كانوا يتناولون الخمر بدون كبير إلحاح وقد قرعت الكؤوس على نخب الحاكم الفرنسي، كما أن قائد بني موسى ذهب الى حدّ التفضل بقبول زجاجتين من أرفع الخمور، وما هذه سوى بادرة من بوادر التمدّن. وهكذا نستنتج أن تقبّل زجاجتي خمر يعني بادرة تمدّن وأنّ شرب الخمر تقدّم في مجال الحضارة. وعلى هذا الأساس فإن ثقافة الإنسان، حسب هذا المحرر، تقاس بشرب الخمر فبقدر ما يشرب يرتفع مستواه الحضاري. ولو صحّ هذا لقلت انّ مسلمي ساحل إفريقيا الشمالي حققوا خطوات جبّارة في مجال الحضارة، ويحتلّ حاليّا أهل طرابلس بالأخص مكانة مرموقة في العالم المتحضّر إذ نجدهم كلهم دون استثناء يشربون الخمر وقلّ أن اعترضني مسلم منهم لا يحب الخمر حبّا جمّا.

ويعيش هنا من اليهود حاليا نحو الألفين يسكنون حيّا خاصا بهم وبرسمهم ثماني عشرة بيعة ومدرسة عليا لدراسة التلمود. ويترأسهم « قايد » من صلبهم يضطلع بمهام قاض أول فيما يتعلق بالقضايا المدنية. ويدفع اليهود الى الدولة نحو ألف « تالير » في السنة وبوسعهم تعاطي ما شاؤوا من المهن والحرف.

(29) هي صحيفة «Le Moniteur Algérien» وقد أفردت الرحالة الأمير بوكلير موسكاو ، في عددها الصادر يوم 13 مارس 1835 ، بمقال طويل ، لا شك أنه الذي يعنيه ايفالد هنا .

وكان عليهم فقط، فيما مضى، أن يحترسوا كي لا يصل مسمع يوسف باشا ـــ الذي كان في حكمه أقسى من هيروديس ـــ أنّ لديهم مالاً. وقد وظّف هذا الباشا يهوديا ناظرا على السكّة فكان كل ما تضربه الدولة من نقد يمر على يديه. وبعد أن أشرف هذا اليهودي على قطاع السكة سنين طوالا وتقدم به العمر أمر يوسف بمصادرة كامل ثروته وعيّن ابنه خلفا له. وما ان مرّت فترة وجيزة على توليه الخطة حتى دعاه الباشا الى تناول القهوة معه. وكانت القهوة مسمومة فمات الشاب المسكين تمزقه آلام قاسية. ولم هذه الجريمة ؟ السبب هو أن أحد غلمان الباشا ربط علاقة مع ابنة مولاه وصادف أن أبصرهما اليهودي يوما يتخاطبان. ثم انّ الباشا اكتشف صنيع ابنته فاغتاظ شديد الغيظ من وقع العار الذي لحق بيته. وأمر بقتل العبد أشنع قتلة ثم تحرّى في معرفة ما إذا كان هناك أي شاهد على علاقة ابنته وعشيقها. ومن سوء حظ ذلك اليهودي أنه لقيهما مرة في حديث وحتى لا يتفشّى السرّ تحتّم أن يموت. وبعد أن تمّ ذلك دعا يوسف شقيق الاسرائيلي المسموم إليه وأوكل إليه إدارة السكة. وبعد أن باشر هذا الخادم الأمين وظيفته بكل حذق مدة ثلاثة أعوام رجا من الباشا أن يعفيه ويشغّل أحدا غيره. وقدم حسابا مضبوطا وسرى في اعتقاده أن طلبه حظي بالرضا. ودعاه يوسف إليه وقال له : « أعطني 600 « تالير » كي أقيلك من مهمتك. » فرد عليه اليهودي : « من أين لي بهذا المبلغ يا سيدي ؟ » فقال الباشا : « لا تماطل كثيرا، ادفع والاّ رمي بك في السجن ونلت، غدا مائتي جلدة على باطن قدميك ثم أفرض عليك 800 « تالير ». » وأصرّ الرجل المسكين مؤكدا على افتقاره إلى المبلغ المطلوب فزجّ به في السجن وجلد في اليوم التالي مائتي جلدة واشترط للإفراج عنه 800 « تالير ». ودفع الأحباب والأقارب الغرامة فأطلق سراح مدير السكة. ومثل هذا، بعد الافراج عنه، أمام الباشا وقبّل يده فتحيّرت فيه، أي الباشا، روح السخاء والكرم فوهب اليهودي « تالرين » اثنين على أساس أن يحضر لنفسه بهما طبيبا.

ولا تتوقف ممارسات القهر التي يزخر بها حكم يوسف عند هذا الحدّ. من ذلك أيضا أنه اغتال أخاه في عقر بيت أمه ودبّر لقتل أخ ثان له، ولا

سبيل الى حصر بقية ضحاياه الذين تعرّضوا لنقمته. ويوجد في القصر جبّ عميق كانت تلقى فيه جثث القتلى. لكنهم كانوا أكثر مما كان للجب أن يستوعب فتعيّن تنظيفه لكي يتّسع لضحايا جدد. وحدث ذات مرّة أن أثار أحد وزرائه جام غضبه فتقرر بذلك سفك دمه. وبعد مرور فترة قصيرة دعاه إليه وفاتحه في أمور عادية ثم قال له في الختام: « يمكنك أن تأتي غدا باكرا لتشاركني فطور الصباح. » وابتهج الوزير بهذه الحظوة وقبّل يد مولاه وانصرف. وأكّد عليه الباشا الماكر قائلا: « لا تنس أن تحضر لفطور الصباح غدا. » لكن ما ان خطا بضع خطوات حتى انقض عليه مماليك وزهقوا روحه خنقا.

وندّد ذات مرة أحد شيوخ الأعراب جهرا بطغيان يوسف. فلما وصله الخبر عمل على جلبه الى قصره الى أن وقع في الفخ دون أن يتفطن الى ما كان يترصده من شرّ. وكان يوجد في حضرة الباشا عربيّ فالتفت إليه قائلا: « عندما ترى هذا الرجل المقبل علينا الآن ينزل الدرج منصرفا اقتله وسأعيّنك مكانه على رأس قومه». وهناك حيث كمن القاتل الغدار في أسفل الدرج ودّع الباشا الشيخ تاركا إياه يموت بطعنة خنجر. وقامت ضوضاء في القصر فأسرع الباشا الى المكان وسأل عمّا جرى فأطلع على الجثة وعلى المجرم فصاح فيه: « أيها الكلب اللعين أتجرأ على اغتيال صديقي في عقر داري! فليقطع رأس هذا اللعين في الحال. » ونفذّ فيه الاعدام دون تأجيل.

وطفح الكيل بآثام هذا الرجل وها هو سيّد كل الأسياد ينزل بالطاغية الهرم ما يستحقه من عقاب على تصرفاته فبعد أن انتزع منه كرسي الحكم، وجب عليه، وهو شيخ في الثمانين من عمره، انهاء ما تبقى له من أيام منفيا في القسطنطينية، منبوذا فقيرا.

طرابلس في 20 سبتمبر 1835

تمثل مملكة طرابلس واحدة من أكبر دول القرصنة البائدة على ساحل افريقيا الشمالي. وتمتد طولا من زواره الى « رأس هاله »(Ros Hala) 900 ميل أنكليز ويحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وجنوبا تونس وشرقا مصر وغربا مملكة فزّان. وما زال باطن القطر مجهولا بالقياس الى مملكة تونس والجزائر. واستنادا الى أقوال العرب فإنه توجد في الداخل آثار هامة من عصور الرّومان. وتقع على الساحل مدينة من أهم المدن هي بنغازي أو « برنيس » (Berenice) كما سماها القدامى. ولها مرفأ حسن نسبيا وتعد 400 ساكن [كذا]. ومن بنغازي تستورد الحامية العسكرية بمالطا غنم الذبيح كما يصدر من هناك الصوف بكثرة. وتقيم ببنغازي عدة عائلات مسيحية يملك الكاثوليك منها كنيسة ويرعى شؤونهم الدينية أب كابوشي. كما يوجد نائب قنصل أنكليزي وآخر فرنسي. وتوجد قرب بنغازي آثار « بطليموس » (Ptolomais) حيث لا تزال تكمن أعداد من التحف العتيقة العجيبة. ويملك القنصل الأنكليزي بطرابلس مجموعة لا يستهان بها من هذه التحف كشفت عنها حفريات كلف بالقيام بها صهره، نائب القنصل ببنغازي. وهي مجموعة لم يسبق لي قط أن شاهدت عيني أروع منها. ويجدر بالذكر أيضا مدينتا « درنة » و« بنبه » (Benba)، الواقعتان فوق [كذا] طرابلس، لامتيازهما ببعض الأهمية. ويزدان الشريط الساحلي على طوله وعلى عمق بعيد بزراعة حسنة وبكثافة عمرانية هامة. وينمو بالخصوص النخل الذي يجد في هذه الأماكن وطنه الحقيقي. وتفضّل تمور طرابلس على غيرها.

وعلى مسافة يومي سفر فقط من تونس [كذا] تقع آثار لبده (Lepedia)، أي بقايا المدينة الشهيرة المعروفة لدى القدامى بـ« لبتيس ماغنه » (Leptis magne). وهي من تأسيس الفنيقيّين وتعدّ من أقدم مدن إفريقيا. وجاء عن بلينيوس انها كانت تدفع للقرطاجيين خراجا قدره يوميا « طالنت » (Talent)،

وما زالت بها أطلال معبد ماثلة للعيان وعدة أقواس نصر ومجاري مياه وأعمدة وغير ذلك. وقد أمر القنصل الأنكليزي بطرابلس بالحفر عن تحف فنية عديدة بعث بها الى أنكلترا. وما زال باطن الأرض يحوي العديد منها في انتظار محبي الفنّ من الأروبيين ليكشفوا عنها.

وبقدر ما نرى حاليا نسبة السكان في مدينة طرابلس ضعيفة فهي مرتفعة في الأحواز القريبة المعروفة بـ« المنشية » ويقدر مجموع سكان الريف في أحواز طرابلس بـ300.000 نفس، يسكنون كلهم الجنان كما هو الحال في جربة تقريبا، حسبما سمعت. وترتفع في أحواز المدينة عشرة ملايين نخلة تدر عليها دخلا يناهز خمسة عشر مليون « غولدن » في السنة. وبالرغم من أن تربة منطقة « المنشية » تحتوي على نسبة من الرّمل فإنها مع ذلك شديدة الخصوبة. وينوه أناس كثيرون بالمناخ المحلي وقد أكد لي القنصل الأنكليزي، المستقرّ هنا مع عائلته منذ أزيد من عشرين سنة، أنه فضلا عن الرّمد المنتشر بكثرة لا تعرف هنا أمراض على الاطلاق. وليس من النادر أن يعمّر الأهالي الى ما بين 110 و130 سنة.

لقد وجدت أهالي المكان على قدر كبير من لين الطّبع مما سهّل عليّ الدخول معهم في الحديث ومفاتحتهم في حقائق ديننا المنقذ. وينطبق الأمر على اليهود أيضا. وقد نفدت كل ذخيرتي من نسخ الانجيل، بعد أن وزعت منها رصيدا لا يستهان به. وبفضل ذلك انتعش العديد من المسلمين واليهود والنصارى بكلمة الحياة. وأدعو الربّ أن ينفح من لدنه حقول الزرع بنفسه المحيي حتى تخضر وتينع ويتصل خيرها الى دنيا الخلود.

جربة في 12 أكتوبر 1835

ها أنا ذا ثانية في هذه الجزيرة المليحة. لكن على عكس ما سبق لم أحظ هذه المرة بإقامة طيبة، وذلك لما وجب عليّ تحمّله من حجر صحي طويل المدى. لم تستغرق سفرة الإياب أكثر من يومين وما أن بلغنا جربة حتى فرض علينا الرضوخ للحجر الصحي طيلة عشرين يوما. وقد نزل عليّ هذا القرار نزول الصاعقة لأني خشيت أن تكون إقامة طويلة كهذه في العراء، وتحت سماء كثيفة النّدى ليلا على العموم، فاتكة بصحتي وقد أخذ منها الانهاك مأخذا. لذا رأيتني أرسل في طلب مضيّفي السابق، سيدي مصطفى، ملتمسا منه المجيء فأتى. ورجوته أن يبذل ما في وسعه لكي يمكّنني من غرفة آوي إليها لعجزي عن أن أتحمّل طويلا ما فرض عليّ من ظروف قاسية. وكان الوالي يملك منزلا قرب البحر فأسرع إليه مصطفى حالا وبسط عليه وضعي الحزين والتمس منه الاذن في السماح لي بقضاء فترة الحجر الصحي في منزله هذا. فاستجيب للطلب وأفرغت لي غرفة من غرف المنزل وانتقلت إليها، وكاد هنائي يكون كاملا نسبيا، لأني كنت محفوفا بأعز أصدقائي أعني كتبي التي تفي بالحاجة. غير أنّ جيوشا من الذباب كانت تقاسمني الغرفة وبالتالي تمنعني من الكتابة وتعطلني حتى عن القراءة. ومكثت ليل نهار في حركة دائمة، تارة أثب من مقعدي أو مضجعي وتارة أرفس برجليّ وتارة أخرى ألوّح بيديّ وأحيانا ألقي بمنديل على وجهي. فكانت تلك أيام تعيسة لم تتزحزح الاّ ببطء، ولكنها مرّت وانقضت بعون الاله وانفتح أمامي الباب فاستمتعت بطعم الحرية وبجمال الطبيعة التي تمتاز بها هذه الجزيرة.

ان المسلمين لعلى جهل تام بمفهوم التدابير الصحية سواء تعلق الأمر بالوقاية من الطاعون أو الكوليرا. الاّ أن الأروبيين توصّلوا أخيرا بعد سعي حثيث الى فرض الحجر الصحي بمملكة تونس على سائر السفن الواردة من موانيء مشكوك في أمرها. ورغم الصّبغة الرسمية التي يكتسيها هذا الاجراء

بكونه قرارا صادرا عن الحكومة فإن عامة الناس لا يدركون جدواه وجدوى أمثاله من التدابير الوقائية وإن قليلا، وذلك، بدون شك، لتنافيها مع تعاليم دينهم. ففي تصوّرهم أنّ الانسان يموت حتما إذا حضر أجله، سواء أكان هناك حجر صحي أم لم يكن. ونجد هذا الاعتقاد راسخا حتى في أذهان أكثر العرب ثقافة. فقبل بضعة أيام قدم أحد سكان الجبال الى سوق جربة وبعد قضاء شؤونه أراد على عادته التنزه على شاطىء البحر. ولكن لسوء حظه أتى على مقربة من محطّ القادمين من طرابلس، فصاح به الحرس : « ابتعد ! هنا « الكارنتيليا » » — ذلك أن الأهالي المسلمين ينطقون « كارانتيليا » عوض « كارانتان » (30)— واندهش « الجبالي » للفظة لم تطرق مسمعه من قبل وظن أن هناك حيوانا عجيبا أو وحشا بحريا وظن الطائفة من البشر الموجودين على عين المكان مجتمعين للفرجة على الحيوان العجيب فرأى أنّه من حقّه أيضا الفرجة واشباع الفضول وقصد المكان. عند ذاك هتف جندي الحراسة بأعلى صوته : « كارانتيليا ! كارانتيليا ! » والتفت الأعرابي حواليه فلم يستجل ما يثير الانتباه. وأدّى الهتاف المبرح الى مجيء « رايس المرسى » الذي أمر حالا بطرح ساكن الجبل المذهول أرضا وجلده عشرا على باطن قدميه. وبعد تنفيذ العقاب شرح له معنى كلمة « كارانتيليا ». حينئذ صاح رجل الجبل مندهشا : « يا للنصارى ! يا لهم من قوم حازمين ! حتى الموت يعرفون له حيلة ويقاومونه. لكن لم لمْ تشرحوا لي هذه اللفظة البشعة من قبل ؟ ».

حلّ بجربة جمع من المغاربة كانوا في طريق العودة الى وطنهم بعد أداء مناسك الحج بمكة. ولما كانوا قد أتوا عبر طرابلس فقد وجب عليهم قضاء فترة الحجر الصحي المكروه. وهو بالنسبة الى المسلم بمثابة قسر فظيع سواء بسبب فطرته على الحرية أو من أجل مبادئه الدينية. ولتلافي هذا العبء فرّ

(30) تداولت فعلا في البلاد التونسية اللفظة الأجنبية «Quarantaine» ببعض التحوير ، للتعبير عن إجراء الحجز الصحي الذي صار معمولا به خلال القرن التاسع عشر بالخصوص في فترات الأوبئة .

في إحدى الليالي ثلاثة من الحجيج الى الجبال. وفي الصباح التالي وقع التفطن الى هروبهم وأخبر « رايس المرسى » بما حدث، فلم يلبث أن قدم ومعه بعض رجاله يحملون الأغلال الطويلة وأمر توّا بتكبيل كل المغاربة بهذه الأغلال لمنعهم من الفرار.

وانقضت أمس الأول فترة حبسنا ودقت ساعة خلاصنا واستعد ربابنا للانطلاق صوب صفاقس. بيد أنه تعيّن أولا أن نحصل على شهادة من الوالي تثبت أننا قد أدّينا الحجر الصحي لتفادي إعادة الكرة والسجن الطويل في مكان ثان. الاّ أن الوالي كان يقطن على مسافة عشرة أميال من الشاطىء. لذا رأيتني يوم اطلاق سراحي أقصد المحكمة لسحب الوثائق اللازمة. وعند وصولي وجدت نائب الوالي فرجوته أن لا يزيد في تعطيلنا وأن يسلمنا الشهادة : فضحك وقال : « الحقيقة أني لا أحذق فن الكتابة العظيم. » فقلت له : « بوسعي أن أقوم بتحريرها، قل لي فقط ما يجب أن أكتب وما عليك الاّ أن تضع الختم الرسمي. » فردّ نائب الوالي : « ليس لدينا الآن ورق ولا حبر ولا أقلام. » واستوجب أولا أن أرسل في طلب هذه الأشياء الى سيدي مصطفى فأحضرت وحررت الشهادة المنشودة فإذا بي أسمع أن الختم لدى الوالي. فتحتم مرة أخرى أن أبعث مرسولا استعجاليا الى مقام الوالي الذي يبعد عدة أميال داخل الجزيرة، حتى يضع الختم على الوثيقة والاّ ما صلحت. وسوف نتسلمها في هذا المساء ونبحر على بركة الرّب.

تونس في 24 أكتوبر 1835

عدت، ولله الحمد، سالما الى تونس بعد غيبة استغرقت حوالي خمسة أشهر. وكانت رحلتي من جربة الى هنا طيبة إجمالا. ووجدت على متن سفينة تونسية صغيرة تسمّى « شبيكه » (Schebecka) متسعا من الوقت للتفكير في شأني وفي شأن البقاع التي تسنّى لي بفضل رحمة الاله جوبها. واستحضرت في ذهني كل المواقف والمشاهد وتعاقبت في مخيلتي وكأنها لوحات حيّة [...]

وكان من بين رفاقي في السفر مملوك عجيب أمره قدم مثلي من طرابلس الى تونس. وكان هذا الشاب قد اختطف من قبل مختطفي بشر وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره، بينما كان يرعى الغنم، وفصل عن والديه المسيحيّين وعن وطنه الأصلي، جيورجيا، ثم جلب صحبة صبية آخرين الى العاصمة التركية حيث تمّ عرضه وبيعه كعبد من العبيد. وكان مولاه الأول أحد الباشوات، فصيّره، وهو الصّبي في الثامنة من عمره، مسلما وأطلق عليه اسم « رستم » وبعد أن لقّن كل ضروب الرذيلة وفنون الدسيسة، أعطي هدية الى باشا ثان وبهذه الصفة وقع تداوله وهو حدث يافع عدة مرات من سيّد الى سيّد، أي أن الواحد كان ينيله للآخر بوصفه أداة ملائمة للغاية، وجاء في آخر المطاف في حوزة نديب باشا الذي اصطحبه معه الى طرابلس. ولما دعي هذا الباشا للعودة الى القسطنطينية خطر له أن يقدّم رستم هدية الى باي تونس (31). وكلّف رستم بأن يحمل نفسه بنفسه الى مولاه الجديد. ومنذ أن كنّا في جربة خلال الحجر الصحي، تسنّى لي ربط الصلة به

(31) لعله المملوك رستم الذي لعب دورا خطيرا في بلاط أحمد باي ومن خلفه وتدرّج في الخطط العسكرية والوزارية وقاد مثلا « محلة » لاخماد ثورة علي بن غذاهم سنة 1864 .

والدخول معه في أحاديث مطولة. وأعرب يوناني وجيه كان موجودا بالجزيرة آنذاك عن استعداده لارجاعه الى والديه. ولئن بدا في بعض اللحظات كأن رستم على وشك الانصياع الى مشاعره النبيلة والاستجابة للعرض، فانه تشبث في أوقات أخرى بالحلم بما كان يترقبّه في تونس من حظوظ الرقي والعظمة، وبالتالي رفض رفضا قاطعا العودة الى والديه والى مسقط رأسه. وكان رستم لا يزال يذكر والديه المسيحيّين جيّدا ويحذق حتى سرد بعض الصّلوات المسيحية عن ظهر قلب في صيغتها اللاتينية، كما كان يتكلم، فضلا عن التركية، اللغة اليونانية الحديثة والايطالية. ولمّا كنت ركّزت الحديث معه على مسألة خلاصه فقد انجرّ عن ذلك حتما أن ثار اهتمامه ونما تدريجيا. وكان في بعض الأحيان شديد التأثر بأقوالي، لا سيّما حين علم بوجود أحد أبناء قومه سجينا في جربة وكان أيضا مملوكا لدى بلاط تونس، وها هو يرسف في الأغلال منذ ما يزيد على ثلاث سنوات. حينذاك صاح رستم قائلا : « ما أسهل أن أقع بدوري في نفس المصير ! يا ليتني أعود الى أهلي ومسقط رأسي ! » وقبل مغادرة جربة قام رستم بزيارة ابن قومه في سجنه فقص عليه هذا الشقيّ أسباب بليّته ومفادها أنه كان يشغل خطّة نقيب ضمن جيش تونس الحديث التنظيم فتعرض، دون أن يفهم السّبب، لبغض صاحب الطابع. وخرج معه مرّة لجبي الأموال عبر البلاد حتّى أتى قابس. وهنا شعر باعتلال فقال له صاحب الطابع : « اذهب الى جربة للراحة والاستجمام وسأعطيك خطابات توصية. » وأبحر النقيب الى جربة رفقة بعض رجاله، ولدى وصوله سلم الخطابات فأحسن استقباله والترحيب به وسئل عن المكان الذي يريد النزول به، بوعد أن يلبّى طلبه، وعرضت عليه شتّى المنازل وكذلك القلعة في آخر الأمر، بدعوى أنها تشتمل على أفضل الغرف وأوثرها. وقصد القلعة لمعاينة المكان. وما أن طاف في أرجائها قليلا حتّى انقضّ عليه الجند وكبّلوه بالسلاسل وزجّوا به في السّجن. وهذا التعيس يقبع الآن هناك ربّما الى آخر أيامه.

وفي بداية سفرنا ما انفكت الريح تهبّ عكس وجهتنا، لكن رغم ذلك بلغنا مرفأ صفاقس سالمين بعد ثمان وأربعين ساعة. وكانت هناك قافلة تتأهب للرحيل من الغد الى تونس فقررت الانضمام اليها.

ووصلت بنا القافلة دون أيّما تعطيل. فقد بارحنا صفاقس في السادسة مساء وسرينا كامل الليل وفي الثامنة صباحا دخلنا الجم، هذا المكان الذي ظلت تربطني به ذكريات عجيبة. واضطررنا بسبب رياح لافحة جدّا، يقال لها « القبلي » الى أن نبقى بالمكان طوال النهار. ومع حلول الليل ارتحلنا وبعد أن قطعنا مسافة ستة وثلاثين ميلا وصلنا إلى جمّال في الصباح. وهي قرية كبيرة سبق أن قام أهلها بثورة ضد الحكومة فهدّمت ديارهم ومنع عنهم منذ ذلك الحين البناء بالحجارة وفرض عليهم الاقتصار على الطين، لذلك نجدهم اليوم يسكنون كلهم أكواخا حقيرة. وعند حلولنا بالمكان كان القوم صغارا وكبارا بصدد إقامة مزار خارج القرية، إكراما لبعض الأولياء ووقف بالقرب من العاملين بعض الرجال بالطبول والمزامير لحثهم على العمل. ثم واصلنا السير حتى بلغنا، بعد يوم شاقّ، هرقلة، ومنها سرنا يوما آخر الى قُرمبالية. وشاهدت آثارا كثيرة لم تعترضني في الذهاب، لاختلاف الطريق المتّبعة في الاياب. ومررنا بموقع يحوي أربعين من أضرحة الأولياء المسلمين، تزين كل ضريح منها نخلة ويسوره حائط. ويدعى المكان « الأربعين »، ورأيت قائد القافلة يرفع حفنات من تراب هذه الأضرحة ويذروها على الخيول والبغال. وسألت عن سرّ هذا الصنيع فقيل لي : لكي تقوى الدواب وتسمن. وانتهينا أخيرا الى قُرمبالية التي كانت لنا آخر مبيت قبل تونس حيث وصلنا سالمين في اليوم الموالي. فسبّحي بحمد الربّ يا نفسي ولا تنسي فضله عليك !

تونس في 24 نوفمبر 1835

بدأت تدخل على تونس أوجه التجميل يوما بعد يوم. فقبل بضعة أعوام كانت الأوساخ تغشّي الأنهج بصورة لا توصف. ففي موسم الأمطار كنت ترى بعض الأزقة تنسدّ الى حدّ أن عبورها يصير مستحيلا، وفي الصيف تصدر منها روائح لا تطاق. أما الآن فهناك عربة تجوب كل صباح مختلف أحياء المدينة وتجمع القمامة، فحصل للمدينة بذلك كسب عظيم. وما كان يتّخذ هذا الاجراء على الاطلاق لولا ظهور الكوليرا في الجزائر المجاورة، مما جعل الأروبيين يخشون فتك هذا الداء فسعوا الى حمل الحكومة على تبنّي المقترحات التي تقدّم بها القناصل الأجانب حتّى توصّلوا الى ذلك أخيرا. وهناك انجاز لائق آخر كرّسه معشر التجّار [الأجانب] في تونس، يتمثّل في ناد للمطالعة أو « كازينو »، فتح أبوابه منذ بضعة أسابيع. ويؤدي هذا المحل في نفس الحين وظيفة « بورصة » (مصفق).

يخيّم منذ بضعة أشهر قلق كبير يرتبط باشاعة مفادها أنّ الأتراك ينوون التصرف حيال تونس مثلما تصرفوا ازاء طرابلس. وقيل أيضا ان السلطان الأعظم بصدد تجهيز أسطول بحري سيوجّه الى هنا. زد على ذلك أنّ صاحب الطابع الذي أبحر منذ زمان الى القسطنطينية في طلب القفطان للباي الجديد أبطأت أخباره. غير أنّ التخوفات من هذه الناحية تبدّدت وتقشعت فقد عاد الى تونس منذ بضعة أيام بعد أن أدّى مهمّته بما فيه رضاء الباي التام. وقد انقرضت أول أمس فترة حجره الصحّي وتحوّل اليوم في موكب رسمي الى محلّه الرّيفي المعروف بـ« سيدي اسماعيل » والواقع بين تونس وباردو، حيث يقيم الباي. واعترضه للاحتفاء بقدومه، في منتصف الطريق بين تونس وحلق الوادي، أعضاء الديوان راكبين الخيول. كما تقدم لاستقباله ثلاثة آلاف رجل وواكبوا مبعوث الباي الى منزله. وكان موكبا حسن الترتيب، جاء في طليعته أعضاء الديوان، وكلهم شيوخ مهيبو الهيئة، ثم تلاهم

صاحب الطابع، يمتطي فرسا فاخر الزينة، ويرتدي بزّة « الجنرال » الحديثة العهد، وهي زرقاء وموشاة بكتفيات مذهبة. وكان يمسك في يمناه بكيس من الحرير الأزرق، احتوى على « الفرمان »، أي وثيقة الاعتماد من لدن الأمبراطور التركي، وفي يسراه أيضا كيس حريريّ أزرق، حمل السّيف الذي بعث به السلطان الأعظم الى باي تونس. وجرت يوم أمس بيعة الباي الرسمية. وتحولت بالمناسبة الى قصر باردو لمتابعة هذا الحفل، فشاهدت ما يلي: في باحة القصر الأمامية الفسيحة انتصب تخت الحكم، وفي حوالي الساعة الثامنة ظهر الباي يحف به سائر الأمراء وخلفهم جلاّدو الباي الخمسة [الشطّار] في بدلاتهم الحمراء. وبينما ارتقى الباي عرشه وتبوّأه، اصطف الأمراء يمينا والجلادون يسارا والى جنبهم كبار رجال الدولة. ثم هتف رئيس الجلادين [باش شاطر] عبارة السلام بصوت جهوري وتداول كبار رجال الدولة على الباي يقبلون يده. وتلاهم كافة أعضاء الديوان الذي يتكوّن من 300 من « الأضه باشي » و400 من « البلق باشي ». ذلك أنّ الحكومة بأسرها تركية الأصل وبالتالي وجب أن يكون كافة أعضاء الديوان من فصيلة الجند ومن أصل تركي. ومنذ الولادة يجرى للطفل التركي الأب مرتّب يومي من خزينة الدولة قدره « ناصري » واحد، وعندما يبلغ الطفل سنّ الخامسة عشرة يدرج في قائمة الجند ويصبح مرتبه أربعة « نواصر » في اليوم. وبعد مدّة من الخدمة العسكرية يتسنّى له الارتقاء الى رتبة « أضه باشي » ثم الى رتبة « بلق باشي » ويصبح بذلك عضوا في الديوان.

وكان الجيش العامل فيما مضى مقتصرا على الأتراك لا يدخله أحد من الأهالي المسلمين. وليومنا هذا ما فتئت الحصون المنتشرة في أرجاء القطر تحت نظر الأتراك دون غيرهم. ولكن نظرا لما أدخل على الجيش من تنظيم جديد ولأنه صار يعدّ حوالي خمسة آلاف رجل من كل فئات الشعب فإن « الميليشيات » التركية أخذت تفقد من نفوذها يوما بعد يوم وليس من المستبعد انها سوف تحلّ تماما في وقت آت. وكان أعضاء الديوان في سابق الأيام يلبسون لباسا في منتهى الغرابة، أما اليوم، واقتداء بما كرّسه السلطان الأعظم فقد أضحى زيّهم برمته يتميّز بالبساطة وتخلّوا، كما حصل في هذا

الحفل، عن العمامة وظهروا متقبّعين بالقبّعة الحمراء أو « الشاشية ». وعلى اثر رجال الديوان توافد كافة الضباط وضباط الصف التابعين للفيلقين الجديدين، القائمين حاليا. وفي الأخير لحق القناصل الأروبيون. ولم يخصّ بمقعد للجلوس سوى أعضاء الديوان. ولما التأم شمل كل المدعوين للحفل والتفوا حول العرش جيء بالرايات وبـ« الطوغ » وفي نفس الآونة ظهر صاحب الطابع حاملا القفطان الذي أتى به من القسطنطينية والذي تألّف من جلباب ومعطف. وفي الحين ارتدى الباي هذا اللباس ثم رشق على صدره الوسام الألماسي المبعوث اليه من لدن السلطان، كما قلّد السيف الجديد. بعد ذلك تمت تلاوة فحوى فرمان السلطان الأعظم وعدد من رسائل التهنئة، جيء بها من القسطنطينية الى الباي. وأفسح المجال للحاضرين لتقبيل يد الباي، وحتّى القناصل الأروبيون تقدّموا ليقبلوا يد صاحب السمو المسلم. ودوت الموسيقى العسكرية كما وزعت القهوة على الحاضرين. والجدير بالاشارة أنه من المعتاد أن توجه الدعوة الى القناصل النصارى في مثل هذه المحافل التي يقيمها البلاط. وهو ما حدث في السنة الفارطة بمناسبة زفاف أحد أبناء الباي الراحل، الذي ألحق بنسائه الأربع خامسة. وكانت العروس ابنة « الباش مفتي » (32) أي كبير رجال الدين. واستدعي القناصل في اليوم السابق لحفل الزواج. ولمّا ترفّع القنصل الأنكليزي عن الحضور أو تعذر عليه ذلك فقد وضع عربته الخاصة تحت تصرّفي فتحوّلت الى قصر الباي صحبة القناصل المقيمين بتونس. ولمّا وصلنا سارت بنا العربة عبر رواق مقنطر مغطّى يمتد حتى مدخل الباحة الأمامية، انتصب على جانبيه حشد من المماليك المسلحين. ونزلنا في الباحة الرحبة قبالة القصر فإذا بها مليئة

(32) كان ذلك حفل زفاف محمد بن حسين باي بابنة « شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن محمد بيرم » (انظر ابن أبي الضياف: « اتحاف أهل الزمان » الطبعة الثانية، تونس 1979، ج 3، ص 202 و242) مع العلم أن ابن أبي الضياف يلاحظ أن هذا الزواج كان الثاني بالنسبة إلى محمد باي وليس الخامس كما يزعم ايفالد.

بجموع غفيرة من العرب والحضّر المسلمين، أتوا لتهنئة الباي. واقتدنا الى غرفة سكرتير الدولة الأول، وبعد هنيهة أعلمنا بأن الباي مستعد لاستقبالنا. واقتدنا الى قاعة الباي الكبيرة الفاخرة داخل القصر وقد جلس على بابها جمع من الجواري عكفن على العزف والغناء. وكانت القاعة التي اليها دلفنا عديمة النوافذ، لا ينيرها سوى نور شمعدان واحد، ناهيك أني في البداية لم أبصر شيئا وتلمست طريقي كالأعمى. ولكن سرعان ما خفّت حدّة هذه العتمة فلمحت في ضياء الشموع الشاحب الباي في قاع المجلس متبوّئا تختا. وكان يرتدي لباسا من الحرير الأزرق ويحمل في حزامه خنجرا من ذهب وفي اصبعه حجرة ألماس كبيرة ترسل في القاعة المظلمة شعاعا بديع الألوان. واقترب القناصل من صاحب السموّ المسلم وقبلوا ظهر يده. وهذه الجهة مقتصرة على النّصارى، لا يحظى بتقبيلها سواهم، أما المسلمون فمن نصيبهم الكفّ فقط. وحظيت أنا كذلك بما حظي به القناصل من شرف، ثم أخذنا أماكننا على يمين الباي وعلى يساره. حينذاك أمكنني أن أجيل بصري قدر المستطاع، فيا لدهشتي ويا لعجبي! لقد خيّل إليّ من أول وهلة كأنني أجد نفسي فجأة في قصر من قصور الأساطير العجيبة. كانت جدران القاعة مجلّلة ببطانة مطروزة بالذهب، واصطفت عرض الجدران كوكبة من النساء يرفلن في الحلي، كما زخرت الحيطان قبالتنا بالخناجر والسيوف والبنادق، كلها مطعّم بالذهب والأحجار. وانتشرت بلا نظام الساعات والتّحف من الفخار الممتاز وشتّى أنواع الأثاث الجيّد الصنع والأوروبي الطراز كما فرشت الأرضية بأنفس الزرابي. وأحدث كل هذا، أي عتمة القاعة الشاحبة الانارة وبريق الذهب ووميض الأحجار الكريمة ورنين الساعات ودقّها المسترسل وحضور مجمع البلاط قاطبة والقناصل النصارى والباي صحبة أفراد أسرته أجمعين، في نفسي وقعا عجيبا. وبعد استراحة قدّمت المرطبات وتعالت، ونحن نتناولها، نغمات الموسيقى العسكرية خارج القاعة. وتوجه الباي الى القناصل بأسئلة عادية من باب المجاملة، أجيب عنها على نفس الأساس. ومرّت زهاء النصف ساعة ونحن جالسون وسط هذه القاعة السحرية ثم نهض الباي، معلنا بذلك نهاية المقابلة. وعلى اثر ذلك وقع الطواف بنا عبر

سائر غرف الحريم وأطلعنا على ما حوته من تحف ونفائس. وامتازت بالخصوص غرفة العروس وفاقت غيرها جمالا وأبهة. ولما أنهينا الفرجة عدنا فوجدنا الباي وحاشيته واقفين وسط قاعة فسيحة، وهنا ودّعنا في منتهى البشاشة.

وفي نفس اليوم وعلى الساعة الثالثة مساء [كذا] انتقلت العروس الى قصر باردو، واحتشدت جموع غفيرة من الفضوليين على قارعة الطريق الرابطة بين تونس وباردو بغية مشاهدة الموكب وأقام العرب سباقا للخيل ومرحوا بشتّى ألعابهم القومية في نفس الطريق المؤدية الى باردو. ويتمثّل سباقهم ولعبهم بالخصوص في العدو السريع على ظهور الخيل وشحن بنادقهم الطويلة أثناء العدو واطلاق النار منها. وفي الساعة الثالثة اجتاز ركب العروس أبواب المدينة وتحرك بتؤدة صوب باردو. وسارت في المقدمة ثمان وعشرون عربة مغلقة جلس فيها أهل العروس من النساء ثم تلتها عربة العروس تجرها ثمانية بغال يمسك بزمام كلّ منها اثنان من الحرس المترجّلين في حين التفّت كوكبة من الخيالة حول العربة تسايرها على نفس النسق البطيء. واقتفى أثر عربة العروس سرب من العربات الاضافية ومن الخيول. وفي اليوم التالي استدعيت نساء القناصل لرؤية العروس، وهي حظوة يحرم منها الرجال. وأكرمت ضيافة السيدات بما طاب ولذّ من المأكولات والمشروبات ثم اقتدن الى غرفة العروس فوجدنها منتصبة على تخت عال وكأنها تمثال، مغمضة العينين مثقّلة بالمجوهرات. وكان لا يحقّ لها الحراك أو فتح العينين بل كان من واجبها المكوث طول النهار فرجة للأعين.

وبعد مضيّ زمن قصير على هذا الحفل تسنّى لي حضور حفل زفاف صاحب الطابع الأسبق من احدى بنات الباي [33]. وقد تخلل هذا الحفل حدث طريف. ذلك أنه عندما خلا صاحب الطابع لأول مرة بعقيلته، عمدت

(33) ذُكر في « اتحاف » ابن أبي الضياف أن عرس شاكير صاحب الطابع بابنة حسين باي سبق زفاف محمد باي (انظر : « اتحاف » المصدر المذكور، ص 242).

هذه الى دوس قدمه برجلها وفي ذلك رمز للاذلال ومعناه أن الرجل عبد والمرأة سيّدته، فهي الأميرة يسري في عروقها دم السيدات. وعلى هذا الوجه فهم الوزير الأنوف هذه المبادرة. فغادر الحجرة والغضب يملأ صدره وقصد الباي توّا وطالب بالقصاص عمّا لحقه من اهانة. ووقع الباي وأهل البلاط في هلع عظيم وبادر الباي حالا باستنطاق جميع نسوته لمعرفة من حرّض الأميرة الشابة، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، على صنيعها المنكر. واتضح أن النصح جاء من أخت العروس، هي بدورها زوجة لمملوك سبق له فيما مضى أن تسنّم أعلى المراتب (34). ونالت المرأتان ما استحقتا من العقاب. وبارح الوزير المهان تونس في نفس اليوم وقصد داخل البلاد لابتزاز الأموال. ويحدث ذلك على المنوال التالي :

من المعتاد أن تجبى الضرائب مرتين كل سنة، ولهذا الغرض ينطلق الوزير من تونس الى داخل البلاد على رأس حوالي مائتي رجل. لكن حشده لا ينفك يزداد عددا كلما تقدم به السير لأن العديد من رجال العرب ينضمون الى صفّه تدريجيا وفي الختام يكون قد جمع حوله فيلقا يضمّ بين ألف وألف وخمسمائة رجل. وفي الاياب يتقلّص هذا الحشد تدريجيا وعلى نفس النسق الذي نشأ به في الذهاب، كلّما اقترب من تونس. وبهذه الصفة تستوعب خزينة الدولة مرتين في السنة دخلا ذا بال. لكن بالاضافة الى ذلك فان الباي يستخلص أداء جمركيا قدره خمسة بالمائة على كل بضاعة مستوردة. والغريب في الأمر أن رجال الدين المسلمين — علما بأن قسما كبيرا منهم ينتمون الى طائفة التجّار — والأروبيين لا يؤدون سوى ثلاثة بالمائة في حين يفرض على اليهود والمسلمين خمسة بالمائة. الاّ أن هؤلاء عادة ما يجدون سبيلا للتحيّل على الباي وذلك بأن تصل جلّ البضائع المستوردة من الخارج باسم تجار نصارى مقابل مكافأة طفيفة ولا يكون من نصيب الباي سوى

(34) لا شك أن المعنيّة بالأمر هي كبورة ابنة حسين باي وزوجة حسين خوجة باش مملوك الذي كان وزير هذا الباي الأول ثم أقصي سنة 1829 وعوّض بشاكير صاحب الطابع .

ثلاثة بالمائة. ثم ان الباي يطالب بالربع على كل المنتوجات الحاصلة في البلاد. ولو كانت الفلاحة في هذا القطر على ما هي عليه في ألمانيا لكان دخل الباي، باعتبار خصوبة الأرض الممتازة، لا يحصى ولا يعد. لكن هذه الضريبة أدّت الى جعل مسلمي المدن وعرب البادية، الكسالى بطبعهم، يزدادون كسلا وتقاعسا. فأنت تسمعهم يقولون : « لماذا تريدنا أن نلهث طوال السنة لصالح الباي ؟ » وبالتالي نجد مساحات شاسعة من هذا القطر تظل بورا جرداء [...].

تونس في غرة ديسمبر 1835

« ڤولاته » أو « حلق الوادي »، كما يسمي الأهالي المسلمون هذا المكان، لوجوده على مصبّ قناة تصل بين البحر وبحيرة تونس، هو أهمّ مرفإ بالنسبة لكل السفن القادمة من أروبا أو غيرها من البقاع. ولأجل ذلك فإن المكان محصّن ويشتمل على بطاريتين مدفعيتين هامّتين. بيد أن مدافع كليهما المتعددة في حالة سيّئة نظرا لتعرضها مباشرة لحرارة الشمس ولتساقط الأمطار وعدم العناية بتنظيفها أبدا. ولا تستعمل هذه المدافع الاّ نادرا، وذلك في حالة أداء التحية لبعض السفن الحربية الأجنبية فقط. وترابط في هذا المكان حامية تعدّ حوالي مائتي رجل كما توجد ترسانة الدولة وسجن المجرمين. وقد استوطن المكان عدد من النّصارى وبضع أسر يهودية تتعاطى التجارة. كما يقيم هنا حاكم [كاهية] يشرف على حراسة القلعة التي يعيرها الأهالي المسلمون أهمية قصوى. أما أنا فلا أظن الموقع يصمد لأكثر من اثنتي عشرة هجمة بقذائف مدافع السفن الحربية الأروبية. ونظرا لافتقاد ميناء بأتمّ معنى الكلمة فإنه يتعيّن على السفن الواردة الإرساء عرض البحر على بعض المسافة من حلق الوادي. ولا يخلو هذا الوضع من الخطورة في كثير من الأحيان لا سيما في الشتاء. فعندما أتيت لأول مرة شاهدت أشتاتا من حطام سفن أهلكتها عاصفة قبل فترة وجيزة. وقبل بضع سنين رزىء الباي بفقدان كامل أسطوله في الموضع من جراء عاصفة. وعندما تحلّ سفينة من الخارج يبادر قائدها بالنزول الى البرّ ليوافي الحاكم بالارشادات عن مأتاه وحمولته من البشر والسلع وبيد الحاكم القرار في الاذن في النزول أو الرفض. وفي حالة الترخيص بذلك فان القادمين يستقلون قاربا يقلهم عبر القناة الى بحيرة تونس ويرسي بهم بعد ساعات قليلة عند أبواب الحاضرة. ويبلغ طول هذه البحيرة خمسة أميال وعرضها ميلين كما أنها تغطي جزءا من آثار قرطاج العتيقة.

ويقدر محيط مدينة تونس بحوالي خمسة أميال أنكليزية. وتحدها البحيرة شمالا وآثار قرطاج غربا والمقبرة الرحبة شرقا والقصبة، التي كانت فيما مضى مقر إقامة الباي، جنوبا. ويمتد أقصى طرفيها من الغرب الى الشرق، في حين لا يتجاوز قطرها من الشمال الى الجنوب نصف ميل تقريبا. وتنقسم المدينة الى ثلاثة أجزاء، هي « المدينة » وربضا « باب سويقة » و« باب البحر ». ويفصل المدينة ذاتها عن ربضيها سور مرتفع له خمسة أبواب. لكن ثمّة سور ثان يحيط بالكلّ، تعلوه هنا وهناك بعض المدافع المهملة، ويشتمل على أحد عشر بابا. ولكل جزء من أجزاء المدينة ما يعرف بـ« شيخ المدينة » أي ما يضاهي رئيس الشرطة، يضطلع، على وجه التدقيق، بالحراسة الليلية. وتتميّز الأنهج هنا بالاتساع وحسن العناية الى حدّ ما، علما بأن حسن العناية هذا صار حديثا يقرأ له ألف حساب. ويتسنّى في غالب هذه الأنهج، ولا سيّما أنهج المدينة ذاتها، التنقّل بالعربات.

ونظرا لكون تونس عاصمة البلاد، ترد اليها كافة منتوجات أقاليمها تقريبا، ومنها يشترى ما تحتاج اليه هذه الأقاليم، فالمدينة بأسرها أشبه شيء بسوق عظيمة. ونجد في الأرباض أسواق الفواكه والخضر والزبد والبيض والزيت والطيور الداجنة والغنم والخيل والفحم والحطب والجلد ونسيج الأشرعة وغيرها. ويشرف على كل سوق ناظر خاص بها يقال له « أمين » يجبي الأداءات التي تؤجر الدولة حقّ استغلالها الى المزايد الأعلى. وتوجد في قلب المدينة سوق التوابل[35] وهي من أجمل الأسواق، ثم أسواق الفضة والذهب والجواهر والنعال والملابس وسوق العبيد. وتختلف الممارسات التجارية المحلية كل الاختلاف عمّا هو مألوف في أروبا. فلكل سوق عدد من السماسرة يعملون ضمنها. وابتداء من التاسعة صباحا تكون السلع معروضة للبيع ويفد الشراة ويقفون على جانبي السوق، ويأخذ السماسرة البضاعة ويتنقلون بها جيئة وذهابا وهم يرددون براحا : « تسوى هذه القطعة كذا وكذا فمن يزيد ! » والمزايد الأعلى هو الذي يحصل على البضاعة

(35) لا شك أنه يعني ما يعرف بـ « سوق العطارين » .

المعنية. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة يتوقف نشاط السوق وتعاد السلع التي لم تبع الى أصحابها في انتظار عرضها ثانية من الغد.

ومن غريب العادات هنا أيضا ما يتعلق بأرباب الحرف الصناعية على مختلف اختصاصاتهم. فهم لا يختلطون بعضهم ببعض من حيث السكن بل تستأثر كل طائفة منهم بشارع. فحيث تصنع الأحذية لا تجد ديارا لغير الأساكفة وحيث تباع الملابس لا يقطن سوى الخياطين، وهكذا دواليك. ويقف على كل صناعة رئيس طائفة، كما يعتبر معشر التجار أيضا طائفة. وترفع الشكايات ضد مختلف أصحاب الحرف في نطاق مهنتهم لرئيس الطائفة. ويشكل رؤساء الطوائف ما يضارع المحكمة التجارية، تهتم بالسهر على مصلحة المرؤوسين.

ومن العسير البتّ في عدد السكان على وجه الدّقة نظرا لافتقاد سجلات الولادات والوفيات ولأن كل من سألته من المسلمين أو من اليهود يدلي بأرقام مغايرة، فهم يعتبرون إحصاء السكان إثما. وعلى هذا الأساس تنعدم أدنى ركيزة وثقى على هذا الصعيد. وقد قيل لي في بداية إقامتي بتونس انه يعيش هنا نحو 120.000 نسمة، لكن يغلب عليّ ظنّي بالأحرى أن عددهم يناهز المائتي ألف. ويستند رأيي على ما لاحظته من حشود المارة التي تعجّ بها الأنهج جيئة وذهابا وعلى كثرة الديار وهي تفوق الاثنى عشر ألفا. وقد تسنّى لي أن أشاهد بأم عيني في بعضها خمسين أو ستين متساكنا، دون أن تكون هذه أكثر الديار تراصّا.

وينقسم سكان تونس الى مسلمين حضّر وعرب وأتراك وزنوج ويهود ونصارى. ويتألّف لباس المسلمين الحضري من سروال رحب فضفاض وسترة مستديرة الشكل تلبس فوقها ثانية عادة ما تكون موشّاة بتطريز ذهبي غزير. ويلف حول الحزام نطاق تتفاوت جودته بحسب ثروة صاحبه. أما الجوارب فيندر لبسها، ويتوقّف ذلك على الشيوخ،والاّ فإن الأقدام تبقى عارية في أخفافها. ويسدل فوق الكل قفطان هو بمثابة المعطف. ولمّا يبلغ الشاب الثانية والعشرين من عمره يلبس العمامة ويترك لحيته تنمو وهي زينة الرجل المفضّلة. وبقدر ما تزداد طولا تكسب جمالا. ان مسلمي هذه المدينة لقوم

يتحلّون بآداب راقية حتى أنّ سلامهم يكاد لا يعرف نهاية. فتسمعهم يسألون : « كيف الحال ؟ كيف الصحة ؟ أأنت بخير ؟ هل من سوء يترصّدك ؟ أنت بخير، أليس كذلك ؟ الحمد لله، أنت بخير ! » ويجيب الطرف الآخر : « بارك الله فيك ! سلام الله عليك ! أطال الله أيامك ! أطال الله أعوامك ! الله يمنّ عليك بكل خير ! » وهي عبارات تلفظ على وجه السرعة وباسترسال. وترى كل واحد يسعى دوما الى أن يسبق صاحبه بالسؤال لذا فإن نفس العبارات تعاد وتكرر إلى حدّ يستثقله الأروبي ويضيق به ذرعا.

ويتعاطى مسلمو الحاضرة أشغالا متنوّعة، فكثيرهم أصحاب ضيعات، منها القريب من المدينة ومنها البعيد، ويملكون رقيقا وافرا، وطالما تتركهم الحكومة وشأنهم ولا تضايقهم فانهم يعيشون عيشا هنيئا رغيدا. وينتمي آخرون الى فئة التجار، وكأني بالتجارة من أحب المهن الى نفوس المسلمين. ومنهم أيضا من هو صاحب مصنع للحرير ينتج فيه شتّى الأقمشة الحريرية. وهناك عدد كبير يباشر صناعة القبّعات الحمراء أو « الشاشية »، وهي ذائعة الصيت وتصدّر الى الخارج. وتصنع كذلك أعداد كبيرة من البنادق والمسدسات والسيوف، وهي منتجات تؤخذ الى داخل البلاد لتغطية الحاجة اليها. وبالفعل فان المواصلات مع مختلف أنحاء القطر من الأهميّة بمكان. وقد قدمت في السنة الفارطة الى تونس ما يزيد على 400 سفينة. أما تجارة الجملة فهي في معظمها في أيدي الأروبيين الذين يسجلون أرباحا طائلة وتتمثل الصادرات في الزيت والشمع والجلد الخام والصوف وحتّى الحبوب في بعض الأحيان.

وقلّما يلازم مسلم الحاضرة بيته، فمن لم يكن منهم صاحب دكّان فانه يقضّي وقته في المقهى. وهم يكرهون ملازمة البيت حتّى أيام الأعياد. وقد سألت مرة مسلما أعرفه لماذا هو لا يقضّي يوم راحته في الدار رفقة نسائه وأطفاله، فأجاب : « في الدار يصيبني دوما الملل، في حين تتسنّى لي هنا الفرجة على الناس وهم يروحون ويجيئون. ».

ومن النادر جدّا أن تظهر النساء في الشارع ولئن حصل ذلك فإنهنّ يلتحفن بصفة تجعلك تخالهنّ بعض الآلات الملثّمة بصدد المرور. ويتكوّن لباسهنّ المنزلي من سروال واسع قصير شبيه بسروال الرجل، يضعن فوقه قميصا واسعا من النّسيج الجيّد يصل حتى الخصر فقط. ويضفن أحيانا فوق هذا القميص سترة قصيرة فاخرة الزركشة بالذهب، وقفطانا، هو عبارة عن ثوب خارجي قصير الأكمام ينزل حتى الركبتين. وتضع النساء خواتم عديدة في الأصابع وتتحلّى سواعدهنّ بالأسورة الذهبية وأرجلهنّ بالخلاخيل. وتضفر شعورهن على نسق جميل وترشق فيها الجواهر. ونظرا لحرمانهن من التعليم في مدرسة أو كتّاب فإنّهن على قدر كبير من الجهل، ومكانتهن في المنزل هي مكانة جوار راقيات. وقلّما يكتفي مسلم الحاضرة بامرأة واحدة، فلغالبهم أربع زوجات. أما الأغنياء فلهم من النساء على قدر ما في طاقتهم على إطعامهنّ.

وتتميّز بيوتهم بجمال رونقها، فهي تبرق كلّها ذهبا وفضّة ولا ينقصها شيء من أسباب الراحة والرفاهة، اللتين يعيرهما مسلم الحاضرة بالغ الأهمية. فما من مكان يخلو من الطنافس والأرائك والمضاجع الوثيرة وما الى ذلك. غير أننا نفتقد في هذه البيوت تلك الأدوات التي نعتبرها نحن معشر الأوروبيين من الضروريات التي لا غنى عنها فلا نجد أثرا لسكين أو شوكة أو ملعقة أو طاولة، الخ. فكلهم، من حثالتهم الى أعيانهم، يستعملون الأصابع لتناول الطعام. وقد استضافني يوما في بداية اقامتي بتونس أحد الأهالي المسلمين فوجدت مائدة حافلة بأصناف الطعام وقبيل الشروع في الأكل أقبلت جارية وسكبت على أيادي الضيوف ماء ثم ناولتهم منديلا لتجفيف أيديهم. بعد ذلك جلس الضيوف — وكلهم من الرجال طبعا — حول المائدة. وبحثت عبثا عن ملعقة ولما تأكد لي عدم وجودها على كامل المائدة تطلّعت الى جلسائي وحاكيت صنيعهم. وكان كل واحد يقتطع نصيبا من رغيف الخبز العريض ويستعمله عوضا عن الملعقة فيغمسه في الطبق ويغرف ما شاء من الحساء ويلتهم الكلّ بما في ذلك ملعقته. ففعلت ما فعلوا ونجحت. ولكن لما رأيت ربّ البيت يغوص بأصابعه في الطبق وينتشل كراعا عظيمة ثم ينتزع

منها اللحم بأصابعه ويضعه أمامي، أحسست بانقباض غريب في معدتي ولم أقدر على مواصلة الأكل. ولكن حتّى لا أغضب مضيّفي تصنّعت المواظبة على الأكل. وبعد الطعام أقبلت الجارية من جديد لغسل أيدينا.

أما عن الأتراك فانه لم يبق منهم منذ الثورة الأخيرة قبل ثماني عشرة سنة (36) الاّ النزر القليل. الاّ أنهم ما زالوا يتمتّعون بعديد الامتيازات. فمنهم ينتدب جلّ رجال الدّولة ومنهم يتكوّن الديوان وهم يحتلّون جميع المناصب العسكرية السامية.

ويوجد في تونس عدد هامّ من العرب الذين وفدوا من داخل البلاد. وتراهم يشتغلون عمّالا وأجراء وخدما وما الى ذلك من الأشغال. ويستحيل ضبط عددهم على وجه التدقيق، لأنهم يستقرون بضعة سنين فقط ثم يعودون الى أوطانهم حيث يمكثون ردحا من الزمن ثم يأتون من جديد الى الحاضرة.

أما اليهود فعددهم هامّ جدّا لكنه كذلك صعب التحديد، ومن الجائز على وجه التقريب أنه يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا.

ويمثل الباي بطبيعة الحال أعلى سلطة في البلاد. لكن نفوذه لا يشمل الاّ مدن المملكة، ذلك أن عرب الداخل يعتمدون نظام حكم خاصّ بهم يرعى شؤونهم « شيخ » منهم ولا تستخلص منهم الجباية الملزمة عليهم لصالح الباي إلّا قسرا.

ويأتي في حاضرة تونس على رأس السلطة، بعد الباي والديوان، حاكم المدينة أو « الدّولتلي ». وفي بعض الحالات يستعصي نقض حكمه حتّى باللجوء الى الباي نفسه. وعندما يظهر في الطريق العام، وهو ما لا يحدث الاّ نادرا وللذهاب الى المسجد فقط، فإنه يسير في موكب حافل يتقدّمه مناد يهتف : « الله يبارك لسيدنا ! ». ثم يأتي، في نفس السلم الترتيبي هذا، « آغا القصبة » ثم « كاهية الباشا » ثم « شيخ المدينة ». ولكل من هؤلاء الموظفين مماليك في خدمته ولكلهم صلاحيته كحاكم شرعي مستقل النفوذ.

(36) ربما يعني الثورة التي دبّرها الجند الترك ضد محمود باي سنة 1816 والتي أدت بالفعل إلى ارتحال الكثير من الطائفة التركية من البلاد التونسية .

ويعود الى القائم بالدعوى اختيار من اليه يرفع شكواه، الى أحد أصحاب هذه السّلطة الخمسة أو الى الباي رأسا.

ويتركب مجلس القضاء الشرعي الذي يخضع لحكمه الباي نفسه من « باش مفتي » وستة « مفتيين » وقاضيين اثنين. وتعهد رئاسة هذا المجلس دوما الى « الباش مفتي ». ونظرا لانقسام مسلمي المكان الى مذهبين أساسيين من مذاهب الاسلام، الى « حنفية » و« مالكية »، فان لكل طائفة منهما ثلاثة « مفتيين » وقاضيا يتوّلون شؤون الطائفة. ومن المعتاد أن يكون « الباش مفتي» من نفس المذهب الذي ينتمي اليه الباي.

وينتمي الى طائفة « المالكية » كافة مسلمي المدن والأعراب والى طائفة « الحنفية » الأتراك ونسلهم من غير التركيات. وبصرف النظر عن هذا الانقسام فكلّهم متشبّثون بحرص بتعاليم القرآن ولا يختلفون الاّ من حيث نظم الطقوس والشعائر.

ويعود بالنظر الى مجلس القضاء الشرعي مجمع رجال الدين وعددهم خمسمائة. ومن مهامهم تفسير القرآن وشرح الشريعة والتدريس كأساتذة في المدارس العليا والسهر على شؤون مختلف المساجد، وهي كثيرة جدّا. لكن هناك اثنان يمتازان على البقية، أحدهما برسم المالكية والثاني برسم الحنفية. ويتبع المسجد الأول مائة وخمسون من رجال الدين يقال لهم « علماء » (أو : يقال للواحد منهم « علامة » : Alama). وفي كثير من الأحيان تلقى في هذا المسجد أيضا المحاضرات من قبل رجال العلم. وتنقسم المدرسة العليا في تونس الى ثلاثين قسما تجمع زهاء الثمانيمائة طالب يسكنون على عين المكان ويلتزمون بحضور دروس الأساتذة. ويزعم الأهالي المسلمون أن كافة العلوم تلقّن في هذا المكان ما عدا الطبّ. وكان الأساتذة والعلماء سابقا يقبضون مرتّباتهم من « بيت المال » الذي يموّن في نفس الحين نفقة الطلاّب، وذلك بفضل وقف من تركات الموتى الذين لا يخلفون وريثا أو مما يحبّسه قصدا مسلمون أتقياء من أرزاق طائلة. غير أن الباي وقع قبل بضع سنوات في ضائقة مالية فاستصفى ممتلكات هذه المؤسسة ومداخيلها وأجرى للأساتذة مرتبات وتعهد بأخذ نفقات الطلاب على عاتقه، لكنه قلّل

العطاء حتّى انقطع معظم الأساتذة عن التدريس وأصبح الطلاب المساكين في عوز، يقضون وقتهم في التسكّع منصرفين الى العبث والفراغ.

انّ الجهل الذي يتخبط فيه سواد هذا الشعب ليدعو الى الأسى والأسف. وينطبق الحال حتى على أهل العلم منهم. فالتاريخ والجغرافيا وعلم الفلك تشكل موادّ غريبة عنهم تماما، بدليل أنهم كانوا يلقون عليّ أسئلة من شأنها أن تبعث صبيتنا على الضحك، مثلا : كم سنة بقيت أنا في البحر لأصل الى هنا ؟ أو : أليس السلطان [العثماني] هو سيّد الدنيا قاطبة ؟ وبالتالي نراهم غارقين في أسخف الاعتقادات الباطلة وأفظعها. وتكثر بينهم جيوش قرّاء الغيب والسحرة والمعزّمين وكتبة التمائم. ومعظم قرّاء الغيب من النساء، وتراهنّ يجبن الشوارع وهنّ ينادين باسترسال : « دقازة، دقازة » أي : قارئة الغيب. ويفتح لهنّ أصحاب العقول الساذجة أبوابهم ويستطلعون منهن حظّهم. ولا يكاد يخلو منزل من بعض العفاريت يستعصى أحيانا طردها. وفي هذه الحالة يترك أهل البيت بيتهم ولا يجرأ أحد من بعد على دخوله للسكن، فيظل مقفرا الى أن يؤول مع مرور الزمن الى خربة. وعلى هذا المنوال آل سدس المدينة الى خراب.

ومن أفظع معتقدات المسلمين الباطلة اعتبارهم المجانين أولياء صالحين. ومن أوليائهم هؤلاء من كان صادقا ومنهم الدجال، بما في ذلك الرجال والنساء على حدّ سواء. وتراهم يجوبون الشوارع في أغرب الأزياء، نصف عراة أحيانا أو عراة أحيانا أخرى. ويزودهم الناس بالنقود والطعام، ويستبشرون خيرا اذا ما لمسهم أحد هؤلاء الأولياء ويعتبرون ذلك حظوة كبرى. وعندما يموت أحدهم تقام على قبورهم المزارات التي تصبح في الآبّان حرمات يلوذ بها المجرمون. ويكفي أن يبلغ أخطر المجرمين هذا الحرم المقدس لكي يصبح في مأمن لا تطوله حتّى يد الباي. ويستقر المجرم في هذا المقام آكلا شاربا الى أن يحظى بالعفو أو يموت. ولكن اذا تحصن فيه قاتل روح فمن حقّ الباي أن يأمر بسدّ المنافذ عليه وطمرها بالبناء. وهناك الكثير من هذه الملاوذ حتّى أننا نجد نهجا بأسره يحفل بها، يدعى « نهج الأولياء

الصالحين » [37]. بيد أن أشهرها هو ذلك المقام الواقع على مسافة اثني عشر ميلا أنكليزيا، فوق إحدى الهضاب الثلاث التي كانت تقوم عليها قرطاج سالفا، ويدعى « سيدي بوسعيد ». ومن وطئت رجله هذا الحرم نجا من كل ملاحقة. ومن الوارد أحيانا أن يقوم هؤلاء الأولياء بالطواف عبر شوارع المدينة في موكب تعلوه الرايات وتصحبه الطبول والمزامير، فإذا به مشهد مروع تقشعرّ منه الأبدان. فبينما يواظب بعضهم على قرع الطبول ونفخ المزامير يتفانى آخرون في الرقص وهم يزيغون البصر ويلوّحون بالأطراف ويشيرون بأفظع الحركات.

(37) أو ربما « نهج الصلاح ».

XXIV

تونس في 12 ديسمبر 1835

حلّ فصل الربيع البديع الذي يستمرّ حتى موفى شهر جانفي [كذا] المقبل. وقد اخضرّت الطبيعة وأزهرت وانتشى القلب بما خلق الله من كون جميل طليق. وحدا بي جمال الطبيعة الفائق الى أن واظبت خلال هذا الفصل البهيج على التّجوال في أحواز المدينة حيث ما انفكت البساتين الغنّاء والمنازل الريفية اللطيفة تبعث في نفسي انطباعا منعشا. وكنت ألاقي أحيانا عند مداخل هذه المنازل أصحابها المسلمين جالسين في راحة وهناء، يتسلّون بتدخين الغليون، فأجلس اليهم وأتجاذب معهم أطراف الحديث في شتّى المواضيع العامة حتّى نستطرد الى المسائل الدينية. وقبل أيام قليلة اجتزت في الصباح الباكر باب المدينة وسرت مقدار ساعة وأنا أتأمل الطبيعة الفتّانة حتى وقفت أمام منزل ريفي على ملك أحد الوجهاء من مسلمي الحاضرة، كان جالسا على العشب النّاعم رفقة أحد رجال العلم يتحادث معه ويدخّن غليونه. واقتربت منهما فدعيت للجلوس فلبيّت الدعوة بكل سرور. وسرعان ما انساق الحديث في موضوع ديني. وطلب مني العالم أن أذكر له عدد كتبنا الربانية فاستجبت، مبرزا فحواها باقتضاب. ولما انتهيت أبدى المسلم تعجبه الكبير من قلّة كتبنا وقال لي : « لدينا منها، نحن المسلمين، ما لا يقلّ عن 104 كتاب أنزلها الله على الأنبياء بواسطة الملاك جبريل. وكانت عشرة من هذه الكتب من نصيب آدم وخمسون منها وفّي بها شيت (Seth) وثلاثون لأنوخ(Henoch) وعشرة تلقّاها ابراهيم — مع الملاحظ أن المسلمين يعدّون هؤلاء الآباء في عداد الأنبياء — كما أوتي موسى التوراة والملك داوود المزامير ويسوع انجيل الأنبياء وأخيرا تلقّى النبي محمد القرآن الذي هو من الأزل وغير مخلوق.» كما أكدّ لي هذا العالم أن جميع هذه الكتب متداولة بين المسلمين. الاّ أني لم أر منها سوى الكتب التي يدّعى أنها أنزلت على آدم.

ويقدّر المسلمون عدد الأنبياء ورسل الله الى عباده بما لا يقلّ عن، 124.000. الّا أنهم يفرقون بين النبيّ والرسول. فالنبي، حسب قولهم، يحمل وحيا لكنه يخصه شخصيا ولا لزوم عليه بالافصاح به علنا، في حين أن الرسول لا بدّ أن يكون مبعوثا الى قوم ما محملاً برسالة ربانية معيّنة موجهة الى هؤلاء القوم. وقد جاء لكلّ أمة من الأمم رسول من الله، ومحمد هو خاتم الأنبياء وأهمّهم وأفضلهم. وقد بعثه الله محمّلا بالقرآن الى البشرية جمعاء بل إلى الجنّ أيضا. ومن هؤلاء من هو مؤمن وبعضهم كافر، وسليمان هو سيّد الجنّ قاطبة، وتروج حوله خرافات كثيرة، ويعتقد المسلمون أيضا في عدد كبير من القديسين [كذا] وفي طليعتهم أبو بكر، حمو محمّد، ويليه عمر ثم عثمان فعلي. [....]

XXV

تونس في 18 ديسمبر 1835

قمت أول أمس بجولة صغيرة استهدفت « العبدلية » أي منزل القنصل الأنكليزي الريفي الجميل. ويقع مقرّ الاقامة الشيّق هذا على بعد عشرة أميال أنكليزية من مدينة تونس، في سهل خصيب للغاية تحده مجموعة من الهضاب تحفل بأطيب أشجار الثمر وأبهاها. التقيت بجوار هذا المنزل الريفي بجماعة من المسلمين الحضر. وسرعان ما انتقل بنا الحديث الى تلك النقطة بالذات التي يحلو للمسلمين المثقفين الخوض فيها مع النصارى. ولم يحدث قط أن حادثت مسلما دون أن أجده مؤمنا كل الايمان بوجود الاله وبخلو الروح، وعلى نقيض هذا سمعت المرار بكامل الاستياء عن أرهاط من الأروبيين المقيمين هنا الذين ينفون هذا وذاك. وتنسب العقيدة الاسلامية الى الله الصّفات التالية : كونه حيّا، عليما، سميعا، بصيرا جبّارا، له ملكة الكلام والارادة. والله لا كفء له وليست له احتياجات البشر ولا وجوه ضعفهم. وهو لم يولد ولم يلد وليست له امرأة ولا ابن ولا بنت. وما هو في السماء ولا في الأرض، وليس له مسكن ولا مكان اقامة. وما هو على يمين ولا على يسار ولا في بعد ولا في قرب ولا فوق ولا تحت : بل انه في كل مكان. ولا يتقيّد بشكل ما ولا بهيئة، ولا بأجزاء ولا بلون، انه لا يرى ولا يبصر. وليست له بداية ولا نهاية. وهو مستقل الذات، لا ينتابه مرض ولا يأخذه غضب ولا يعتريه خوف. ولا يدخل عليه تغيير. انّه موجود قبل الوجود. وما هو في حاجة إلى أحد ويقدر على فعل كل شيء. الله خلق كل شيء وهو السبب في كل ما يصدر عن الانسان من أعمال، بما فيها الفضيلة والرذيلة والخير والشر والايمان والكفر على حدّ سواء. وهو الذي ينعم بالصحة ويسلط الأمراض وهو الذي أراد للنار أن تكون محرقة وللثلج أن يكون باردا.

XXVI

تونس في 24 ديسمبر 1835

يقع مقر إقامة الباي على مسافة ساعة من مدينة تونس ويعرف بـ« باردو ». وبه يقطن أيضا جلّ الوزراء. ويقصده القناصل الأروبييون أحيانا لتأدية الزيارات التشريفية للباي ولتقبيل يده. بيد أن قنصلي أنكلترا وفرنسا أعرضا عن هذه العادة غير المشرفة دون أن ينجر عن ذلك أي ضرر. ومنذ سقوط الجزائر [في أيدي الفرنسيين] اعترى التونسيين، المتصفين عادة بالأنفة الى حدّ كبير، شيء من التواضع وأبدوا، ظاهريا على الأقل، مزيدا من الودّ حيال النصارى. ويبلغ عدد النصارى المقيمين في مدينة تونس حوالي ألفي نسمة ان صحّ التقدير. والعديد منهم ينحدر من آباء كانوا عبيدا، ولدوا بهذه الديار وترعرعوا فيها واستوعبوا لغة أهاليها المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم واعتقاداتهم الباطلة. ومنهم أيضا من سبق أن أتى مهاجرا، كالاسبان والايطاليين والمالطيين والفرنسيين وغيرهم، وكلهم من الكاثوليك. وبرسم الكنيسة الكاثوليكية هنا دير للآباء الكابوشيين، يشتمل على كنيسة فسيحة ويجمع ثمانية رهبان. وهناك من المالطيين زهاء الستمائة نسمة، ومن اليونانيين أيضا عدة مئات، وهم يشكلون مجموعة دينية قائمة بذاتها لها كنيستها وقسّها ! أمّا النصارى الانجيليون فعددهم في المجموع أربعون نفرا ويتكوّنون من عائلات القنصل الأنكليزي والأمريكي والدانماركي والسويدي إلخ. إلى جانب بعض التجّار. وقد التأموا منذ سنة ليكوّنوا مجموعة دينية، وصرت كلّما وجدت بالمدينة أقيم بهم القدّاس أيام الآحاد وأكرز عليهم باللغة الأنكليزية.

وكان لي قبل أيام قليلة حوار مفيد مع « مفتي » ذائع الصيت بوصفه متبحّرا في العلم. وشرحت له « موعظة الجبل » وأطلعني بدوره على فرائض المسلمين. واعترف بسموّ فحوى هذه الموعظة وتفوّقها على الفرائض التي يسنّها القرآن، من حيث الخلاص والعبرة الالاهية. وأهم هذه الفرائض ما يلي : الايمان بالاه واحد واقامة الصلاة في الساعات الفاصلة الخمس وصوم

ولئن أصيب مسلم بمرض فإن أحبابه يزورونه لمواساته. وقلّما يقع اللجوء الى نصح طبيب، وتفتقر جلّ المدن والقرى الى أطبّاء، إلاّ إذا وجد بالمصادفة نصرانيّ يمارس هذه المهنة. ويواسى المريض بالقول التالي : «لا تنس أننا كلّنا سنموت حتما وأن كل أحبابك ماتوا أو سيموتون يوما ما وأن هذه الدنيا فانية زائلة. » ثم يدار وجه المريض صوب الشرق فينطق بما يلي : « لا الاه الاّ الله، محمد رسول الله » ويعيد ويكرر الى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. حينئذ تدخل كل نسائه ويطلقن صياحا رهيبا وينتفن شعورهن ويخدشن وجوههن ويطلقن العنان لأساهنّ واذا كان الميّت من الأثرياء فانه يقع تأجير نادبات يصدرن صياحا ونواحا أفظع حتى مما يصدر عن نساء الميت أنفسهن. ثم يغسل الجثمان ويلف في القماش ويضمّخ بالطيب. ثم يأتي « إمام » [كذا] أي ما يضارع القسّ، ويقرأ على الميت ما تيّسر من سور القرآن ويدعو الله أن يغفر للميت ذنوبه. واذا كان الراحل موسرا وجيها فانه يحمل الى مسجد فيقيم عليه « المفتي » [كذا] بعض الصلوات ثم يسرع به الى القبر. وأثناء تشييعه الى هناك يرتّل الموكب الجنائزي قولة «لا الاه إلاّ الله... الخ».

ويعتقد أتباع محمد(Mohamedaner)أنه حالما يودع الميّت قبره يأتيه ملكان، هما « منكر ونكير »، ويطالبانه بالاجابة عن أسئلة أربعة هي : « من هو ربك ؟ من هو نبيّك ؟ ما هو دينك ؟ ما هي قبلتك ؟ » وإذا كان الميت من المؤمنين فإنه يجيب كالتالي : « ربي هو الله ونبيّي محمد وديني الإسلام وقبلتي الكعبة ــ أي معبد مكة ــ » وما أن تؤدى هذه الأجوبة حتى يغدق عليه الملكان شتّى المسرّات. وفي صورة ما إذا كان الميت من الكفرة فإنه تستعصى عليه الاجابة على نفس الأسئلة فيسلط عليه عذاب أليم. وفيما يتعلّق بمآل الرّوح حتى يوم القيامة فإنّ آراء العلماء تختلف وتتباين. ذلك أنهم أدخلوا على تعاليمهم هذه الكثير من الأساطير اليهودية. [....]

رمضان وأداء الزكاة والحج الى مكة. ويتعين على المسلم الوضوء قبل مباشرة الصلاة ويكون ذلك حسب شروط ثلاثة، أولها غسل كامل البدن، من الرأس الى باطن القدم، وهو اغتسال يهم المتزوجين بالدرجة الأولى، ثانيا غسل الوجه واللحية واليدين والساعدين الى المرفقين والرجلين الى الركبتين [كذا]، ويتحتم القيام بكل هذا قبل كل صلاة. ويشترط ثالثا أن يكون مكان الصلاة نظيفا طاهرا. ولئن تعذر على المسلم الالتحاق بمسجد لأداء الصلاة فيحقّ له إقامتها في بيته — وعادة ما يتمّ ذلك فوق السطح — أو في مصنعه أو متجره أو حتى في الحقل. ولا شيء من شأنه أن يحول دون أداء الصلاة إذا حانت ساعتها. وباكورة صلوات اليوم الخمس عند الفجر، وفي زعم العلماء أن آدم نفسه أمر بهذه الصلاة الباكرة. وثانيتها عند الظهر، ويقال انّ ابراهيم أقرّ هذه الصلاة وفرضها. ويحين موعد الصلاة الثالثة في الساعة الثالثة [كذا]، وهي في زعمهم من سنن يونس. وتقام رابعة الصلوات عند المغرب، ويدّعون أنّ عيسى هو الذي أدرجها. أما الصلاة الخامسة فموعدها عند حلول الليل، وقد حدّد ساعتها، حسب ادعائهم، موسى وأمر بها.

ويتوجّه المسلم دوما عندما يقيم الصّلاة صوب الشرق ثم يرفع يديه بحيث يلمس ابهاماه أذنيه. وفي هذه الوضعية يتلو فاتحة سور القرآن ويردفها بثانية من اختياره. ويكتفي عامتهم ببعض السور القصار بينما يعتمد المثقفون السور الطوال. ثم يركع المصلي ويلمس الأرض بجبينه ويقول : « الله أكبر ». ويكرر العبارة هذه ثلاثا إثر كل سورة يسردها. وبعد ذلك يرفع كفه إلى عينيه ويمسح على لحيته ويلتفت يمنة ويسرة ويقول : « السلام عليكم ». ويفسّر ذلك باعتقادهم أن الملائكة تقف يمين المؤمن ويساره وتراقب صلاته [...]

ولا نكاد نرى مسلما واحدا يدّعي الوجاهة، من القاضي الى ضابط الصفّ، بدون سبحة في يده للتسبيح. وتراهم يواظبون على هذه الممارسة حتّى أثناء الحديث. ويتمثل تسبيحهم في تمجيد الاله بقولهم : « الحمد لله ! الله أكبر ! الشكر لله ! » وكل مرة تدفع خرزة الى تحت. ويعتبر التسبيح فعلا محمودا للغاية.

ولا يباشر المسلم عملا ما ولا تجارة، كبيرة كانت أو صغيرة، قبل أن يتلفّظ بعبارة « بسم الله ! » وعند انهاء العمل أو ابرام الصفقة فإنه يقول « الحمد لله ! » وقبل الشروع في الأكل أيضا ينطق بـ« باسم الله ! » وإذا دخل غرفة وقلت له « اجلس » فإنه يقول « بسم الله ! » وعندما ينهض للإنصراف يعيد مرة أخرى « بسم الله ! »

ويتعيّن على كلّ مسلم بلغ سنّ الرّابعة عشرة [كذا] صوم كامل شهر رمضان، أي من منتصف جانفي الى منتصف فيفري [كذا]، وذلك من شروق الشمس الى غروبها. ويحرم خلال هذا الشهر التدخين أو تناول النشوق، بل انه يحجّر حتّى استنشاق رائحة الطعام. لكن حالما تغرب الشمس فإنه ينساق الى أقصى حدود الطلاقة. وترى الرجال يطوفون عبر الشوارع حتى بعد منتصف الليل أو يجلسون في المقاهي كما أنهم يؤمّون المساجد التي تظل مضاءة حتى بعد منتصف الليل. وعندما ينتهي هذا الشهر يقام عيد كبير يستغرق ثلاثة أيام، لا يشتغل المسلم خلالها بل يقضّي الوقت في الأكل والشرب والنزهة. ويخرج الزنوج — ومنهم هنا أعداد غفيرة — فيما بين عبيد وأحرار الى الشوارع بالطبول والمزامير ويؤدون رقصاتهم القومية.

أما الزكاة فقد حدّدت وفقا لتعليمات النبي بعشر المرابيح. بيد أني أعتقد أن النّزر القليل من المسلمين يمتثل لهذه الفريضة كما ينبغي. وقد صارحت صاحبنا « المفتي » بظني هذا وسألته أن يخبرني كيف يريح المسلمون ضمائرهم إزاء كل الانتهاكات الفادحة والمتعددة للسّنن. ونزلت عليه ملحوظتي نزول المفاجأة فصمت طويلا، لا يعرف لها ردّا شافيا. وفي الأخير خطر له أن الأنبياء والصالحين سوف يشفعون في هذه الخطيئة. لكن الأمر حيّره شيئا ما ولم يهدأ له بال طيلة وجوده عندي، فأبرزت له ضرورة « المصالحة الالاهية » فلم يسعه إلاّ أن وافقني وأضاف أنه سوف يفكر مليّا في هذا الموضوع الهامّ.

كما يتعيّن على كل مسلم أن يحجّ مرّة في حياته إلى مكة. ولعلّ هذه الفريضة أوفرها بالاستجابة والتطبيق، غير أن الرحلة الى مكة تعتبر بمثابة نزهة تتيح للمسلم فرصة التملّص من رتابة حياته العادية. ويقوم الأثرياء بهذه

الرحلة وسط موكب غفير وأبهة ظاهرة. وكلما انطلق من هنا حجيج أو مرّ بعضهم بالمكان، قادمين من مدن وأقطار أخرى، فان جموعا من سواد القوم تلتف بهم وتتبعهم برايات كثيرة حتى شاطىء البحر وهم ينشدون « لا اله الّا الله، محمد رسول الله. » ويسافر الفقراء الى الحج متنقلين من مدينة الى أخرى ويشتغلون في كل منها الى أن يجمعوا ما يكفي لمواصلة السفر. أو أنهم يتعاطون أثناء الطريق تجارة متواضعة يشدّون بها أزرهم، فلا غرو أن تستغرق هذه الرحلة في كثير الأحيان سنتين أو ثلاثا أو حتى أكثر. وإبان الوصول الى مكة يبادر الحاج بزيارة معبد الكعبة [كذا] الذي شيده، حسب زعمهم، ابراهيم واسماعيل، والذي يتضمّن، حسب قولهم، حجرا أسود عليه آثار خطوات محمد. ويقبّل الحاج هذا الحجر ويطوف بالمعبد عدة مرات. وعندما يفرغ من ذلك يتحوّل الى وادي منى (Mnia !) حيث يلقي ببضعة أحجار ذكرا لابراهيم الذي حاول الشيطان أن يغويه في هذا الوادي عندما همّ بذبح ابنه امتثالا لأمر الله. الّا أن ابراهيم التقط حجارة ورجم بها المضلّل وطرده على هذا النحو. ثم يقصد الحاج بئر « زمزم » ويشرب من مائها. ويدّعى أنها هي البئر التي هدى الملاك هاجر اليها، لمّا صرفها ابراهيم في سبيل حالها. وأخيرا تؤدى الزيارة الى قبر الرسول ثم تشدّ الرحال للعودة الى الأوطان. ويعمد الكثير من الحجاج أثناء العودة الى زيارة جبل سيناء وبيت المقدس. واذا عاد الحاج الى موطنه سالما يحقّ له حمل العمامة الحمراء والتسمّي بـ« سيدي الحاج ».

تونس في 28 ديسمبر 1835

دعاني أول أمس واحد من مسلمي المدينة أعرفه الى حضور حفل عقد زواج في أحد مساجد المدينة. ولم أفوّت الفرصة فلبيّت الدعوة. وقبل هذا الموكب في المسجد سبق أن اتفق والدا العريس والعروس على كل ما يجب الاتفاق عليه، دون أن يكون الزوجان قد شاهدا بعضهما أو تعرفا على بعضهما ولو قليلا. وعندما يتم الاتفاق بين الوالدين يعيّن يوم يبرم فيه عقد الزواج على يدي «المفتي» [كذا]. وفي هذا اليوم في ساعة محددة يتحول الأبوان والعريس والعروس وأقارب كليهما من الذكور الى المسجد، حيث يكون « المفتي » في انتظار الجماعة وقد سبق اعلامه بالحدث الوشيك ويستهل الحفل بأن يخبر أحد الأبوين الحاضرين بغاية الاحتفال ثم يهنّىء « المفتي » العروسين بالزواج. وما ان يتمّ هذا حتى يدار شراب يشرب منه « المفتي » أولاّ ثم الأبوان ثم العروسان ثم بقية الحاضرين. ثم يرش ماء عطر على الجماعة ويطلق البخور. وفي الأخير يتلو « المفتي » دعاء وينتهي حفل الزواج. وقد تركت الجماعة ينصرفون وتأخرت قليلا أمام المسجد للحديث مع بعض أهل العلم. وبادرت بالسؤال التالي : « لم لم توضّح لهذين الزوجين الحديثين الفضائل التي عليهما أن يتقيّدا بها والرذائل التي عليهما أن يتجنباها ؟ » فكان الجواب :

ــ لأنه قد لا يكون ذلك من الضروري

ــ ولم لا ؟

ــ يوجد كل هذا في القرآن ومن واجب كل مسلم أن يطّلع على فحواه ويسير على هداه.

ــ وما هي أهم الفضائل التي يجب على كل مسلم أن يعمل بها ؟

ــ الصبر والتوكل على الله وحمد الله والخوف منه وحسن السريرة والتواضع وحبّ الخير للغير والصدق والورع إلخ.

— وما هي الرذائل التي يجب أن يبتعد عنها ؟
— الاغتياب والنفاق والحسد والغرور والكبر والبغض — أي عندما يبغض المسلم أحدا يفوقه من حيث المزايا أو من حيث الثراء [...] ثم حبّ هذه الدنيا والطموح وفرط الآمال والادمان على المسرات وخشية الفقر والتعنّت والنّهم الخ.
— حسن كل هذا، وهو ما ورد في القرآن وما جاء في تعاليم أهل الفقه والشريعة. لكن قولوا لي وأقسموا برأسكم هل تعرفون مسلما يعمل بهذه الفضائل كلها ويتحاشى هذه الرذائل ؟ وهنا خرسوا وعجزوا عن الإجابة. عندئذ بيّنت لهم ان الانسان إذ يتوب لا بد أن يلقى الرحمة من الله ورجوتهم أن يفكروا مليّا في هذه المسألة.

إن المسلم لا يعرف أيام عطلة بالمعنى الصحيح. ويبدو يوم الجمعة بمثابة يوم عطلة لكن المعنى في الحقيقة هو أن كل مسلم يحرص يومها على الذهاب الى المسجد للصلاة، وعندما ينتهي ويغادر المسجد فإنه يعود رأسا الى شغله كالمعتاد. ومن عادات المكان أيضا إحكام غلق كافة أبواب المدينة يوم الجمعة وقت الصلاة، من منتصف النهار الى الواحدة، وذلك لاعتقادهم الراسخ أن النصارى سوف يسطون على المدينة ويكون ذلك يوم جمعة وقت الصلاة بالذات.

ولا يصح أيضا اعتبار احتفالي «بيرم»، الصغير والكبير معا، من الأعياد في المفهوم الديني، رغم ارتباطهما بحدث معيّن من التاريخ الديني، ألا وهو ذكرى ذبيحة اسماعيل لا اسحاق، كما يسري في اعتقاد الأتراك. ويحل أولهما مباشرة عقب رمضان ويستغرق ثلاثة أيام ويتولّى كل مسلم ميسور ذبح شاة يوزّع منها نصيبا على الفقراء، وهذه هي كل الممارسة الدينية، أمّا بقية الأيّام فإنها تضيع في الأكل والشرب واللهو وما الى ذلك، كما أسلفنا. ويتبع «بيرم» الكبير «بيرم» الأول بسبعين يوما ويتواصل عادة على مدى سبعة أيام رغم أنه من المفروض أن لا يدوم إلّا أربعة أيام. ولا يعرف المسلمون احتفالات غيرها.

ولقد دار بيني وبين أحد المسلمين المثقفين حوار، وهذا ما قاله لي : « لقد ورد في الانجيل اسم « أحمد » (يعني محمّد) الّا أن النّصارى واليهود زيّفوا النصّ الأصليّ. » فأجبته : « ان سفري (العهد القديم) و(العهد الجديد) يعودان الى عدة قرون قبل مولد محمد، وليس هناك اختلاف بين (العهد القديم) الذي هو على ملك اليهود ونظيره الذي هو في متناول النصارى. وبالتالي يستحيل أن يكون قد طرأ أي تزييف. ولكن لماذا لم تحتفظوا ببعض النسخ غير المزيفة من هذا الكتاب، لو صحّ ادعاؤكم ؟ ». وهنا أجاب قائلا : « في نظر علماء كثيرين أنّ التزييف لا يتعلق بحرف النص ولكن بالتفسير الذي توخاه النصارى، فكلمة « بارقليط » (Paraklet) الواردة في (العهد الجديد) لا تعني في الحقيقة شيئا آخر سوى محمّد »
وقد فنّدت زيغه هذا بمنتهى الوضوح ونبّهته الى ضرورة « المصالحة الالاهية » فوافقني ولكنه أضاف أنّ هذه المصالحة لا يمكن أن تكون قد تمّت على يدي عيسى لأنه لم يصلب، مستندا في ذلك الى فقرة من القرآن فيها أن اليهود ادعوا أنهم صلبوا عيسى بن مريم وفي الحقيقة لم يفعلوا بل صلبوا رجلا آخر مكانه في حين أن الله رفع عيسى إليه في السماء. ويسوق المفسرون في شأن هذا الموطن أنّ الله مسخ شريرا يهوديّا في صورة عيسى فكان هو الذي صلبه اليهود.

تونس في 6 جانفي 1836

لم أفوّت — وقد قادتني يد الله الى جوار قرطاج الشهيرة في القدم — فرصة الاطلاع على هذه المدينة التي تحتل مكانة بارزة في التاريخ والتي تعظ اليوم بحتمية الفناء. وكم مرة مررت راكبا بآثارها وكم مرة طفت عبر أنقاض هذه العظمة البائدة، ولكني لم أمرّ قطّ بهذه الأحجار دون أن أناجي بحسرة وأسى العصور الغابرة، عصور أملكار وصدر بعل وحنون وبوملقار وماغون وحنّبعل وعملقون وترتوليانوس وسبريان وأرنوبيوس ولارتانس وغيرهم . وتسلّقت مرارا الهضبة التي يتسنّى من فوقها الاشراف على كامل المدينة، حيث جلس « انياس » كما ورد عن فرجيل، لامتاع البصر بعظمتها وأبهتها وبدأب سكانها. وفي سنة 800 قبل المسيح (أو 890 حسب بعضهم) نزلت الملكة ديدون (عليسة) على ساحل افريقيا الشمالي بعد أن تمكنت بحيلة من الافلات من سطوة أخيها « بغماليون » وأسست مستوطنة على شاطىء البحر. ويصمت التاريخ طويلا في شأنها ثم نسمع عن قرطاج وقد أضحت مدينة من أجمل مدن الدنيا وأغناها، تحيط بها ثلاثة أسوار متتالية، تعلوها القلاع الشامخة، ويسكنها 700.000 نسمة وتسيطر على جزء من اسبانيا وعلى صقلية والعديد من جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى المنطقة التي تقوم عليها اليوم مملكة تونس. وسمعنا أيضا أنها ساندت خرخاس وحاربت أغتوكلاس فوق أرض افريقيا وبيروس في صقلية وهو ما أدّى الى نشوب الحرب [مع روما !]. وتحول ريغولوس الى افريقيا وانتصر على القرطاجيين في عدة مواقع واحتل تونس التي كانت يومها مدينة هامة وضرب الحصار على قرطاج وعامل الأسرى معاملة قاسية وكان يردّ على شكواهم بأنفة، قائلا : « على الانسان إمّا الانتصار أو التفاني في قلب الهزيمة الى نصر ». وناشدته قرطاج الصلح فأبى. فاشتد غضبها ورفعت السلاح وتمكّن رجل من اسبارطا تزعم جيوشها من قهر ريغولوس وأسره. ولكن روما أرسلت

قوات جديدة ودارت رحى الحرب المعروفة بالحرب البونيقية الأولى وتواصلت خمسا وعشرين سنة. ومقابل الصلح فقدت قرطاج السيطرة على صقلية التي كلفتها مجهود مائتي عام، بالاضافة الى جزر متوسطية أخرى أقل أهمية. وألزمت بدفع ألفين ومائتي « طالنت » على أقساط ومائة أخرى على الفور كما وجب عليها اطلاق سراح الأسرى دون فدية.

وعاشت قرطاج اثنتين وعشرين سنة في سلم مع روما، الاّ أن هذه الفترة لم تخل من القلاقل والفتن الداخلية. ففي سردينيا تمرّد جند قرطاج المأجور. وأوفدت روما قوّات وكأنها لنجدة قرطاج ولكنها استولت على الجزيرة وطالبت علاوة على ذلك بمبلغ ألف ومائتي « طالنت » نفقة، ووقعت قرطاج مكسورة الجناح. ولكن ها هو أميلكار ينقذ وطنه بفضل انتصارات باهرة في الداخل وأخرى في الخارج، وفي اسبانيا على وجه التحديد، لكنه لم يلبث أن سقط في موقعة ضد سكان « ليزوتانيا ». وجاء بعده صدر بعل فحارب في اسبانيا وحالفه الفوز الى أن اغتيل غدرا بعد ثماني سنوات حافلة بالنصر. ورشّح الجيش حنّبعل قائدا عليه وزكّى مجلس الشيوخ الاختيار. وما هي الاّ سنتان حتى حمل حنبعل على « ساغونت »، حليفة روما، مفتتحا بذلك الحرب التي كانت روما تترجّاها. وقاد حنبعل عساكره من نصر الى نصر وعبر جبال « البرانس » وجبال « الألب » ودخل ايطاليا ليتمم النصر على ما يبدو. ولكن نظرا الى ما لحقه من ضعف شديد والى عدم حصوله على مدد من وطنه البعيد، تدهور به الحال ولم يكن يصمد الاّ بمشقة وعناء. وهنا يأتي دور شبيون، القنصل الروماني الشاب، لينقل الحرب الى أرض افريقيا. وضاق الخناق على القرطاجيين وبذلوا عبثا أقصى جهدهم، بالسلاح وبالمفاوضات لإخماد العاصفة، ولم يبق لهم أمل سوى حنّبعل فطلبوا رجوعه من ايطاليا. فترك مسرح انتصاراته الباهرة والأسى يملؤه. وبعودته ارتفعت معنويات القرطاجيين ودبّ الأمل في قلوبهم من جديد. وسار حنبعل من لبدة وعبر حضرموت الى « زاما » التي يفصلها عن قرطاج سفر خمسة أيام، وهنا التقى بجيوش الرومان. وفي سنة 202 قبل مولد المسيح تصارع أعظم قائدي عصرهما في موقعة « زاما »، فهزم حنبعل شرّ هزيمة. ولقي قدماء

محاربيه ــ وعددهم خمسة آلاف ــ الذين شابت رؤوسهم في الحروب، حتفهم على آخر رجل. أما حنبعل نفسه فقد نجا مع حفنة من رجاله الى حضرموت . وطلب منه الالتحاق بحاضرة قرطاج التي غاب عنها طيلة 36 سنة. ووقع الاتفاق على قبول الهدنة مهما كانت الشروط. وسلّمت قرطاج جميع فيلتها وكامل أسطولها الحربي، ما عدا عشر سفن من نوع «تريراما» (38)، وتعهدت بدفع غرامة قدرها عشرة آلاف « طالنت » (أي ما يعادل 26.058.270 غولدن) على مدى خمسين سنة، ولم تحتفظ من مناطق نفوذها سوى بالحاضرة نفسها وأقاليمها الافريقية القديمة. ومنذ ابرام معاهدة السلام هذه إلى غاية سنة 140 قبل المسيح عاشت قرطاج في أمن من روما واستعادت قواها بفضل نشاط مواطنيها وبفضل سياسة حنبعل الرشيدة. الاّ أن غيرة روما وحسدها لم تخمدا وظلت روما حريصة على اثارة الفتنة من جديد، ناهيك أن كاتون الشيخ كان يختم كل خطبة يلقيها أمام مجلس الشيوخ بقوله : « وأخيرا أقول وأكرر : لا بد من تدمير قرطاج ».

وسرعان ما وجد ما يبرّر اعلان الحرب وجاء ذلك من جراء معاملة قرطاج العدوانية لأحد حلفاء روما، وهو ماسينيسا، ملك نوميديا الذي كان دوما على أهبة لشنّ الغارات على قرطاج انطلاقا من عاصمته، الجميلة والمنيعة، سيرتا، التي لا تبعد كثيرا عن قرطاج. وعهد الى القنصلين مرسيوس ومنليوس بمهمّة التوجه على رأس جيش يعدّ أربعة وثمانين ألف رجل الى افريقيا عبر صقلية، وخوض الحرب مع قرطاج حتّى تدميرها، وعلى هذا الوجه شنّت الحرب البونيقية الثالثة. وطولبت قرطاج بتزويد جيش روما بالمؤونة ففعلت وطولبت بتسليم مجمل سلاحها في معسكر الرومان فاستجابت مرغمة أيضا. لكن لمّا أمر الرومان الخادعون القرطاجيين بهدم مدينتهم وانشاء مدينة أخرى بعيدا عن البحر، عديمة الأسوار، هبوا هبّة اليائس وقرروا بالاجماع انقاذ مدينتهم العزيزة أو الموت. وصمدت المدينة اليائسة في وجه الكتائب

(38) الكلمة الواردة هي «Trirème» وتعني سفينة حربية من العصر القديم مزودة بثلاثة صفوف من المجاديف من كل جانب فوق بعضها.

المجبولة على النصر والتي لم تعرف الهزيمة منذ ثلاث سنين، وقاومت حتى تقدم شبيون امليانوس بعساكره وأعطى الأمر بالهجوم. وكان القائد القرطاجي صدربعل، الذي كان متمركزا خارج المدينة على رأس عشرين ألفا من عساكر مرتزقة، قد اضطر الى التقهقر والالتجاء الى داخلها. ولم تصمد أسوار المدينة طويلا في وجه المهاجمين وتحول التطاحن الى أنهج المدينة حيث استمرّ ستّة أيام الى أن خمدت نار القتال بعد أن بلغت أوجها. ولم يبق من السبعمائة ألف ساكن على قيد الحياة سوى خمسين ألف فقط، اعتصموا داخل قلعة « بيرصا ». وكان من بينهم صدربعل وما تبقى من قواته فقبل تسليم هذه القلعة الى الرومان، مما أدّى الى اثارة غضب تسعمائة جندي روماني كانوا انفصلوا عن أصحابهم وانضموا الى صفوف القرطاجيين، واغتاظوا من خيانة قائدهم فأضرموا النار في معبد « أسكولاب » الذي لم يصب بعد بأذى وألقوا بأنفسهم في اللهيب المستعر. وأبت زوجة صدربعل بدورها الاّ أن تعبّر عن عميق استيائها من صنيع بعلها فألقت كذلك بنفسها بمعية أطفالها في النار. وعلى مدى سبعة عشر يوما أستمرت النيران الهوجاء متقدة، تلتهم هذه المدينة الفاخرة، العظيمة التعيسة، الى أن أضحت كومة رماد. وأثّر ذلك في نفس شبيون الذي آلمه أن يرى عن بعد ألسنة اللهيب الحمراء القانية تتعالى الى السماء من المدينة المتهاوية التي ظلّت على مدى 750 سنة سيدّة البحر. وسمع وهو ينشد الأبيات التالية من شعر « هومير »، وكأنه يستحضر بحدسه مصير روما المستقبلي : « سيأتي اليوم الذي تسقط فيه مدينة « إلياس » المقدسة، وحتّى « برياموس » نفسه، وشعب الملك الرمّاح الماهر. »

ووقع تقسيم الأرض التي كانت على ملك قرطاج فأهدى الرومان جزءا منها الى « أوتيك » المجاورة واستحوذوا على جزء صيّروه ولاية رومانية يشرف عليها عشرة مفوّضين من روما. وفي وقت لاحق قامت على أطلال قرطاج البائدة قرطاج حديثة. وقد بدأ تأسيسها منذ عهد « تيباريوس كراخوس » ثم أكملها « يوليوس قيصر » وظلت عدة قرون أخرى عاصمة اقليم روما على ساحل افريقيا الشمالي. وقبل منتصف القرن الخامس وصل

« الفندال » الى افريقيا بعد أن بثوا الرعب والفزع في كامل أروبا. وجاءوا تحت زعامة، « جنزريش » أو « جيزريش (Genserich-Geiserich)» واحتلوا سنة 439 بعد مولد المسيح قرطاج الحديثة، التي أصبحت مستعمرة رومانيّة غنيّة وأقاموا في هذا الجزء من افريقيا الذي افتكّوه من الرومان دولة الفندال الشهيرة التي دامت ما يزيد على قرن، الى أن قضى عليها « جوستنيان » بفضل قائده الباسل « بليزار ». وقد أبحر « بليزار » في صائفة 533 بعد مولد المسيح من ميناء القسطنطينية على رأس 10000 جندي من المشاة و5000 من الخيالة وقصد ساحل افريقيا الشمالي ونزل بلبده وسار نحو قرطاج عبر حضرموت ، حريصا على استمالة قلوب الأهالي أينما حلّ بفضل انضباط جيشه التامّ. ولم يمرّ على نزوله طويلا حتّى دخل قرطاج منتصرا. وحصّن المدينة وبدّد في فترة وجيزة دولة الفندال بافريقيا. وعيّن لولاية قرطاج حاكما رومانيا عاما يقال له «Eparchen». واستعادت هذه المدينة مكانتها كقاعدة اقليم روماني. وفي سنة 534 عاد « بليزار » ـــ الذي يصح نعته بشبيون الثالث ـــ الى القسطنطينية.

وكانت المسيحية قد أنبتت منذ وقت باكر جذورا في قرطاج ومحيطها. ففي أواخر القرن الثاني انبثقت من الظلام في هذا الاقليم كنيسة من كنائس المسيح واسعة الانتشار. ويذكر ترتوليانوس (Tertulian) أن آلافا عديدة من كلا الجنسين ومن كافة شرائح المجتمع كانوا في ذلك العهد يعتنقون المسيحية وأن قرطاج عاصمة افريقيا الـ« بروقنصلية » كانت تظهر بمثابة مشتل من مشاتل الانجيل بالنسبة الى مستعمرات روما في هذه الربوع الافريقية. وتوطدت أسس الكنيسة المسيحية منذ ذلك الوقت على هذه السواحل بصفة مطردة وتغلغل نفوذها الى داخل القطر. وعلى حين غرة ظهر الفندال، هذا الشعب المتوحش، ومحقوا هذه النبتة الفتية الجميلة. وقد اكتسحوا البرّ وكأنهم السيل الجارف وتحاشتهم الكتائب الرومانية في كل مكان. وكان « جنزريش » لم يلبث أن تنصّر بمعية عصاباته الهمجية، على يدي قسّيس « أرياني »، تنصّرا صوريا لا إيمان فيه. ونظرا لأن الكنيسة الافريقية كانت زمن ظهوره بالذات تعاني من الانشقاق والانخذال، من جراء

التطاحنات الدامية بين فرقتي « الدوناتية » و« الأريانية »، فقد رأى الأمير الفندالي أن يرجّح كفّة فريق على حساب الآخر حتى يتيسر له تركيز سلطته في أسرع وقت ويكسب حلفاء أقوياء من أهالي البلاد. واعتزم مناصرة « الأريانيين » المضطهدين وملاحقة أتباع الكنيسة الكاثوليكية بالحديد والنار. فما أن تمّ له فتح قرطاج حتّى شرع يلاحق رجال الكنيسة المحلية بقساوة وعنف. واضطر أكثر أساقفة الكنيسة صبرا وتجلدا، وغيرهم من وجهاء القوم، الى التخلّي عن مناصبهم أو الاستسلام الى نير الاسترقاق. وكان مصير أسقف قرطاج آنذاك أن أمر « جنزريش » بإيداعه، عاريا وصحبة قساوسته، سفينة بها ثقب. الاّ أنها وصلت بهم رغم كل الأخطار الى مرسى نابولي. وتواصل اضطهاد رجال الدين الصحيح، بصرف النظر عن بعض فترات الهدنة، طيلة حكم الفندال. ويقال إنه تمّ خلال ذلك العهد تشريد 54 أسقفا من الاقاليم « البروقنصلي » و125 من نوميديا و120 من موريطانيا و107 من « بيزاسانيا » إلخ. أي ما يساوي في المجموع 464 أسقفا، منهم 88 من قرطاج، لقوا حتفهم قبيل انطلاقهم الى المنفى من جراء ما لحقهم من سوء المعاملة.

وبعد القضاء على حكم الفندال على ساحل افريقيا الشمالي، بفضل « بليزار »، بدا كأن حكومة القيصر الاغريقي « جوستنيان »، الحديثة العهد، تبشر ببعث جديد للكنيسة المسيحية في هذا الجزء من المعمورة. الاّ أن هذه الكنيسة شاطرت الأمبراطورية الاغريقية المنحلة، التي انضوت تحت لوائها، فسادها الأخلاقي وتسيّبها وبالتالي أصيبت معها بعد مضي قرن فقط بالعقوبة الربانية التي تلبدت على تخومها الشرقية وكأنها سحابة الاعصار السوداء.

أجل، لقد بدأ زحف جيوش العرب الموالية لمحمد والفاتحة على شمال افريقيا منذ سنة 647. وقد تمّ للخليفة عثمان ـــ وهو ثالث من خلف محمدا ـــ القضاء على الأمبراطورية الرومانية الشرقية وعلى كنيسة المسيح الملتحمة بها. وتقرر مصير أقاليم شمالي افريقيا الغنّاء اثر موقعة حامية الوطيس التقت فيها شعوب متعددة وانتصر فيها، بعد اقتتال استغرق أياما، القائد العربي

عبدالله [بن أبي سرح] على القائد الروماني « غريغوريوس » (جرجير) [...]

وخرّبت قرطاج بتمامها ولم تستفق هذه المدينة العظيمة في سالف الأيام من هذا الدمار الأخير، بل أضحت تندثر يوما بعد يوم وتنقرض عن سطح الأرض. وها نحن اليوم نرى المحراث يجري فوق ما كان سابقا شوارع مكتظة بالخلق ونرى غنم الرعاة ترعى وتربض هناك حيث كانت تشمخ العمارات الفاخرة، وصار السائح يمشي بين أكوام الحجارة غارقا في عميق الأفكار متسائلا في كدر وكآبة : « أصحيح أن قرطاج كانت تقوم في هذا المكان ! »

ورغم أن قرطاج الأثرية تبعد عن تونس ما لا يقل عن أحد عشر ميلا أنكليزيا فإن بقاياها تترامى حتى أبواب الحاضرة من جهة وحتى حلق الوادي من جهة أخرى، كما تغطي بحيرة تونس جزءا كبيرا منها. وتوجد حاليا على مقربة من مرفإ قرطاج عدة منازل ريفية جميلة تحيط بها أروع البساتين، يؤمها جل القناصل الأروبيين في فصل الصيف. وترتسم بوضوح أمام الناظر تلك الهضاب التي كانت تقوم عليها قرطاج العظيمة. وتعلو اليوم إحداها قرية « سيدي بوسعيد » الاسلامية، هذا الحرم المشهور الذي يلوذ به المجرمون ويمثل للعيان على مسافة قريبة من هذا الموقع برج أسسه « لويس التقي » [كذا] ملك فرنسا، وبجواره ضريح هذا الملك. وقد صعدت في مناسبتين الى أعلى هذه الهضبة لأمتع بصري بالمنظر الطبيعي الفتّان الذي يتاح للمشرف، منظر دائري على محيط يبلغ ستين ميلا. وتجلّى لي يسارا رأس « بونه » أو « كابا بونه » [الوطن القبلي] وقرية سليمان، وجبال حمام الأنف العالية وقلعة حلق الوادي ومرساه وخليج تونس وبحيرتها والمدينة ذاتها. ولاحت لي يمينا قرية أريانة وخليج البحر الأبيض المتوسط [!] « وبورتو فارينا » أو غار الملح الواقع في مصب وادي مجردة، وفي الأسفل نرى آثار قرطاج وسهولها. وأجمل بقايا هذه المدينة المشهورة سالفا 14 صهريجا حسنة الصون، عمق الواحد منها 80 قدما وعرضه 20 قدما، ثم أجزاء متقّطعة من حنايا المياه ثم أكوام من الحجارة. وما زال الى يومنا هذا يعثر في هذا الموطن الأثري على الكثير من القطع النقدية العتيقة ولا يتطلب اكتشافها تنقيبا طويلا أو جهدا فقد عثرت شخصيا على عدد منها دون بذل كبير عناء.

تونس في 12 جانفي 1836

لما بادر العرب باقتحام ساحل افريقيا الشمالي سنة 647 توغلوا منتصرين حتى خليج سرتا الصغرى أي مملكة طرابلس حاليا. الاّ أن حروبا أهلية حالت دونهم ودون مواصلة الغزو ثم قاموا بعدة حملات أخرى باءت بالفشل، بعد بداية مكلّلة بالفوز. وهزم عبد الملك [بن مروان] جيوش الأهالي الأصليين ثم أرسل سنة 692 حسّان [بن النعمان] على رأس جيش جرّار لاتمام اخضاع افريقية. ونفذ هذا ما أوكل اليه وافتتح أرياف ساحل افريقيا الشمالي ومدنه، بما في ذلك ملكة هذه المدن سالفا، قرطاج، التي كانت آنذاك قاعدة الصناعة المدنية والحربية معا. لقد تحملت هذه المدينة المجيدة والتعيسة في آن واحد الدمار ثلاث مرات متتالية، وها هو الآن حسّان يصيّرها رمادا.

ولم يدم هذا الاحتلال بدوره طويلا، فبعد أن هرب الأهالي الأصليون أمام هجمة العرب العنيفة إلى شعاب جبال الأطلس طلعوا منها سنة 698 وصدورهم تفور بغضب التعصب والتفوا حول راية النبوة التي كانت ترفعها ملكتهم الكاهنة. وأسفرت أساليبهم الحربية المتوحشة عن تحطيم ما تبقى من معالم الفن القديم وشواهد عظمته في هذا القطر الذي كان فيما مضى يحفل بالازدهار وبالعباد والعمران، والذي أضحى على مدى ثلاثة قرون عرضة للنكبات والرزايا التي ما انفكت تنهال عليه سواء من الداخل أو من الخارج.

وذهب حسان وأخذ موسى [بن نصير] مكانه في ساحة القتال الدامية وقد أرسله الخليفة الوليد، مصحوبا بابنيه عبد الله وعبد العزيز، وفي سنة 709 تمكنوا من انهاء هذه الحرب الضروس. ولم يرضخ الأهالي ويستسلموا لسلطان « الهلال » الاّ بعد أن مني المسيحيون منهم والبربر بأنكر الهزائم وبعد أن وقع ثلاثمائة ألف منهم سجناء. وأذعنوا لتعاليم القرآن وتعلّموا لغة الغالب، وكما اندمجوا معه في عقيدة واحدة انصهروا معه شعبا واحدا.

وتحولت قاعدة العرب السياسية والعسكرية من قرطاج المخربة الى القيروان. وبعد مدة وجيزة وفي سنة 805 تأسست مملكة تونس [كذا] وقد سبقها تأسيس مملكة فاس سنة 788 وتبعها فيما بعد في سنة 1069 قيام مملكة مراكش. وفي غضون هذه الحقبة بويع أبو فارس ملكا على تونس. وزحف على المغرب منتصرا وعيّن نفسه سلطانا على كامل بلاد البربر.

وفي القرن الثالث عشر اتّخذ في فرنسا القرار بتنظيم حملة على تونس، وفي سنة 1270 أرسى القديس لويس ملك فرنسا قرب آثار قرطاج وزحف على تونس لكنه هزم ومات بالطاعون ودفن في تراب افريقيا. ومنذ ذلك العهد استقامت الأمور لملوك تونس وتداولوا ملكهم بدون منازع الى غاية القرن السادس عشر ودخلوا بمعية دول الجزائر وطرابلس والمغرب في حرب شعواء ضدّ أمة المسيح واغتصبوا السفن وكبلوا ركابها بأغلال العبودية. وفي هذه الظروف ظهر سنة 1535 شارل الخامس، ملك اسبانيا، على رأس أسطول جبّار واحتل مدينة تونس. ثم حصّن ميناء حلق الوادي وشيّد في تونس قلعة القصبة. ورام توسيع فتوحاته لكنه هزم بالجزائر وفقد كل ممتلكاته على الساحل الشمالي [لافريقيا]. وتلا ذلك أن أعلن السلطان سليم نفسه حاميا لسائر دول بلاد البربر وولّى على كل دولة منها حاكما برتبة باشا. ولكنه لم يلبث أن تراجع عن هذا القرار وسمح بأن ينتخب الأهالي المسلمون والعرب [كذا] لأنفسهم دايا يدير شؤونهم، وهكذا كان. الاّ أنه سرعان ما عظم نفوذ الجزائر وتمكن دايها من فرض سيطرته على تونس الى سنة 1684. وفي هذه السنة نفضت تونس عنها قيود التبعية التي فرضتها عليها الجزائر وبايعت بايا من رجالها يدعى محمد. لكن الجزائر شنت هجوما على تونس بحشد هام ففر الباي المنتخب حديثا الى الجبال وعين الجزائريون تركيا يدعى محمد بن شكر (39) بايا على تونس. ولكن ما إن انسحبت القوات الجزائرية حتى زحف الباي المخلوع محمد على تونس في جيش

(39) يرد هذا الاسم في النص الألماني خطأ على النحو التالي Mohamed Ben Chules.

من أعراب الجبال. واحتل تونس وأطرد أتراك الجزائر الى ديارهم واستتب له الحكم حتى وافاه الأجل. وخلفه شقيقه رمضان باي الذي لم يلبث أن مات مقتولا من قبل ابن أخيه مراد. وما ان أمسك هذا بزمام الحكم حتى عاجله الشريف ابراهيم [كذا] بمصير مماثل واحتل مكانه. ولم يمض وقت طويل على تربعه على العرش حتى تعيّن عليه الخروج لمقابلة الجزائريين فوقع سجينا واقتيد الى الجزائر. وحينذاك قدّم الجيش عليه حسين بن علي [...] ومنه تنحدر الى اليوم سلالة بايات تونس بصفة منتظمة. وتمكن الشريف ابراهيم من الفرار من محبسه وأبى الاّ أن يعود الى مملكة تونس آملا أن يجمع أنصارا يعتمد عليهم، لكن ألقي عليه القبض وقتل بأمر من حسين بن علي. ولم يكن حظ هذا أوفر ممن سبقه فقد قام عليه ابن أخيه علي [باشا] وأطاح به ونفاه الى سوسة ولما تطاول فيما بعد على استعادة حكمه قتل في حين تمكن ابناه من النجاة بنفسيهما الى الجزائر. وكان حاكمها يكن العداء لعلي باي فأغار على تونس بعساكره وأعدم علي باي ونصّب محمدا، أكبر أبناء حسين بن علي، على كرسي الحكم. وما هي الاّ فترة وجيزة حتى مات هذا الباي تاركا ابنين دون سنّ الرشد هما محمود واسماعيل. فحكم علي، شقيق الباي الراحل نيابة عن ابني أخيه، لكنه عرف قبل وفاته كيف يضمن الخلافة لابنه حمودة. وبويع هذا بالفعل بايا سنة 1780 [كذا] وكان من أرشد من تولى عرش هذه المملكة. وكان يتكلّم العربية والتركية والايطالية وتدين له المملكة بعديد المنشآت النافعة والاصلاحات وجهّز جيشا قوامه أربعون ألفا من أهل البلاد وستة آلاف من الأتراك وطهّر البلاد بأسرها من قطّاع الطريق وساد بحنكة وسداد رأي ومضت على حكمه ثلاثون سنة ثم سقط في إحدى ليالي رمضان من على كرسيّه صريعا بعد أن شرب فنجان قهوة، ذلك أن القهوة كانت مسمومة. وتبوّأ أخوه عثمان العرش من بعده. بيد أنّ محمود واسماعيل، وليّي العهد الشرعيّين، لم يزالا على قيد الحياة. وتمكنّا من الفتك بعثمان وابنيه واعتلى محمود العرش سنة 1815 ولم يمض على بيعته وقت طويل حين قام صاحب الطابع، صهر الباي، بحبك مؤامرة ضدّه واكتشفت الخطّة فكانت العاقبة أن أريق دم صاحب الطابع

وأناس كثيرين منهم المتورّط ومنهم البريء. ولم تتجاوز فترة حكم محمود خمسة أعوام فخلفه بعد موته ابنه حسين (40) الذي لا يعاب عليه، بغضّ النّظر عن مشاركته في اغتيال عمّه [كذا] (41) وابنيه، شيء سوى ميله الى حياة الرّخاء والتّرف. وقد توفّي حسين في شهر ماي من السنة المنصرمة فتلاه على العرش أخوه مصطفى الذي يرجى منه الخير كلّه.

---

(40) استولى محمود باي على الحكم سنة 1815 ومات سنة 1824 . غير أنه سلم منذ 1819 مقاليد الحكم إلى ابنه حسين باي .

(41) عثمان باي ، ضحية هذا الانقلاب ، هو في الحقيقة ابن عمّ محمود باي ، والد حسين .

الفهـــــرس

"REISE VON TUNIS NACH TRIPOLIS" des EVANGELISCHEN MISSIONAR Christian Ferdinand EWALD / Mounir FENDRI - Tunis : Fondation Nationale pour la Traduction, l'Etablissement des Textes et les Etudes "Beït Al-Hikma" : 1991 (Tunis : PRISME) 168 p. 24 cm (Traduction : Historiographie) - Relié.
I.S.B.N. 9973-911-63-6.

il a été tiré de cet ouvrage 3000 Exemplaires
dans sa 1ère édition

Reise

des

evangelischen Missionar

Christian Ferdinand Ewald,

von

Tunis über Soliman, Nabal, Hammamet, Susa, Sfax, Gabis, Gerba nach Tripolis, und von da wieder zurück nach Tunis,

im Jahre 1835.

Herausgegeben

von

Dr. Paulus Ewald,
Königl. Pfarrer zu Plech.

Mit vielen Kupfern: Ansichten, Pläne, Trachten rc. enthaltend.

Nürnberg,
Verlag von Ferdinand von Ebner.
1837.

Série B : TRADUCTION

1 - "Les Travailleurs tunisiens et l'émergence du mouvement syndical" de Tahar Haddad. Traduit de l'arabe en français par Abderrazak Halioui, 1985.
2 - "La physique moderne et ses nouvelles théories" d'Arthur March. Traduit de l'allemand en arabe par Ali Belhadj, 1986
3 - "Songs of Life" (choix de poèmes de Chabbi). Traduits de l'arabe en anglais par Lena Jayyussi et N. Shihab Nye, 1987.
4 - "Breife aus Tunesien" de Heinrich Barth (Relation de voyage en Tunisie en 1845-46). Traduit de l'allemand en arabe par Mounir Fendri, 1987.
5 - "Le Petit Livre du Salut" de Miskawayh. Traduit de l'arabe en français par Roger Arnaldez, 1987.
6 - "Kashf al-asrâr"... (Traité d'arithmétique et d'algèbre), de Qalsadi. Traduit de l'arabe en français par Mohamed Souissi, 1988.
7 - "Journal" d'Aboul Qasim Chabbi. Traduit de l'arabe en français par Mongi Chemli et Mohamed Ben Smaïl, 1988.
8 - "La langue des Mathématiques en arabe". De Mohamed Souissi. Traduit du français en arabe par l'auteur, 1989.
9 - "Sources de la philosophie arabe". De P. Duhem. Traduit du français en arabe par Abou Yaareb Marzouki, 1989.
10 - "Semilasso in Africa". Traduit de l'allemand en arabe par Mounir Fendri et Sahbi Thabti, 1989.
11 - "La grammaire transformationnelle". De Maurice Gross. Traduit du français en arabe par Salah Kechaou, 1989.
12 - "Les Cent poèmes du Japon". Recueil traduit du japonais en français par Claudine Frey et du français en arabe par Mohsen Ben Hamida, 1990.
13 - "L'évolution économique de la Tunisie". De Mohamed Salah M'Zali. Traduit du français en arabe par Hédi Timoumi, 1990.
14 - "Les Egyptiens" (Réplique à un pamphlet du Duc d'Harcourt - fin du XIXe siècle) ouvrage écrit en français par Kassem Amin et traduit en arabe par Souad Triki, 1990.
15 - "Sleepless nights" de Ali Du'aji. Traduit de l'arabe en anglais par William Granara. 1991.
16 - "La familia de Pascual Duarte" de Camilo Jose Cela. Roman traduit de l'espagnol en arabe par Jomaâ Cheikha et Mohamed Néjib Ben Jemia. 1991.

Directeur-responsable : Le Président de la Fondation Nationale Beït Al-Hikma
Azedine BASCHAOUCH

REISE

VON TUNIS NACH TRIPOLIS
(über Soliman, Nabal, Hammamet, Susa, Sfax, Gabis, Gerba)

des
evangelischen Missionar
Christian Ferdinand EWALD
Im Jahre
1835

INS ARABISCHE ÜBERSETZT
von
MOUNIR FENDRI

FONDATION NATIONALE POUR LA TRADUCTION
L'ETABLISSEMENT DES TEXTES ET LES ETUDES
Beït Al-Hikma - Carthage
1991

REPUBLIQUE TUNISIENNE

MINISTERE DE LA CULTURE

Fondation Nationale de Carthage - "BEÏT AL-HIKMA"

La publication de cet ouvrage est
subventionnée par le Ministère de la Culture,
sur la recommandation du Ministre,
Monsieur Mongi Bousnina

TRADUCTION
HISTORIOGRAPHIE

REISE

VON TUNIS NACH TRIPOLIS
(über Soliman, Nabal, Hammamet, Susa, Sfax, Gabis, Gerba)

des
evangelischen Missionar
Christian Ferdinand EWALD
Im Jahre
1835

INS ARABISCHE ÜBERSETZT
von
MOUNIR FENDRI

FONDATION NATIONALE Carthage